



كتاب

لطف التلميذ

لمحمد بن عبد الله الخطيب الأسكافي
المتوفى سنة ٤٢١ هـ



حَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ
أحمد عبد الباقى

PJ
7745
L8
L8
1979



دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

مقدمة

من بين المخطوطات التي تعزبها مكتبة المثنى ببغداد ، مخطوطة نفيسة يرجع عهدها إلى القرن التاسع الهجري ، بعنوان : « لطف التدبير » تأليف محمد بن عبد الله الخطيب ، المعروف بالإسكافي المتوفى سنة ٥٤٢١ هـ . وقد تصفحتها بإمعان ، فوجدتها تضم مجموعة من الحكايات والأخبار ، فيها بحوث شيقة ومعلومات طريفة ، علاوة على قيمتها الأدبية والتاريخية . فحاولت إخراجها من مطاوى النسيان بتحقيقها ونشرها ، مساهمةً بقسط متواضع في حركة إحياء تراثنا العربي الخالد .

تقع المخطوطة في (٢٢٠) صحيفة من القطع المتوسط ، كتبت بخط النسخ ، وبممداد أسود ثابت ، عدا العناوين التي كتبت بالممداد الأحمر ، واتبعت صفائفها نظام التعقيية . وللمخطوطة غلافان : أحدهما داخلي ، وهو غلافها الأصلي ، والآخر خارجي ، يظهر أنه أضيف إليها بعد مدة من كتابتها . لأن العنوان المثبت عليه يختلف في خطه ومضمونه عن العنوان الوارد على الغلاف الداخلي ، كما أن ورق هذا الغلاف يختلف عن بقية ورق المخطوطة .

وعنوان المخطوطة على غلافها الداخلي الأصلي هو : « كتاب لطف التدبير لمحمد بن عبد الله الخطيب ، تغمده الله تعالى برحمته » . أما العنوان المدون على الغلاف الخارجي المضاف فهو : « كتاب الجوهر الإكسیر فی اللطف والتدبير فيما وقع للخلفاء والسلاطين من الأحاديث الغريبة والحكايات العجيبة » . تأليف خاتمة الحفاظ والمحدثين : الحافظ البغدادي تغمده الله برحمته ، أمين . وقد

اشتمل على اثنين وثلاثين باباً على التمام والكمال . وهذا العنوان ؛ كما يبدو ، مُستمد من محتوى الكتاب . إلا أن الذى أضاف الغلاف الثانى ، توهم فى اسم المؤلف ، حين نسب الكتاب إلى الحافظ البغدادى ، وهو أبو بكر أحمد بن على الخطيب صاحب تاريخ بغداد . والوقوع بهذا الخطأ غير مُستغرب ، وذلك لتشابه لقب المؤلفين ، ولسعة شهرة الخطيب البغدادى بالنسبة للخطيب الإسكافى مؤلف الكتاب .

وتنتهى المخطوطة بالعبارة التقليدية للمخطوطات العربية ، وتتضمن اسم الناسخ وتاريخ النسخ ، وقد أثبتناها فى آخر الكتاب . وليس فيها ما يشير إلى الأصل الذى نسخت عنه ، وهو نقص يؤسف له .

والمخطوطة رغم عمرها الطويل الذى قارب خمسمائة عام ، نظيفة بصورة عامة ، ولا زال ورقها صقيلاً قوياً على كثر هذه السنين ، خلا بعض الصفائف القليلة التى تسربت إليها الأرّضة . إلا أن تخريباتها ، لحسن الحظ ، قليلة ، وأكثرها قد حدث فى هوامش الصفائف ، فلم تؤثر على شىء من نصوص الكتاب إلا اليسير . وخطها على وضوحه وسهولة قراءته حصل فى عدد غير قليل من كلماته تصحيف وتحريف ، بَمَدَّ بها عن معناها الأصلية . كما سها الناسخ عن نسخ بعض الكلمات والعبارات فى بعض الأبواب .

وقد تيسر لنا الحصول على صورة فوتوغرافية لنسخة أخرى من الكتاب ، موجودة فى مكتبة السلطان أحمد الثالث باستانبول ، وقام بتصويرها معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة . وقد تفضل الأخ الأستاذ فؤاد سيد ، أمين دار الكتب المصرية بتوفيرها لنا ؛ فله منا جزيل الشكر على مساهمته بإحياء هذا التراث العزيز .

وعنوان هذه النسخة ، وسوف نرسم إليها برمز (ب) ، يطابق عنوان
نسختنا حيث جاء كما يلي : « كتاب لطف التدبير ، من جمع الشيخ الإمام العالم
الفاضل الكامل الحيز العلامة أبي عبد الله الخطيب ، قدس الله روحه ، بمحمد
 وآله الطاهرين » .

ويلاحظ أن هذه النسخة نسبت كذلك إلى العلامة الخطيب البغدادي ،
وهو نفس الخطأ الذي وقع فيه مالك نسختنا عند ما أضاف الغلاف الخارجي .

وهناك عنوان آخر للكتاب كُتب في أعلى الغلاف بخط يفاير خط العنوان
الأصلي هو : « كتاب لطف التدبير في تدبير الرئاسة » . ويظهر من نوع خطه
أنه كتب بعد مدة من نسخها .

تتألف النسخة الثانية من (١١٦) صحيفة تحتوي كل منها على (٢١) سطراً ،
وقد كتبت بخط النسخ . وخطها قوى واضح ويعتبر ممتازاً ، ونرجح أن ناسخها
خطاط . إلا أنها مثل غيرها من المخطوطات ، جاءت مشحونة بأخطاء الناسخ من
تصحييف بعض الكلمات وتحريفها ، وإغفال بعض الجمل والعبارات ، وتقديم
الأقسام وتأخير بعضها بالنسبة لنسختنا . كما أن عدداً من قصصها تنقص عن
مثيلاتها في نسختنا ، مما يجعل نسختنا أتم وأكمل من النسخة الثانية . ولذلك
اعتبرنا نسختنا هي الأصل ورمزنا إليها بحرف (أ) ، وحاولنا أن يكون
الكتاب المطبوع طبق ذلك الأصل جهد الإمكان .

غير أننا اعتورنا بعض المصاعب التي يقدرها من عالج تحقيق الكتب
المخطوطة ونشرها ، منها الأخطاء في النسخ ، بتصحييف بعض الكلمات أو تحريفها ،
مما يخرجها عن معناها الأصلي أحياناً ، أو سهو الناسخ عن نسخ بعض الكلمات
أو العبارات ، فيأتي النص ناقصاً . فحاولنا الاستفادة من نسخة (ب) ،

فساعدتنا على قراءة ما لم نستطع قراءته من الكلمات في نسخة (١) ، وفي إكمال
النقص الذى جاء فى بعض أبوابها ، وفي تصحيح الاضطراب والارتباك فى بعض
عباراتها . فوضعنا ما أخذناه من النسخة الثانية (ب) ليكمل النقص الذى فى نسخة
الأصل بين قوسين . أما الكلمات التى وجدناها تتباين بألفاظها ومعانيها بين
النسختين ، فقد حاولنا أن نثبت ما فى نسخة الأصل ، ثم نشير فى الهامش إلى ما ورد
فى نسخة (ب) ، إلا فى حالات قليلة جداً ، عندما لا نجد ما ورد فى نسخة الأصل
يطابق سياق الكلام ، فنأخذها كما وردت فى النسخة الثانية (ب) ، ونشير إلى
ذلك فى الهامش .

كما أننا حاولنا أن نرجع فى تحقيق بعض النصوص التى وردت فى تضاعيف
الكتاب إلى أصولها فى أمهات المصادر ، وبخاصة ما سبق تأليفه عصر المؤلف ،
لمقابلاتها وتصحيحها بحسب ما جاءت فى تلك الأصول ، وقد أشرنا فى الهامش
إلى كل تصويب من هذا القبيل . وبهذه الوسيلة أيضاً استطعنا أن نكمل
ما وجدناه من نقص فى بعض النصوص ، وتقويم لبعض العبارات ، استعصى علينا
فى كلتا النسختين ، إلا أن بعض الأبيات الشعرية التى لم نعثر على أصولها فى
مصادر أخرى ؛ فقد اضطررنا إلى إثباتها كما جاءت فى المخطوطة .

وبالنظر لشدة التشابه والتقارب بين النسختين ، نستطيع أن نقول إنهما
قد نقلتا عن أصل واحد . أما الاختلافات الموجودة بينهما ، وهى قليلة ، فمردها
إلى الناسخ فى كل منهما . إما لنسيانه نسخ بعض الكلمات والعبارات أو لعدم
استطاعته قراءة الأصل . ومن الطبيعى أن نجعل ما إذا كان نسخ هاتين النسختين
قد تم عن نسخة المؤلف أم غيرها ، لأنهما لا تتضمنان أية إشارة إلى النسخة التى
تم النقل عنها .

إلا أن الخط الذي كتبت به النسخة الثانية ، من حيث نوعه وقوته ووضوحه ، يجعلنا نرجح أنها كتبت مؤخراً ، غير أن الناسخ آثر أن يضع عليها تاريخ النسخة التي نقل عنها . والواقع أن الناسخ لم يذكر اسمه في آخر المخطوطة ، كما هو المعتاد ، بل اكتفى بقوله : « تمت النسخة المباركة المسماة بلطف التدبير في أول رمضان المبارك سنة ثمانين وثمانمائة » وأرجح أن هذه العبارة قد نقلها مع نص الكتاب بالفاظها وتاريخها . ولو كنا اطلعنا على المخطوطة نفسها ، لكان في نوع ورقها ودرجة جدتها ما يساعدنا على تأكيد ما ذهبنا إليه . على أن الصورة الفوتوغرافية التي بين أيدينا للنسخة الثانية ، تدل دلالة واضحة على نظافة المخطوطة وحدتها ، مما يؤيد قولنا بجدثة نسخها ، إضافة إلى نوع خطها وقوته ، كما أشرنا آنفاً

وللتحقق من عنوان الكتاب وصحة نسبته إلى الخطيب الإسكافي ، رجعنا إلى عدد من كتب التاريخ والتراجم ، التي وضعت في عصر المؤلف وبعده ، كتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وكتاب الأنساب للسمعاني ، وكتاب المنتظم لابن الجوزي ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ، وكتاب الكامل لابن الأثير ، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ، فلم نجد للمؤلف محمد بن عبد الله الإسكافي ذكر في هذه المصادر ، عدا ترجمة مقتضبة في معجم الأدباء ، تضمنت إشارة موجزة عنه مع أسماء بعض ما ألف من الكتب ، وقد ورد ذكر هذا الكتاب بينها باسم : « لطف التدابير في سياسات الملوك » . وقد لاحظنا أن كتب التراجم وفهارس الكتب التي وضعت بعد صاحب معجم الأدباء ، والتي تضمنت شيئاً عن الخطيب الإسكافي ومؤلفاته ، قد نقلت ما جاء عنه في المعجم المذكور دون زيادة . فإن صلاح الدين الصفدي صاحب كتاب « الوافي بالوفيات » نقل حرفياً ما جاء في معجم الأدباء عن الإسكافي ومؤلفاته . ومثله فعل السيوطي في كتابه بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . وكذلك الأمر في المعاجم الحديثة مثل كشف الظنون

عن أسامى الكتب والفنون ، ومعجم المطبوعات العربية والمعرّبة ، وهدية العارفين ، ومعجم المؤلفين ، وكتاب الأعلام . فإنها كلها اقتبست ما تضمنه معجم الأدباء مع بعض التحريف في عنوان الكتاب . فقد ذكره صاحب كشف الظنون بعنوان : « لطف التدبير في سياسات الملوك » أما صاحب معجم المطبوعات فقد أثبتته بعنوان : « لطف التدبير في سياسة الملوك » وسأيره في ذلك صاحب هدية العارفين وصاحب الأعلام .

أما المستشرق بروكلمان ، فقد ذكره في كتابه المفصل عن تاريخ الآداب العربية باسم « لطف التدبير في حيل الملوك » وقد أشار إلى وجود نسختين مخطوطتين من الكتاب في استانبول ، إحداها في خزانة عاشر بعنوان : « لطف التدبير في حيل الملوك » ، والثانية في خزانة طوب قبو . سراي (أحمد الثالث) وهي التي حصلنا على صورة منها .

والكتاب مجموعة أخبار وحكايات مبوبة في اثنين وثلاثين باباً ، ينتظم كل منها قصصاً يتفق مغزاها وعنوان الباب ، مع باب ختامية في أغراض مختلفة . وبوسعنا أن نقسم الأغراض الأساسية التي تضمنتها أبواب الكتاب إلى ستة أقسام هي :

١ — ما يحتاج الملوك إلى معرفته من لطف التدبير في عقد الملوك وإدارة شئونه ، وفي معالجة أمور الفتن والشغب .

٢ — الحروب وتديرها كفتح القلاع والبلدان ، وصد الأعداء ودحرهم .

٣ — دفع المكروه بقول أو بلطف أو بمكروه مثله ، ودفع الشبهات .

٤ — المكيدة والثأر والانتقام .

٥ — فنون السياسة كالتعرف على الأسرار ، والتستر ، وفسخ العزائم .

٦ — ضروب مختلفة من لطف التدبير .

إن الحكايات والأخبار التي رواها المؤلف في الكتاب مستمدة من تاريخ العرب وأيامهم في جاهليتهم ، ومن حوادث التاريخ الإسلامي ، ومن تاريخ الروم والفرس . ومعظم هذه الأخبار حقائق تاريخية صحيحة المعلومات ، أي أنها قد حدثت فعلاً ولعب أبطالها دورهم في الحياة . عدا بعضها ، وهو قليل جداً ، مما يدخل في قسم الأساطير والخرافات التي اعتدنا عليها في المؤلفات القديمة .

إلا أنه مما يؤسف له ، أن مقدمة الكتاب جاءت مختصرة جداً ، ليس فيها ما يبين سبب تأليفه ، كما أنها لا تتعرض للظروف التي أملت على المؤلف تأليفه ، ولاتبين الغرض الذي استهدفه من وضعه . وكذلك خلت أبواب الكتاب المختلفة من الإشارة إلى ذلك . ولعله قد استهدف من حكاياته هذه وتبويبها بحسب الأغراض التي ذكرناها ، أن يضع أمام حكام عصره من الخلفاء والسلاطين والوزراء والولاة ، حلولاً عملية لمشاكل جابهت أمثالهم في دول أو أمم أخرى عبر تاريخها ، لعلهم يعتبرون بها ويفيدون من نتائجها ، مما يساعدهم على النهوض بمسئوليات الحكم . وقد تخير المؤلف من الحكايات والحوادث ما يلائم قصده في كل باب ، ومن يطالع الكتاب يامعان ، يجد أن المؤلف قد وُفق في اختياره إلى حدٍّ بعيد .

ومما يلفت النظر حقاً ، أن المؤلف قد التزم في سرد هذه الحكايات والأخبار ، في الأبواب المختلفة ، منتهى الموضوعية . فلم يستطرد في بحثه أو يتبسط في روايته ، ولم يقم فيها تجاربه وخبراته أو مشاهداته ، ولم ينتقد أو يعلق على أي قسم منها بما يمثل رأيه ووجهة نظره . كما أنه لم يذكر أي شيء عن نفسه سواء ما يتعلق بنشأته وماضيه وحاضره ، أو اتصالاته . فالكتاب على هذا نموذج ممتاز للأسلوب الموضوعي المجرد في الكتابة والتأليف . ومما يزيد في قيمة الكتاب ، أن معظم الأخبار التي تضمنتها أبوابه المختلفة ، رواها المؤلف بسندها ،

وأن من روى عنهم يعتبرون من ثقة الرواة والواقع أن من روى عنهم ، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، يكادون أن يكونوا من الطبقة الأولى من حيث مركزهم العلمى ودرجة الاعتماد على روايتهم والثقة بها . وأقدم رواته عبد الله بن عباس وتابعه جابر بن زيد . وابن عباس ، كما سعى خبر الأمة ، حجة فى شعر العرب وأيامهم ، وأعلم الناس بآيات القرآن وتأويلها . كما كان جابر بن زيد ، من أئمة الفقهاء وثقة المحدثين .

أما رواته من رجال القرن الثانى للهجرة ، فأشهرهم الشعبى عامر بن شراحيل ، وهو أحد ثقة رواة الحديث والأخبار ، ومحارب بن دثار القاضى الفقيه ، وقتادة ابن دعامة إمام العربية وأحفظ أهل البصرة فى زمانه للشعر والأخبار ، ومجالد ابن سعيد الهمداني أحد الثقة فى رواية الحديث والأخبار ، والوليد بن حصين الكلبي الملقب بشرقى ، الراوية الأديب الذى انتدبه المنصور العباسى ليدرس ابنه المهدي فنون الأدب ، وشعبة بن الحجاج العتكي أحد أئمة الحديث والأدب ، وإسماعيل بن عياش العنسى عالم الشام ومحدثها .

وأشهر رواته من رجال القرن الثالث الهجرى ، هشام بن محمد الكلبي المؤرخ والعالم بأنساب العرب وأخبارهم وصاحب المؤلفات العديدة فى ذلك . والأصمعى عبد الملك بن قُريب الباهلى راوية العرب وأحد أئمة اللغة والشعر ، والمدائنى على بن محمد الراوية المؤرخ صاحب المؤلفات العديدة فى أخبار الجاهلية والسيرة النبوية والفتوحات الإسلامية وتاريخ الخلفاء .

أما من ناحية موضوع الكتاب ، فإنه يعتبر من أقدم المؤلفات فى موضوع السياسات الملكية . ولم نجد من سبق الخطيب الإسكافى من مؤلفى المسلمين ومؤرخيهم ، فى الكتابة فى هذا الموضوع ، سوى شهاب الدين أحمد بن أبى الربيع (المتوفى سنة ٢٧٢ هـ) الذى وضع للخليفة المعتصم العباسى كتاباً فى هذا الباب

سماه « سلوك المالك في تدبير الممالك » . أما الكتب الأخرى الشهيرة في هذا الموضوع ، فقد وضعت بعد الإسكافي . وقد وضع ابن أبي الربيع كتابه على أساس طريقة التشجير التي تقوم على عرض خلاصة البحث بنقاط أساسية تتفرع منها نقاط ثانوية ، توضع بشكل متسلسل متشعب . وقد احتوى الكتاب على فصول أربعة ، كتبت بشكل فلسفي مجرد خال من الحوادث التاريخية ، وهي تدل على غزارة علم المؤلف وسعة اطلاعه على معارف عصره ، وعلى قدرته في تحليل المواضيع وتعليقها وبيان نتائجها . ولم نجد في كتاب الخطيب الإسكافي ما يدل على أنه قد اقتبس شيئاً مما احتواه كتاب ابن أبي الربيع ، إذ أن بحوث هذا الكتاب ، كما قلنا ، فلسفية مجردة ، بينما يقوم كتاب الخطيب الإسكافي على عرض صور مختلفة مستمدة من الحوادث التاريخية . وذلك مما يجعل لكتاب الإسكافي قيمة كبيرة باعتباره من أوائل ما ألف في هذا الموضوع .

على أن أهمية كتاب الإسكافي لا تقتصر على أسبقيته وحسب ، بل تظهر فيما انطوى عليه من حقائق تاريخية ، تكشف عن كثير من جوانب الحياة السياسية للمجتمع الإسلامي في عصر المؤلف ، وخلال القرون الأربعة الأولى من التاريخ الإسلامي ، وهي ولا شك منبع غزير قد ينفع دارسي التاريخ المذكور .

غير أنه مما يدعو إلى الاستغراب ، أننا لا نجد في كتب التراجم التي أشرنا إليها شيئاً عن المؤلف ، عدا ما جاء عنه في معجم الأدباء . إن ترجمته التي وردت في هذا الكتاب ، جاءت مقتضبة جداً لا تشفي غليل الباحث ، ولا تتفق ومنزلة المؤلف العلامة الإسكافي . وهي لا تتعدى اسمه وكنيته وعمله وشهرته التي عُرف بها ، وتسمية بعض الكتب التي صنفها . ولا نعرف لماذا أغفلت تلك المصادر ذكره فلم تترجم له ، وهل كان ذلك مقصوداً لعوامل نجهلها ؟ أم أن الخطيب الإسكافي لم يكن بتلك الدرجة من الشهرة والمنزلة في عالم الأدب

والتأليف ، بحيث لا يستحق أن تنوه به الكتب وأن تترجم له ؟ إلا أن شهرته العلمية ، قد أشاد بها صاحب بن عباد عند ما قال ، كما روى ياقوت الحموى في معجمه : « فاز بالعلم من أهل أصبهان ثلاثة : حائك ، وحلاج ، وإسكاف » . والإسكاف ، كما يقول ابن عباد ، هو أبو عبد الله الخطيب . وذلك ولا شك دليل واضح على سمو مكانته العلمية ومركزه الأدبي .

وقد يكون ابتعاده عن الخلفاء والولاة وعدم اتصاله بهم وتقربه إليهم ، سبباً في هذا الإغفال . لأن كثيراً من الفلاسفة والعلماء والشعراء والأدباء ، لم ينبهوا ولم يشتهروا إلا بعد أن ارتبط اسمهم بخليفة قوتهم إليه ، أو وال شملهم برعايته . ولا ندرى ما إذا كان الخطيب الإسكافي قد عاش بعيداً عن الخلفاء والولاة وغيرهم من ذوى السلطان ، فلم تتح له الفرصة للبروز والاشتهار . غير أن ياقوتاً الحموى يشير في النبذة الموجزة التي كتبها عنه في معجمه الأدبي ، إلى أنه كان أحد أصحاب ابن عباد صاحب . وإذا كان ذلك صحيحاً ، فإنه يعني أن مجال الشهرة كان مفتوحاً أمامه لو أراد ، لما نعرفه عن صاحب ورعايته العلماء والأدباء . إلا أننا لم نلمس لهذه الصحبة أى تأثير على الخطيب الإسكافي . فإن من يدرس حياة صاحب بن عباد ، ويتعرف على من اتصل به من العلماء والأدباء والشعراء ، يجدهم كثيراً عددهم ، وبعضهم ممن ليسوا بمنزلة الإسكافي العلمية والأدبية ، قد اقترنت أسماءهم باسم ابن عباد . وهذا يجعلنا نميل إلى القول بأن الخطيب الإسكافي كان يؤثر العزلة في حياته . ولعله كان مرهقاً في مهنته الخاصة التي اتخذها مصدراً لعيشه ، وقد آثرها على الكسب من تقربه إلى ذوى السلطان ، فلم يطرق أبوابهم أو يتردد على مجالسهم . فابتعد بذلك عن مجال الاشتهار .

وللخطيب الإسكافي كتب أخرى غير هذا الكتاب الذي تقدمه ، وقد ذكرها ياقوت في معجمه الأدبي وتناقلها عنه مَنْ ترجم للمؤلف بعد ذلك وهي : كتاب غلط كتاب العين ، ومبادئ اللغة ، ونقد الشعر ، والفُرّة ، وشواهد كتاب سيبويه ، ودرة التنزيل وغرّة التأويل في الآيات المتشابهة . وقد طبع من هذه الكتب : كتاب مبادئ اللغة ، في مطبعة السعادة بمصر في سنة ١٣٢٥ هـ . وكتاب درة التنزيل وغرّة التأويل ، في مطبعة السعادة كذلك في سنة ١٣٢٦ .

وعثرنا على مخطوطة في خزانة يعقوب سركيس ، التي أهداها إلى جامعة الحكمة ببغداد ، فيها الكتب التالية للإسكافي : مبادئ اللغة ، وشرح أبيات مبادئ اللغة ، وحقائق الإنسان . ويبدو أن الكتابين الأول والثاني هما نفس كتاب مبادئ اللغة المطبوع . أما الثالث منها ، فهو كتاب آخر من تصانيف الإسكافي مما لم يذكره ياقوت .

وبعد ، فإننا نرجو أن يكون التوفيق قد حالفنا فيما بذلناه من جهد لإخراج هذا الكتاب إلى عالم المطبوعات ، وأن ينال من اهتمام المعنيين بالتاريخ الإسلامي ما هو جدير به ، وذلك حسبنا .

كما نرجى خالص شكرنا للإخوان الذين كانوا عوناً لنا في ذلك .

والله ولي التوفيق .

أحمد عبد الباقي

بغداد في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٤

THE MUSEUM
ASIAN III
No 262

من بلف التدبير التدبير اليا

كتاب لطيف التدبير من جحا الشيخ الامام
العلامة المتأصل الكابلا
العلامة عبد الله الخطيب
مدرس الدين في جده
الطاهر



٣٤٩

عدد الأوراق

٥٨

مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمدُ الله واجب قبل كل كلام ، ومنحةُ العقل فوق كل إنعام ، وما بعدَ كتب الله المنزلة على أنبيائه صلوات الله عليهم ، وبعد جوامع كلامهم ، أشرف من ثمرات العقول التي يرثها الآخِرُ عن الأول ، ويُستند بها في الدين إلى المعلوم الأفضل ، ويتسم بها للدنيا صهوة الأمر (المعضل) ^(١) ، عند سياسة العباد وعمارة البلاد .

فمدُ الوادي من سيل التلاعات ^(٢) ، وفيض الأنهار من سَبَل ^(٣) القطرات . وإن كان في الناس مَنْ يؤيده الله من صواب الرأي بما يغنيه عن استعداد ، ويوفقه حتى لا يحتاج في قراع الخطوب إلى استعداد . فتكأثر الأنوار على المبهمات أنفع ، وظلام الشُّبُه أدفع . والله يهدي قلوب أوليائه ويشحذ بصائرهم على أعدائه بمنه .

وهذا المجموع اثنان وثلاثون باباً ، مختومة بباب في ضروب مختلفة .

(١) الأمر العضيل : الأمر العسير . والكلمة في الأصل مطموسة .

(٢) التلاعات : جمع تَلْعَة وهي مجارى أعلى الأرض إلى بطون الأودية .

(٣) السَبَل : ما سال من المطر ، وفي الأصل « السيل » .

البَابُ الْأَوَّلُ

فِي

(١) أَوَائِلُ مَا تَحْتَاجُ الْمُلُوكُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ

يُقَالُ إِنَّ الْمَأْمُونِ جَمْعُ يَوْمًا وَلَدَهُ فَقَالَ : يَا بَنِي لِيَعْلَمَ الْكَبِيرُ مِنْكُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا عَظُمَ قَدْرُهُ بِصَغَارِ عَظْمُوهُ ، وَقَوِيَتْ قُوَّتُهُ بِضَعْفِ أَطَاعُوهُ ، وَشَرَفَتْ مَنَزَلَتُهُ بِعَوَامِ اتَّضَعُوا لَهُ . فَلَا يَدْعُوَنَّهُ تَفْخِيمُ الْمَفْخَمِ مِنْهُمْ إِيَّاهُ إِلَى تَصْغِيرِهِ ، وَتَعَزِيزُهُ أَمْرَهُ إِلَى تَذْلِيلِهِ . وَلَا يَسْتَأْثِرْنَ بِفَائِدَةِ وَرَفَقِ^(٢) دُونِهِ . وَلَا يُولَعْنَ بِتَسْمِيَّتِهِ عَبْدًا كَمَا سَمَّتِ الْأَعَاجِمُ ، بَلْ وَائِيًّا وَأَخَا . فَإِنَّ الشَّيْءَ الَّذِي قِوَامُهُ مِنْ أَجْزَاءِ خَسِيسَةٍ وَمَعَانٍ مَذْمُومَةٍ ، فَهُوَ أَيْضًا خَسِيسٌ مَذْمُومٌ . وَكُلُّ أَمْرٍ مِنْ أَوْلَئِكَ جُزْءٌ مِنْ عِدَّةِ أَجْزَائِهِ ، وَعِمَادٌ مِنْ أَعْمَدَةِ أَمْرِهِ . فَإِذَا انْحَلَّتْ أَجْزَاؤُهُ وَزَالَتْ دَعَائِمُهُ ، مَالَ الْعِمَادُ وَتَهْدَمَ الْكُلُّ . وَقَدْ قِيلَ إِنَّ مَنْ مَلَكَ أَحْرَارًا طَائِعِينَ كَانَ أَشْرَفَ مِمَّنْ مَلَكَ عَبِيدًا مُسْتَكْرَهِينَ . وَاعْلَمُوا أَنَّ قُلُوبَ الرِّعْيَةِ خَزَائِنُ مَلِكِهَا ، فَمَا أَوْدَعَهَا فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ فِيهَا^(٣) .

وَقَالَ يَوْمًا آخِرَ لَهْمَ : ارْجِعُوا فِيمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكُمْ مِنَ التَّنْذِيرِ إِلَى رَأْيِ

(١) فِي ب : « الْكِبَار » .

(٢) الرِّفْقُ : مَا اسْتَعِينَ بِهِ مِنْ مَالٍ أَوْ مَتَاعٍ وَجَمْعُهَا مِرَافِقٌ .

(٣) الْعِبَارَةُ فِي عَيُونِ الْأَخْبَارِ ١ : ١٠ : « وَفِي كُتُبِ الْعَجَمِ : قُلُوبُ الرِّعْيَةِ خَزَائِنُ مَلُوكِهَا فَمَا أَوْدَعَهَا مِنْ شَيْءٍ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ فِيهَا » .

الْحَزْمَةُ^(١) المجريين والبررة المشفقين . فإنهم مَرَاتِيكُمْ^(٢) يُبُونَكُمْ مَا لَا تَرُونَ ،
ويكشفون لكم أغطية ما لا تعلمون . فقد صحبوا لكم الدهور ، ومارسوا
الدول^(٣) ، وكفوكم التجارب والمبر . وعرفوا حوادث الأزمنة وأعراضها
وإقبالها وإدبارها ، والعلل التي يسكن بها الهائج المضطرب ويحتاج لها الساكن
المطمئن . فروّضوا أنفسكم لهم ، وتجرّعوا مرارتهم . فقد قيل إن من جرّك
مُرّاً لتبرأ أشفق عليك ممن أوجرك^(٤) حلوا لتسقم ، ومن خوفك لتأمن ، أبر
من أمك حتى تخاف .

وقد قيل: إن نصف عقلك مع المستشار ، واعتبروا في علو المهمة بمن ترون
من وزرائي وخاصتي . إنهم والله ما بلغوا مراتبهم عندي إلا بأنفسهم . إنه
من تبع منكم صغار الأمور تبعه التصغير والتحقيق ، وكان قليل ما يفعل^(٥)
في كبارها أكثر من كثير^(٦) ما يستدرك من الصغار . فترفّعوا عن دناءة المهمة ،
وتفرغوا لجلال التدبير . واستكفوا^(٧) الثقات فادنوها . وكونوا مثل كرام
السباع ، لا تشغل بغوامض الوحش^(٨) والطير وحواشيها بل بجليها^(٩)

(١) الحَزْمَةُ : مفردها الحازم وهو الذي يضبط أمور . ويحكمها ويأخذ فيها بالثقة

(٢) مَرَاتِي : جمع مرآة وتجمع على مرايا كذلك .

(٣) مارس الأمر : عالجها ، ومارسوا الدول تقلبوا في عدد منها وخبروها .

(٤) أوجره : جعله في فيه ، أى أطعمه . وفي ب : « أطعمك » .

(٥) في ١ : « ما يعقل » .

(٦) في ب : « كبير » .

(٧) استكفى الرجل الشيء : طلب إليه أن يكفيه إياه .

(٨) غوامض الوحش : مفردها غامض وهو الحامل والدليل منها .

(٩) في ب : « بجلتها » .

وكبارها . واعلموا أن أقدامكم إن لم تتقدم بكم فأيديكم لا تمتد بكم . ولا يغنى
الولى^(١) عنكم شيئاً ما لم تعطوه حقه من الصيانة والمادة .

وقال بُزْرَجْمَهْر^(٢) : عاملوا أحرار الناس بمحض المودة ، وعاملوا العامة
بالرغبة والرغبة ، وسوسوا السفلة بالخافة صراحاً .

وكان أرسططاليس^(٣) أذب الإسكندر ، فلما نشأ واستفحل أمره وكبر
شأنه وعرفه من الحكمة ما عرفه ، كان شبه الوزير له ، يعتمد عليه في الرأي
 والمشورة . فكتب إليه يخبره أنه قد كثر (في) خواصه وعسكره قوم ليس
يأمنهم على نفسه لما يرى من بعد همهم وشجاعتهم وشدة دالتهم^(٤) ، وليس
يرى لهم عقولا تفي بهذه الفضائل (التي فيهم) بقدر همهم . فكتب إليه
أرسططاليس : فهمت ما وصفته عن القوم الذين ذكرت . فأما بعد همهم ، فمن
الوفاء بعد الهمة ، وأما ما ذكرته من شجاعتهم مع نقص عقولهم ، فمن كانت
هذه حاله فرفقه في المعيشة واخصه بحسان النساء . فإن رفاة العيش توهم
من العزم ، وإن حب النساء يجب^(٥) السلامة ويباعد من ركوب المخاطرة .

(١) الولي : مالك الأمر والقائم به .

(٢) بُزْرَجْمَهْر : من حكماء الفرس وله كتاب في النصائح نقل عنه كتاب
الفرس والعرب كثيراً . وكان وزيراً لأنوشروان الملقب بكسرى الأول .

(٣) أرسططاليس : هو الفيلسوف اليوناني المشهور ، وكان يقوم بتربية
الاسكندر المقدوني وتثقيفه . وعنى العرب في بدء حضارتهم بترجمة كتبه إلى العربية
وأطلقوا عليه : المعلم الأول .

(٤) الدالة : الجراءة بسبب الوجاهة .

(٥) في ١ : « يجب » .

وليكن خلقك حسناً تستدع به صفوة النيات وإخلاص المقامات^(١) . ولا تتناول من لذيذ العيش ما لا يمكن أوسط أصحابك مثله . فليس مع الاستئثار محبة ولا مع المؤاساة بفضة . واعلم أن المملوك إذا اشترى لم يسأل عن مال مولاه ، وإنما يسأل عن خلته^(٢) .

وكانت الفرس تقول : للوزير على الملك ، وللکاتب على الصاحب ، ثلاث^(٣) : رفع الحجاب عنه ، وإتهام الوشاة عليه ، وإفشاء السر إليه .

وحكى أن سابور^(٤) الملك ، استشار وزيرين كانا له في أمر من أموره ، فقال له أحدهما : لا ينبغي للملك أن يستشير منا أحداً إلا خالياً به ، فإنه أموت للسر وأحزم في الرأي ، وأدعى إلى السلامة ، وأعفى لبعضنا عن غائلة بعض^(٥) . لأن الواحد رهن بما أفشى إليه وهو أخرى أن لا يظهره ، رهبةً للملك ورغبةً إليه . وإذا كان عند اثنين فظهر دخلت على الملك الشبهة واتسعت

(١) في كتاب الوزراء والكتاب ص ٩ : « المقالات »

(٢) الخلقة الصفة وفي ب : « خلقة » .

(٣) في كتاب الوزراء والكتاب ص ١٠ : « ثلاث أفعال »

(٤) هو سابور ذو الأكتاف كما جاء في كتاب التاريخ (ص ١١) وكان من كبار الملوك الساسانيين . ولقب بنى الأكتاف لأن كان شديداً في حربه مع العرب ، يخلع أكتاف الأسرى منهم .

(٥) ورد هذا النص في « عيون الأخبار ١ : ٢٧ » ببعض الزيادة وهذه هي : فإن إفشاء السر إلى رجل واحد أوثق من إفشائه إلى اثنين ، وإفشائه إلى ثلاثة كإفشائه إلى العامة . لأن الواحد رهن بما أفشى إليه ، والثاني يطلق عنه ذلك الرهن ، والثالث علاوة فيه . وإذا كان سر الرجل عند واحد كان أخرى ألا يظهره رهبةً منه ورغبةً إليه . وبمثل هذا ورد النص في كتاب الوزراء والكتاب ، ص : ١١ .

على الرجلين المعارض^(١) . فإن عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد ، وإن اتهمهما اتهم بريئاً بخيانة^(٢) مجرم . وإن عفا عنهما عفا عن واحد ولا ذنب له ، وعن الآخر ولا حجة عليه^(٣) .

وقال بعضهم : اجعل من انتخبته لديوان الخراج^(٤) واحداً من ثلاثة : إما رجلاً يظهر الزهد في المال والورع في الدين ، فإن كان كذا عدل على الضعيف وأنصف من الشريف ووفر الخراج واجتهد في العماره . وإن هو لم يَبَع ولم يعف إبقاء على دينه ونظراً لأمانته ، كان حريماً أن يخون قليلاً ويوفر كثيراً ، استسراً^(٥) بالرياء واكتتاً بالخيانة . فإن ظهرت على ذلك عاقبته على ما اختان^(٦) ولم تحمده على ما وفر . وإن جَلَحَ^(٧) في الخيانة وبارز بالإساءة ، نكلت به في العذاب واستنظفت^(٨) ماله وأطلت مدة حبسه . (أو رجلاً عالماً بالخراج ، غنياً في المال ، مأموناً في عقله فيدعوه علمه بالخراج إلى الاقتصاد في الخائب والاجتهاد في العماره ، والرفق بالرعية . ويدعوه غناه إلى العفة ، وعقله إلى الرغبة فيما ينفعه والرغبة لما يضره) . أو رجلاً عالماً بالخراج معروفاً بالأمانة

(١) المعارض : الشبهات .

(٢) في ب : « بخيانة » .

(٣) في « عيون الأخبار » : ولا حجة معه . وفي كتاب الوزراء والكتاب : والحجة عليه .

(٤) ديوان الخراج : هو الدائرة الخاصة بتنظيم مالية الدولة وحساباتها من إيرادات ومصروفات . ويقابل وزارة المالية في عصرنا الحاضر .

(٥) الاستسرار : المبالغة في التستر والإخفاء .

(٦) اختان : خان ، واختان المال سرقة .

(٧) جَلَحَ في الخيانة : جاهر بها . وفي ب : « خلع » .

(٨) استنظف ماله : أخذه واستوفاه ، صادره .

مُقتراً من المال ، فتوسع^(١) عليه في الرزق ، فيغتم لحاجته الرزق ويستكثر لفاقته اليسير ويرجى^(٢) الأموال بعلمه ، ويعف عن الخيانة بأمانته^(٣) .

ورُفِعَ إلى أنو شروان^(٤) أن عامل الأهواز جى فضل ثمانية آلاف (ألف) درهم مما لم يلزم الناس ، وإن ذلك في بيت المال . فوقع^(٥) برد المال على القوم بأسره ، فإن الملك إذا عمر بيوت أمواله بما يأخذ من رعيته ، كان كمن عمر سطوح بيته بما اقتلع من قواعد بنيانه .

ويقال إن أبا جعفر المنصور حضره ليلة عبد الله بن علي وصالح بن علي في نفر معهما^(٦) . فقال عبد الله بن علي : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن مروان

(١) في ب : « فوسّع » .

(٢) يُرجى الأموال : لا يصيب منها شيئاً . ووردت في « عيون الأخبار » « يزجى » وهي أصح في معناها .

(٣) ورد نص هذه التوصية في كتاب عيون الأخبار كاملاً وباختلاف بعض الالفاظ . الجزء (الأول ، ص ١٧) .

(٤) أنوشروان : ولقبه كسرى الأول ، ولي الحكم بعد أبيه قباذ . ويعتبر عهده أزهى عهود الدولة الساسانية . فقد امتاز في القضاء على اتباع مزدك ، وتنظيم المجتمع وإعادة بناء القرى التي خربت في عهود الفوضى التي سبقت ، وإصلاح نظام الضرائب وشؤون الجيش . وكان أنوشروان مثال الملك العادل .

(٥) التوقيع هو ما كان يكتبه ملوك الفرس القدامى من هوامش وتعليقات على ما يعرض عليهم من أمور الناس . وقد أخذ الخلفاء المسلمون ذلك وتبعهم الوزراء والولاة ، وهم يتخيرون للتوقيع ما قلّ ودل من الألفاظ . وقد يتضمن التوقيع آية قرآنية كريمة مناسبة أو بيت شعر أو قولاً مأثوراً .

(٦) إن حضور عبد الله بن علي مجلس المنصور بعد توليه الخلافة أمر مُستبعد . لأن عبد الله كان على رأس جيش كبير لغزو الروم وجهه به أبو العباس =

ابن محمد^(١) لما هرب إلى بلاد النوبة ، جرى بينه وبين ملكها كلام فيه أعجوبة سقط عنى حفظه ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يرسل إليه بحضرتنا ويسأله عما ذهب عنا ، وكان فى الحبس ، فأرسل إليه أبو جعفر ، فلما دخل قال له : يا عبد الله ، قال : لبيك يا أمير المؤمنين . قال : أخبرنى بحديثك وحديث ملك النوبة . قال : (نعم) يا أمير المؤمنين ، هربت ممن تبغى بأثاث سلم لى إلى بلاد النوبة ، فلما دخلت بلادهم فرشت ذلك الأثاث . فجاء أهل النوبة ينظرون إليه متعجبين منه إلى أن بلغ ملك النوبة فجاء ومعه ثلاثة نفر ، فإذا رجل طوال آدم أغبر مسنون الوجه . فلما قرب قعد على الأرض وترك البساط ، قلت : ما يمنعك أن تجلس على أثاثنا هذا ؟ قال : إني ملك وحق على كل ملك^(٢) أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه الله . قال : ثم نظر إلى فقال : لم تشربون الخمر وهى محرمة عليكم ؟ فقلت : عبيدنا

= السفاح . وكان قد وصل حرّان عند ما بلغه نبأ وفاة السفاح فدعا إلى نفسه . فوجه المنصور أبا مسلم الحرمانى لحربه فانتصر عليه ، فهرب والتجأ إلى أخيه سليمان ابن على وإلى البصرة . ثم أعطاه المنصور الأمان فصار إليه فأمر بحبسه ، وظل فى السجن حتى مات . إن المصادر الأخرى التى جاءت فيها هذه القصة ، لم تنص على حضور عبد الله بن على مجلس المنصور ، بل اقتصر على صالح بن على عم المنصور ، أو أنها أشارت إلى حضور جماعة عند المنصور دون ذكر الأسماء .

راجع مثلاً : مروج الذهب ، ٢ : ٢٢٩ — ٢٣٠ ، فإنه لم يذكر حضور عبد الله ابن على ، وإن الذى قال ذلك للمنصور هو صالح بن على .

والعقد الفريد للملك السعيد ص ٦٥ ، لم يذكر حضور عبد الله بن على كذلك . (١) مروان بن محمد ، آخر خلفاء بنى أمية فى الشام ، كان له ابنان : عبد الله وعبيد الله . أما عبيد الله فلا عقب له ، وأما عبد الله فكان أبوه جعله ولى عهده ، وقد سجنه المنصور حتى مات ببغداد وله عقب . (المعارف ص ٣٧٣)

(٢) فى ١ : « حق لكل ملك » .

وأتباعنا يفعلون ذلك بالجهل منهم . قال : فلم تابسون الديباج والحريز وتحلون بالذهب وهو محرم عليكم ؟ قلت : زال عنا الملك وانقطعت المادة ، واستنصرنا بقوم من الأعاجم كان هذا زعيمهم فكرهنا الخلاف عليهم^(١) . قال : فأطرق قلب يده ويقول : عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا في ديننا ، يكرر الكلام على نفسه ، ثم نظر إلى فقال : ليس ذاك كما تقول ، ولكنكم قوم ملكتم فظلمتم وتركتم ما به أمرتم وركنتم إلى ما عنه نهيتم ، فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم ، والله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها بعد . وأنا أخاف أن تنزل بكم النعمة وأنت بيلدى فتصينى معك ، فارتحل عن جوارى . قال : فقام أبو جعفر وقيداً^(٢) مغموماً من كلامه فدخل حجرته^(٣) .

وأراد عبد الملك بن مروان أن يغتال ملك الروم في الضواحي بمكيذة من مكائده ، وكان من دهاة بنى أمية . قال يزيد بن عقال : فدخلت عليه وعنده^(٤) رجال من صنائعه فيهم إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز الزهرى والمثنى

(١) في هذه الجملة تناقض ، إذ كيف يستنصرون بالأعاجم بعد زوال ملكهم ، ولعل صوابها كما جاء في شرح نهج البلاغة : « قلت : استعنا في أعمالنا بقوم من أبناء العجم كتاب دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك اتباعاً لسنة سلفهم على كره منا » وكذلك جاءت هذه الجملة في العقد الفريد بما يقرب من هذا النص . (شرح نهج البلاغة ، ٢ : ٢١٥—٢١٦ . والعقد الفريد للملك السعيد ص ٦٧) .

(٢) قام وقيداً : قام محزون القلب ، وفي ١ : « قام وثيداً » .

(٣) جاءت هذه القصة في « عيون الأخبار » ١ : ٢٠٥ - ٢٠٦ ، بالفاظ تختلف عن هذه الرواية غير أن المعنى واحد . وجاءت في « العقد الفريد للملك السعيد » ص ٦٥ - ٦٧ ، بشكل أكثر تفصيلاً . كما جاءت في « مروج الذهب » ٢ : ٢٣٠ ، بشكل مفصل أيضاً .

(٤) في ١ : « وعدة » .

ابن خالد الأسدي ، والعباس بن زفر الهلالي ، وحرب بن قطن الهلالي ، ومحمد ابن مسلم البجلي . فشاورنا^(١) في ذلك فأشرنا عليه أن يشرف بنفسه على الروم (والثغور) ويمضي فيها أمره وإرادته . فقال لنا : إن من حزم الوالي^(٢) الشهم أن لا يتنزل مهابة نفسه وجلالة قدره فيما إن استكفاه رجلاً من صنائعه كفاه إياه وقام به . وإنما اصطنعت (الولاة) الرجال ليصونوا بها مهجهم في الحروب ومهابة أنفسهم وجلالة أقدارهم عن التبذل لرعييتهم . ولذلك يجب على الوالي اللبيب الأريب أن يتخير الرجال لصنيعته ، لأن صنيعه الوالي جُمته في الحرب ووجهه في حفظه . وقد تعرف الرعية قلة الوالي وكثرته بصنيعته . ثم تمثل^(٣) :

وبعثت من ولد الأغرمعتب^(٤) صقرًا يلوذ حمامه بالعوسج
فإذا طبخت بناره أنضجته وإذا طبخت بغيرها لم تنضج
وهو الهمام إذا أراد فريسة لم يُنجزها منه صريح الهجهج^(٥)
وقيل للإسكندر : أي شيء أنت به أسر من مُلكك ؟ قال : اقتداري
على الإحسان .

ومن شدة التحرز ، ما حكى في كتاب من كتب الهند : إنه أهدى إلى بعض ملوكهم حلي وكسوة وبحضرته امرأتان من نسائه ووزير من وزرائه .

(١) في ١ : « فتشاورنا » .

(٢) في ١ : « الرأي » .

(٣) الأبيات لعمران بن عصام العنزي الذي قتله الحجاج لخروجه مع ابن الأشعث . وقد صححناها على النص الوارد في العقد الفريد ٥ : ٥ لكثرة الخطأ في النسختين .

(٤) الأغرم : الشريف ، ومعتب اسم قبيلة .

(٥) الصريح : الصياح الشديد والاستغاثة ، والهجهج الشديد الهدير .

نخبر إحدى امرأته^(١) بين اللباس والحلمية . فنظرت المرأة إلى الوزير كالمستشارة له ، فغمزها بإحدى عينيه على أخذ الكسوة ، ولحظه الملك . فعدلت عما أشار به من الكسوة واختارت الحلمية لئلا يفطن الملك للعمرة . ومكث الوزير أربعين سنة كاسراً عينه ليظن الملك أنها عادة له وخلقة فيه^(٢) .

واستعار بعض الملوك من أنوشروان رأياً في سياسة الرعية فوقع في كتابه : احسم عنهم الأسباب التي تبعث قلوبهم على معصيتك تكن قادة^(٣) أبدانهم إلى طاعتك .

وكان الحجاج يستبطن المهلب في حرب الأزارقة^(٤) وهو مجتهد ، فكتب

(١) في عيون الأخبار ١ : ٢٢ : « وخبر أحظاها عنده » .

(٢) في النص الوارد في « عيون الأخبار ١ : ٢٢ » إختلاف في بعض الألفاظ ولكن المعنى واحد . كما أن فيه إضافة على هذا النص هي : « فلما حضرت الملك الوفاة قال لولده : توص بالوزير خيراً فإنه اعتذر من شيء يسير أربعين سنة » كما ورد هذا النص في كتاب الوزراء والكتاب ص ١١ . بتغيير طفيف في بعض الألفاظ .

(٣) في ب : « مادة » .

(٤) الأزارقة : إحدى فرق الخوارج وكانت أشدهم وأشجعهم . وتنسب إلى نافع ابن الأزرق وهو من غلاة الخوارج . كان من الموالين للإمام على ثم انقلب عليه بعد التحكيم وانضم مع أتباعه إلى جيش عبد الله بن الزبير في مكة وقاتل إلى جانبه ضد الأمويين . ثم مالبت أن اختلف مع ابن الزبير فانفض وأتباعه عنه وعادوا إلى البصرة . وكان نافع شجاعاً فتاكاً ، وقتل قرب الأهواز في إحدى المعارك التي خاضها ضد جيش الأمويين .

وقد تقم الأزارقة على كل من خالفهم من المسلمين ، وصاروا يقتلون كل من يقع بأيديهم منهم . استولوا على الأهوار وهاجموا جنوب العراق ، فحاربهم أهل البصرة بقيادة المهلب بن أبي صفرة ، وقد ساعده الحجاج وأمدّه في حربهم ، فتغلب عليهم بعد أن قضى ما يقرب من عشرين سنة في منازحتهم ، وعرف المهلب بالشجاعة والكفاءة بشؤون الحرب .

إليه المهلب : إن من البلاء أن يكون الرأى لمن يملكه لا لمن يُبصره . فهذا أوجز جواب سُمع^(١) .

وقال عيسى بن طلحة : سألت ابن عباس عن معاوية فقال : سما لشيء بأمر أسره واستظهر عليه بشيء أعلنه . فحاول ما أسره بما أعلن فناله . واستنفر إليه صاحبه فصعد وهبط وأبقى وترك ، وأُتيح له من كفاه مؤونته ولم ينازعه أحد بعد ، وكان حلمه قاهراً لفضبه ، وجوده مستعلياً على منعه . يصل ولا يقطع ويجمع ولا يفرق ، فاستقام أمره وجرى إلى مدته .

سأل رجل بعض حكماء بني أمية : ما كان سبب زوال نعمتكم ؟ فقال : قد قلت فاسمع وإذا سمعت فافهم . إنا قد شغلنا بالذتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ، ووثقنا بوزرائنا فأثروا مرافقهم على منافعنا ، وأمضوا أموراً دوننا أخفوا عامها عنا ، وظلمت رعيتنا ففسدت نياتهم لنا ، ويئسوا من إنصافنا فتمنوا الراحة لغيرنا ، وخربت معاشهم فخربت بيوت أموالنا ، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا ، واستدعاهم مخالفونا فتظاهروا على أمرنا . وطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا . وكان أول زوال ملكنا استتار الأخبار عنا . وقال المنصور يوماً : ما كان أحوجنى أن يكون على بابى أربعة نفر

(١) إن ما ذكر هنا من جواب المهلب إنما هو جزء منه . وقد ورد نص الجواب في شرح نهج البلاغة ٤ : ١٩ وهو : « . . إنما البلاء أن يكون الأمر لمن يملكه لا لمن يعرفه ، فإن كنت نصبتني لحرب هؤلاء القوم — على أن أديرها كما أرى فإذا أمكنتني فرصة انتهزتها وإن لم تمكني توقفت — فأنا أديرها بما يصلحه . وإن أردت أن أعمل برأيك وأنا حاضر وأنت غائب ، فإن كان صواباً فملك وإن كان خطأً فعلى ، فابعث من رأيت مكانى » . وكتب المهلب من فوره إلى الخليفة عبد الملك بن مروان ، فكتب عبد الملك إلى الحجاج : لاتعارض المهلب فيما يراه ، ولا تعجله ودعه يدبر أمره .

لا يكون على بابي أعف منهم . قيل يا أمير المؤمنين : مَنْ هم ؟ قال : هم أركان الملك ، لا يصلح الملك إلا بهم ، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم ، إن قصت قائمة واحدة وهى ، أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة يُنصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصى لى ولا يظلم الرعية ، فإنى غنى عن ظلمها . ثم عرض على إصبعة السبابة (ثلاث مرات)^(١) يقول فى كل مرة : آه ، آه ، قيل مَنْ هو الرابع يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصلحة .

سأل المأمون بعض علماء العرب عن رجالات الأرض ، فقال بعضهم : أبو بكر وعمر ، وقال بعض : على ، وقال بعض : معاوية وعمر و فى الدهاء والإرب^(٢) . فقال المأمون : إنما أردت رجالا قاموا بنقل دولة ونهضوا بأمر يعجز الرجال عن النهوض بمثله . فقالوا أمير المؤمنين أعلم . فقال : رجالات الأرض خمسة : الإسكندر الرومى^(٣) نهض من الروم حتى أباد ملك

(١) سقطت فى الأصل وأكملناها نقلاً من النص الوارد فى « ابن الأثير »

(٢) الإرب : المهارة والتبصر بالأمور .

(٣) الإسكندر : كان النزاع مستمراً بين الرومان والفرس حينما تولى الإسكندر

عرش مكدونيا . فأنصرف إلى توسيع حكمه بعد أن دانت له جميع بلاد اليونان . فقاد جيشه نحو الشرق فاستولى على الأناضول وطرد الفرس منها ، ثم انحدر إلى بلاد بابل وانتصر على جيوش دارا ملك الفرس فى عدة معارك ، آخرها معركة اربيل الحاسمة ، حيث انهزم دارا واستولى الإسكندر على بابل ، ثم دخل بلاد فارس واحتل عاصمتها پرسبوليس .

دارا ، وغلب على الأقاليم السبعة ^(١) . وأردشير ^(٢) أقبل بمثل همته حتى رد ما انتشر من ملك إقليم بابل على غره . وبهرام جور ^(٣) في فتكه وقتال خاقان ومن معه في ثلاثمائة فارس . وأنو شروان مع حداثة سنه توثب على مزدك ^(٤)

(١) الأقاليم السبعة : قسّم الجغرافيون المسلمون العالم القديم إلى سبعة أقسام دعوها بالأقاليم . وجعلوا لكل إقليم منها أحد الكواكب السبعة (وهى السيارات الخمس التى كانت معروفة حينذاك والشمس والقمر ، بالنسبة لتتابعها وتواليها فى الفلك . كما جعلوا لكل منها عدداً من الأبراج السماوية .

راجع : عجائب الأقاليم السبعة حتى نهاية العارة ص ١٢ - ٢٥ .

(٢) أردشير : على إثر سقوط مملكة فارس على يد الإسكندر المكدونى تجزأت البلاد إلى إمارات ومقاطعات ما لبثت ، بعد الإسكندر ، أن أخذت تستعيد استقلالها ، وفى أوائل القرن الثالث للميلاد قويت أسرة ساسان ، واستطاع ملكها أردشير ، بعد حروب عديدة ، أن يخضع الإمارات الفارسية المتفرقة ويوحدها فى دولة واحدة عرفت بالدولة الساسانية ، واتخذ المدائن عاصمة له فى عام ٢٢٤ م . (إيران فى عهد الساسانيين ، ص ٧٢ - ٨٣) . ويقصد بإقليم بابل العراق .

(٣) بهرام جور : أو بهرام الخامس بن يزدجرد ، من مشاهير الملوك الساسانيين . وقد نشأ فى الحيرة برعاية ملوك المناذرة ، ولذلك ساعدوه على إعتلاء العرش عند وفاة أبيه عام ٤٢١ م . وقد اشتهر بهرام بحرب البرابرة شمالى إيران وقضائه على ثوراتهم . وهذا ما يشير إليه الكتاب بقوله : وقتال خاقان . . . فهو يقصد به ملك البرابرة الذى انتصر عليه بهرام (إيران فى عهد الساسانيين ، ص ٢٦١ - ٢٦٨ والطبرى ، الجزء الثانى ، ص ٧٥) .

(٤) مزدك : فيلسوف ظهر فى فارس ودعا إلى الزندقة والاباحية وشيوعية المال ، ونهى عن الاختلاف والمباغضة والقتال . وقد انتشرت دعوته فى عهد قباد الذى اعتنق مذهبه وساعده على نشره أول الأمر ، ثم ما لبث أن شعر بخطره وخاصة عندما عارض مزدك واتباعه ، جعل ولاية العهد لأنوشروان بن قباد ، فانقلب عليه فى أواخر أيامه ، فنصب قباد لمزدك وكبار أتباعه كميناً وقد ساعده ابنه أنوشروان فى ذلك . فقتل مزدك ورؤساء أتباعه ، فضعف شأنهم بحيث استطاع أنوشروان ، عند ما تولى الحكم ، القضاء عليهم . (إيران فى عهد الساسانيين ، ص ٣٠٢ - ٣٤٥) .

في جمعه، وقد وافى دارا مملكة قباذ فأبادهم . وأبو مسلم^(١) صاحب دعوتنا، نهض في دولتنا وهو ابن ثمانى عشرة سنة ، وقتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

(١) أبو مسلم الخراساني ، عبد الرحمن بن مسلم ، يعتبر من مؤسسى الدولة العباسية . اتصل بإبراهيم الإمام، الذى توسم فيه قدرة وكفاية، فبعث به إلى خراسان، فاستمال أهلها واستولى على نيسابور ، وقاد الجيش الذى توجه لمقاتلة الجيوش الأموية بقيادة مروان ابن محمد آخر خلفاء الأمويين ، وانتصر عليه في معركة الزاب الحاسمة ، التى قررت نهاية الدولة الأموية ، كما قضى على مقاومة عبد الله بن المنصور، عند ما امتنع عن مبايعة المنصور ودعا إلى نفسه، إذ هزمه في معركة نصيبين . فحصل بذلك أبو مسلم على مقام خطير ، مما جعل أبا جعفر المنصور يخشاه ، فدبر له مكيدة كان فيها مصرعه ، فقتل وعمره سبع وثلاثون سنة .

راجع تفصيلات اغتياله في وفيات الأعيان ٢ : ٣٢٤-٣٣١.

البَابُ الثَّانِي

فِي لُطْفِ التَّدْبِيرِ فِي الْحُرُوبِ

حُكِيَ أَنَّ الإسكندر لما فرغ من مدن^(١) فارس وأراد الشخصَ عنها ،
كتب إلى أرسطاطاليس يُعلمه أنه لما فتح بلاد فارس ، رأى رجالاً لم يرَ مثلهم
جمالاً وكمالاً وشجاعة ، وإنه لا يأمن إن ظعن عنهم أن يثبوا بمن يخلف ،
ويرجعوا إلى معصيته . وأنه رأى قتل أمثالهم فساداً في الأرض ، ولم يأمنهم
أن يخرجوا في عسكره على فساد العسكر . فكتب إليه أرسطاطاليس : فهمت
كتابك في رجال فارس ، فأما قتلهم فهو من الفساد في الأرض ، ولو قتلتهم
جميعاً لأبَدت^(٢) البلد مثلهم ، وكانوا أعداءك وأعداء عَقِيبِكَ وبلدك بالطبع .
وإخراجهم في عسكرك مخاطرة بنفسك وأصحابك لا يؤمن ميلهم عليك ، لأن
عدوك صديق عدوك . ولكن فرّق كلمتهم بأن تجعل لكل طائفة منهم
ملكاً ، فلا يؤدي بعضهم إلى بعض طاعةً ، ويلجأ كل فريق منهم إليك .
فَمَلَكَ الإسكندر ملوك الطوائف ، فمكثوا على ذلك حتى جمع كلمتهم^(٣)
أردشير بن بابك .

وحُكِيَ أَنَّ الإسكندر لما شخص عن أرض فارس إلى أرض الهند

(١) في ب : « من مُلك » .

(٢) في ب : « لأبنت » .

(٣) في ب : « جمع ملكهم » .

تلقاه ملك الهند في جمع عظيم ومعه ألف فيل مجففة^(١) بالسلاح عليها الرجال
وفي خراطيمها السيوف . فالتقوا فكانت الدّبرة على الإسكندر ، ولم تقف
دواب جنده للفيلة وولت منها هاربة . فراجع الإسكندر إلى مأمنه ثم أمر صنّاعه
فاتخذوا له تماثيل للفيلة ، وجعل مرابط خيله في تلك التماثيل حتى ألقتها الخيل .
ثم أمر باتخاذ ألف تمثال رجل على ألف فرس من نحاس مجوفة ، ثم ألبسها
الدروع وملاً أجوافها بالنفط والكبريت . وجُرت على العجل فوقفت
في مواضع الوقعة ، وبين كل تماثيل منها جماعة من أصحابه . فلما نشبت الحرب
واشتدت ، أمر بإشعال النار في تلك التماثيل فحمت ، وانكشف أصحابه عنها .
وغشيت الفيلة التماثيل فضربتها بخراطيمها ، فتشّطت خراطيمها واحترقت ،
فولّت الفيلة راجعة . وكانت الدّبرة في ذلك اليوم على ملك الهند .

وحكى أن ملكاً من ملوك العرب حارب عدوّاً له فهزم وخرج هارباً
والخيل تكدّه^(٢) . فلما أرهقته نثر لها زجاجاً ملوناً شبيهاً بالجوهر الأحمر
والأخضر والأصفر ، ودنانير صِفراً مطلية بالذهب . فتشاغل طالبوه بلقط
ما طرح ، ولجأ إلى معقله .

وحكى أن أميراً أمر بسبائك صِفَر فطليت بالذهب ، وكانت في خزانته .
وأن جنده شغبوا عليه لطلب أرزاقهم . وقد تأخر عنه بعض تديره فيهم ،
وأبطأت عليه مواده . فلما خاف جنده أخرج إليهم سبائك النحاس المموهة ،
وقال لهم : إنا أردنا ضرب هذه السبائك دنانير لنقسمها فيكم فأنظرونا ،
(فأنظروه) حتى تهيأ له فيهم ما أراد .

(١) التجفاف : آلة للحرب تلبسه الفرس ، أو الإنسان لتقيه في الحرب .
وجفف الفرس ألبسها إياه . وفي الأصل « محفنة » وهو خطأ في النسخ .

(٢) تكدّه الخيل : تلح في طلبه .

وحكى أن الإسكندر سار في مسيره في الأرض ، إلى مدينة في غاية المنعة والحصانة ، فتحصن فيها أهلها ، فيئس منها لحصاتها . وتعرّف خبرها فأعلم أن فيها من الميرة والعيون المتفجرة ما لا يُخاف عليه النفاذ . فدرس تجاراً من قبله متكرين وأمدّهم بالمال وأمرهم بدخول المدينة على سبيل التجارة وبيع ما معهم من تجارتهم ، وأمرهم بابتياح ما أمكنهم من الميرة والمغلاة بها . فدخل التجار المدينة بتجاراتهم وانكشف عنها الإسكندر راجعاً فأمنوه . فلم تزل تجاره يشترون منهم (الميرة ويغالون بها ، وهو يمدّهم بالمال ، والقوم آمنون لبعده الإسكندر عنهم) حتى صار في أيدي تجاره أكثر ميرة المدينة . فلما علم ذلك كتب إلى تجاره : احرقوا ما في أيديكم من الميرة كلها ، واهربوا عن المدينة . وزحف الإسكندر إليها ولا ميرة بها إلا شيء يسير . فحاصروهم أياماً قليلة فأعطوه الطاعة وفتحوا له المدينة على حكمه .

البَابُ الثَّالِثُ

فِي فَتْحِ الْقِلَاعِ

حُكِيَ أَنَّ الإسكندر وقف على قلعة^(١) كثيرة الميرة ممتنعة الموضع .
فانصرف عنها وشرّد مَنْ حولها من أهل الرساتيق^(٢) ، وخرب قراهم ونهب
أموالهم وتهدهم بالسِّبَاء^(٣) . فخرجوا هارين معتصمين بالقلعة . حتى دخلها
أضعاف أهلها ، فأسرعوا في الطعام ، ففَنِيَتِ الميرة في مدة يسيرة . ثم رجع إليها
لَمَّا خفت ميرة أهلها فحاصرهم ففتحها .

وَحُكِيَ أَنَّ بُغَا الْكَبِيرَ^(٤) ، فعل مثل ذلك بمدينة بأرمينية حتى فتحها .
وَيُذَكَّرُ أَنَّ عُجَيْفًا^(٥) لما أناخ على حصن لؤلؤة^(٦) من بلاد الروم ، والمأمون

(١) في ب « مدينة » .

(٢) الرساتيق : القرى والضواحي ، ومفردها الرستاق .

(٣) السبَاء : السبي أى الأسر .

(٤) كَانَ بُغَا مِنْ الْقَوَادِ الْأَتْرَاكِ فِي عَهْدِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ .
وَقَدْ سَيَّطَرَ عَلَى شُؤُونِ الدَّوْلَةِ فِي عَهْدِ الْمُتَّصِرِ بْنِ التَّوَكُّلِ بِحَيْثُ صَارَ الْخَلِيفَةُ الْعُوبَةُ
بِيدِ الْقَوَادِ الْأَتْرَاكِ .

(٥) عُجَيْفُ بْنُ عَنَبَسَةَ : رَئِيسُ حَرَسِ الْمَأْمُونِ وَأَحَدُ قَوَادِهِ عِنْدَمَا غَزَا بِلَادَ
الرُّومِ غَزْوَتِهِ الْأَخِيرَةَ الَّتِي تَوَفَّى فِيهَا بِالقَرَبِ مِنْ مَدِينَةِ طَرَسُوسَ ، بَعْدَ أَنْ اسْتَرَدَّتْ
جُيُوشُهُ حَصْنَ لَوْلُؤَةَ . وَبَقِيَ عُجَيْفٌ حَتَّى زَمَنَ الْمُعْتَصِمَ ، فَقَتَلَهُ لِاشْتِرَاكِهِ بِوَأَمْرَةٍ مَعَ
الْعَبَّاسِ بْنِ الْمَأْمُونِ .

(٦) كَانَ حَصْنُ لَوْلُؤَةَ مِنَ الْقِلَاعِ الْمَهْمَةِ عَلَى حُدُودِ الدَّوْلَةِ الْبِيزَنْطِيَّةِ .

إذ ذاك هناك ، دعا مُجَيِّفًا أَهْلَ لَوْلُؤَةٍ لِمَنَاظَرَةٍ ، على أن يصعد في عشرة من أصحابه إلى نصف صُعد^(١) الحصن ، وينزل القوم إليه النصف في عشرة ، فأجابهم مُجَيِّفٌ إلى ذلك ، فقليل له : إن القوم أرادوا بك سوءا ، فنزول أصحابهم إليهم أسرع من صعود أصحابك ، فأبى وصعد إليهم . وقد كَمَّنُوا له في غارٍ لهم مائة رجل . فلما أخذوا في المناظرة ، خرج عليهم الرجال فأخذوه وأصعدوه إلى الحصن . فاستأذنهم مُجَيِّفٌ في غلامين صغيرين يحملان له طعامًا ، فأذنوا له . وعسكره مقيم على باب لَوْلُؤَةٍ ، وقد كتب إلى المأمون بخبره . وأمر الغلامين أن يحملوا له سُمًّا كثيرًا في دفعات ، حتى إذا اجتمع عنده ما أراد ، احتال لمصنعهم^(٢) الذي يقتاتونه من مطر إلى مطر ، فطرح السُّمَّ في الماء ، وكتب إلى المأمون يُعلمه ما صنع . فأقبل المأمون حتى أناخ بعسكره على لَوْلُؤَةٍ ، وشرب أهلها الماء ، فتهافتوا يموتون ، وسلموا لَوْلُؤَةٍ إلى المأمون .

وَحُكِيَ (عن مُجَيِّفِ بْنِ عَنبَسَةَ) أنه قال : اتَّهَيْنَا إلى مدينة ممتنعة على السلطان ، عليها سور مُحْكَم . فأقمنا أيامًا نحارب أهلها فلم نطقهم . فقلت لصاحب جيشنا : هل لك في رأى عندى ؟ قال : قل ، قلت : تُهادن القوم على أن يدخل قوم من أصحابك يَمْتَارُونَ^(٣) ، وتأذن لى فأدخل ومعى ثلاثون رجلاً ممن أختار من أهل العسكر كأنما نمتار ، فإذا قرب المساء أخذنا الباب ساعة وضاربنا عنه ، وزحفت بالعسكر فدخلت . فقال : إِفْعَلْ . فاخترت من أهل العسكر ثلاثين

(١) صُعد الحصن : علوه وارتفاعه .

(٢) المصنع : حوض يُجمع فيه ماء المطر .

(٣) يمتارون : يكتالون ما يحتاجونه من الميرة .

رجلاً من أنجادهم^(١) ، فكسرنا فضول أجفان سيوفنا عن نصولها ، وعلّق كل واحد منا سيفه تحت لُبّادته^(٢) . ثم بعثنا إلى أهل المدينة نسألهم الإذن لنا في الدخول للميرة ، وحلف لهم صاحب جيشنا أنه يرحل من ليلته . فأذنوا لنا فدخلنا وأمّرتنا ، وأبطأنا حتى دنا المغرب . وأمير جيشنا في عسكره بالقرب منا ، وقد أظهر أنه يريد الرحيل ، وعي^(٣) أصحابه . ثم صرنا إلى باب المدينة لنخرج ، فوثبنا على حفظة الباب فقاتلناهم . ووافقت خيلنا ورجّالتنا^(٤) ، والباب مفتوح وبعضنا في الدهليز ، وبعضنا فوقه ، فدخلوها فكان ذلك سبب فتحها .

وحكى أن قحطبة^(٥) لمّا أخذ الرى^(٦) وأقبل نحو همدان ، تحصن أهلها في مدينة همدان . وخرج الوالى الذى كان لبني أمية منها وأمر صاحب المدينة (وأهلها) أن لا يُفتح الباب حتى يأتهم أمره وخاتمه . فبلغ قحطبة ذلك ،

(١) أنجاد العسكر : شجعانهم ، ومفردها نَجْد وهو الشجاع السريع الإجابة إذا ما دُعِيَ .

(٢) اللُّبَادَةُ : قباء من الشعر أو الصوف يلبس وقايةً من البرد .

(٣) عيَّ أصحابه : هيأهم للحرب .

(٤) فى أ « ورجالنا » .

(٥) هو قحطبة بن شبيب الطائى أحد القواد الشجعان ، وقد صحب أبا مسلم الخراسانى وناصره فى دعوته لبني العباس فى خراسان ، وكان أحد النقباء الاثنى عشر الذين اختارهم محمد بن على . وقد وجهه أبو مسلم إبان ثورته إلى حرب الأمويين فى العراق . فاشتبك قحطبة مع القائد الأموى ابن هبيرة فى معركة عند كربلاء فقتل قحطبة إلا أن جيشه الذى تولى قيادته ابنه الحسن ، انتصر على ابن هبيرة ودخل الكوفة منتصراً ، فخرج أبو العباس السفاح وأعلن خلافته .

(٦) الرى : مدينة مشهورة فى التاريخ الإسلامى ، كانت تقع قرب طهران الحالية وإلى جانب جبل يشرف عليها .

فوجّه على لسان قوم من أصحابه إلى صاحب بن أمية ، يسألون الأمان ويذكرون
مِنْ أَنَّ أمانه إن ورد عليهم صار أكثر أصحاب قَحْطَبَة إليه . وواطأ قَحْطَبَة
الثقات من أصحابه فشغبوا عليه وأظهروا التنكر له . فبلغ ذلك صاحب بن أمية
فأطمعه فيهم فأجابهم إلى ذلك . فقالوا : اعطنا خاتمك أماناً لنا ، فبعث بالخاتم
إليهم . فزحف قحطبة إلى مدينة همدان ، فأعلمهم أنه قد قتل صاحب بن أمية
وأنه قد أخذ خاتمه ووجّه برأسه إلى خراسان . ورمى بخاتم الوالى إليهم على
نشابة ، فلما رأوه فتحو له المدينة .

وحكى أن عبد الملك بن صالح العباسي^(١) لما غزا بلاد الروم على عهد
الرشيد ، حاصر حصناً في بلاد الروم ، فامتنع الحصن عليه ، وانصرف يائساً عنه .
وكان في أصحابه رجل يقال له عبيد الله المعروف بالأقطع . وكان قد مكث دهرًا
في بلاد الروم فعرف أكثرهم . وكان حاذقًا بالرومية شبيه الصورة واللبسة^(٢)
بالروم . فخرج الأقطع يسير منفردًا حتى قرب من الحصن . فرأى رجلًا من
الروم على دابة له ومعه باز ، فسأله الأقطع عن خبره ، فخبّره أنه القيمّ بأمر
الحصن ، وأنه خرج متصيدًا عند انصراف عبد الملك ، فتساءلا ، فلم ينكره
الرومي وظن أنه من بلاد الروم فأنس به .

(١) عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس ، أحد قواد هرون الرشيد
وهو من البيت العباسي وأبوه أخو محمد بن علي منظم الدعوة العباسية في الحجة .
وقد قاد عدة حملات على الدولة البيزنطية ، وتولى قيادة الحدود (محافظة الثغور)
في حكم الرشيد ، إلا أن الرشيد أخذ يوجس منه الخروج عليه وخاصة بعد نكبة البرامكة ،
فتحين الفرص عليه حتى استطاع أن يحبسه ، وبقي في الحبس حتى توفي الرشيد .
(الطبرى ٣ : ٦٧ ، والرزاء والكتاب : ٢٦٣)

(٢) اللبسة : حالة من حالات لبس الثياب . وفي ١ : « الملبس » .

أما الأقطع فدخل على عبد الملك فقال : أوصح الله الأمير ، أرجو أن أكون قد ظفرت بالحصن ، قال : وكيف ذاك ؟ قال : إذا كان في ليلة كذا ، فوجه ألف فارس ليكونوا بقرب الحصن ، فإني أرجو أن أفتحه لهم . قال عبد الملك : وكيف ذاك ؟ قال الأقطع : إن خبرتك الخبر ففشا لم آمن بطلانه . قال عبد الملك : فأنت وما تدبر .

فلما كان في اليوم الذي وعد فيه صاحب الحصن للصيد ، حمل بازه وخرج الموعد ، فوافاه الرومي لموعده . فتصيّدا وتحادثا نهارهما ، ثم سأله الرومي أن ينصرف معه إلى منزله ليبيت عنده ، فأجابه إلى ذلك . فمضيا حتى دخلا الحصن ممسين . فقال الأقطع للرومي : إن العرب بقربك فينبغي أن تكون على حذر ، وأن تكون مفاتيح الحصن عندك . قال : هي عند بواب الحصن وهو ثقة ، قال له : فاخرج بنا حتى نطيف بالحرس^(١) ويغلق الأبواب بحضرتنا . ففعل الرومي ذلك . فجعل الأقطع يقول للبواب بالرومية : احذر مكر العرب ، ويشتمهم وينتقصهم . وعرف موضع البواب ومبيته ثم انصرفا . فلما باتا ، انسل الأقطع في آخر الليل إلى بواب الحصن فحزّ رأسه وأخذ المفاتيح ففتح الأبواب ، وتسمع ، فسمع خيل عبد الملك ، فخرج إليهم فأدخلهم الحصن ، فلم يعلم أهله إلا بالمسلمين معهم السيوف ، فأخذ الحصن واستبيح ما فيه .

(١) يطيف بالحرس : يدور به ليفتشه .

البَابُ الرَّابِعُ

فِي لُطْفِ النَّدْبِيرِ فِي فَتْحِ الْبِلَادِ

حُكِيَ أَنَّ هَرَثْمَةَ^(١) لَمَّا نَزَلَ قَرْيَةَ يُقَالُ لَهَا الْجَارِيَّةُ ، عَلَى فَرَسَيْنِ مِنْ الْكُوفَةِ ، سَدَّ الْفَرَاتَ وَصَرَفَ مَاءَهُ إِلَى الْأَجَامِ ، فَانْقَطَعَ مَأْوُهُ عَنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ إِلَّا نَزْرًا يَسِيرًا يَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ السَّدِّ . فَأَمَرَ بِنَقْلِ^(٢) أَقْذَارِ الْعَسْكَرِ وَطَرَحَهَا فِي الْمَاءِ الْمَنْسَلِ مِنَ السَّدِّ ، فَامْتَنَعَ عَلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ شَرِبُهُ . ثُمَّ جَعَلَ يَرْكَبُ فِي أَصْحَابِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ (حَتَّى يُشَارَفَ الْكُوفَةَ فَإِذَا تَنَادَوْا بِالسَّلَاحِ انصَرَفَ عَنْهُمْ) حَتَّى أَنْسَ أَهْلُ الْكُوفَةِ بِذَاكَ . فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ إِذَا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ لَمْ يَحْفَلُوا بِهِ ، خَرَجَ يَوْمًا فِي أَفْضَلِ عَدَدِهِ وَعُدَّتِهِ وَأَوْقَعَ بِهِمْ . وَتَنَادَوْا بِالسَّلَاحِ فَلَمْ يَحْفَلْ بِهِ أَكْثَرَهُمْ ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ قَتْلًا ذَرِيعًا .

وَحُكِيَ أَنَّ أَهْلَ إِفْرِيقِيَّةِ^(٣) عَصَوْا فِي أَيَّامِ الرَّشِيدِ ، فَدَعَا جَمَاعَةً مِنْ (جِلَّةِ)

(١) هُوَ هَرَثْمَةُ بْنُ أَعْيُنٍ مِنْ عِظَامِ قَوَادِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ . قَادَ عِدَّةَ حَمَلَاتٍ فِي إِفْرِيقِيَّةٍ وَبِلَادِ الرُّومِ حَازَ فِيهَا انْتِصَارَاتٍ لَامِعَةً . وَقَدْ عَمِلَ فِي تَوْطِيدِ حُكْمِ الْعَبَّاسِيِّينَ فِي إِفْرِيقِيَّةٍ حِينَمَا عَيْنُهُ الرَّشِيدُ وَآلِيَا عَلَيْهِا وَعِنْدَ نَشُوبِ الْخِلَافِ بَيْنِ الْأَمِينِ وَالْمَأْمُونِ انْحَازَ هَرَثْمَةُ إِلَى الْمَأْمُونِ وَتَوَلَّى قِيَادَةَ عِدَدٍ مِنَ الْحَمَلَاتِ لِإِخْضَاعِ الْخَارِجِيِّينَ عَلَيْهِ . إِلَّا أَنَّ الْوَشَاةَ أَغْرَوْا عَلَيْهِ صَدْرَ الْمَأْمُونِ وَخَاصَّةَ الْفَضْلِ بْنِ مِهْزَلٍ الَّذِي كَانَ يَبْغِضُهُ . فَامْتَدَّعَاهُ الْمَأْمُونُ إِلَى مَرْوٍ وَخَبَسَهُ ، ثُمَّ قُتِلَ فِي الْحَبْسِ سَنَةَ ٢٠٠ هـ .

(رَاجِعْ عَنْ مَقْتَلِهِ : الْوُزَرَاءُ وَالْكِتَابُ : ٣١٦ - ٣١٨) .

(٢) فِي ب : « بِحَمَلٍ » .

(٣) إِفْرِيقِيَّةٌ : قِسْمٌ الْجُغَرَاْفِيُونَ الْمُسْلِمُونَ شِمَالِي إِفْرِيقِيَّةٍ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ هِيَ : =

قواده فيهم جعفر بن محمد بن الأشعث الخزاعي^(١) ، فشاورهم . فأشار أكثرهم بالإمساك عن (أهل) إفريقية لبعد الشقة وعظيم المؤونة . وجعفر ممسك عنه . فقال الرشيد لجعفر : ما عندك فيما أشار به القوم ؟ قال : يا أمير المؤمنين إن طبت نفساً بفراشك الذى تحتك فطب نفساً بإفريقية ، فإن أهلها إن أهملوا تتابع أهل الأمصار على المعصية ، حتى ينتهى ذلك إلى عصيان من فى دارك .

قال الرشيد : فما ترى ؟ قال : أرى أن توجه إليهم جيشاً كثيفاً ولا تستكثر النفقة عليه . قال (الرشيد) : فكن أنت الخارج إليها . قال جعفر : نعم ، على أن تُزاح عُلَّتى فيما احتاج إليه . قال الرشيد : وما تحتاج إليه ؟ قال : أحتاج إلى عشرة آلاف رجل من أهل خراسان يُعطون أرزاقهم لتمام سنة . فأمر (له)

١ - المغرب الأقصى ويشمل مراکش والريف .

٢ - المغرب الأوسط ويشمل الجزائر وأطرافها .

٣ - المغرب الأدنى ويسمونه إفريقية ، وهو القسم المحصور بين مصر والجزائر ويشمل تونس الحالية . وفى هذا القسم مدينة القيروان التى أسسها عقبة بن نافع .

ويقصدون بمدينة إفريقية مدينة القيروان . وقد ثارت إفريقية عدة مرات فى عهد الرشيد وأرسل إليها فى إحدى المرات حملة قوية بقيادة هرثمة بن أعين فوطد فيها الحكم العباسى . إلا أنها ما لبثت أن ثارت بعده . وقد طلب إبراهيم بن الأغلب التميمى إلى الرشيد أن يجعله أميراً على إفريقية وأن تبقى الإمارة فى سلالة مقابل خضوعه للخليفة ودفع مبلغ من المال سنوياً ، فقبل الرشيد ذلك فظهرت إمارة الأغالبة

(١) كان جعفر بن محمد بن الأشعث من القواد المقربين للرشيد ، وقد أوكل إليه الإشراف على تربية ابنه محمد الأمين . وكان أبوه محمد بن الأشعث الخزاعي من كبار القواد فى عهد أبى جعفر المنصور ، وقد قاد حملة كبيرة إلى إفريقية وأعادها إلى حكم المنصور بعد أن خرجت عليه .

الرشيد بذلك . فخرج جعفر حتى وافى تخوم افريقية . وكان بين مدينتها وبين الماء بركة تكون عشرة فراسخ لاماء فيها ، ودونها جبل فيه عين كثيرة الماء . فكان أهل افريقية كلما أتاهم جيش خلّوا له الطريق ، حتى إذا قطع هذه البركة ، خرجوا إليه وهم مستريحون ، والجيش تعبٌ ظمآن لاماء له فيهرزمون .

فلما وافى جعفر طرف هذه البركة ، أقام على العين التي في طريقها وخندق على عسكره خندقاً وأدخل العين في الخندق ، وجعل فيه الميرة . وأمر أصحابه بإراحة دوابهم ، وإدراة أرزاقهم . وشنَّ بهم الغارات في النواحي . وانتظر أهل افريقية أن يضجر فيقطع المفلزة إليهم فتقع به المكيدة . حتى إذا جمَّ^(١) أصحابه وكُرّاعه^(٢) جمع (مَنْ) في عسكره من تجار افريقية وصنّاعهم وأوباشهم فقسّمهم أقساماً ثلاثة . ثم رحل متوجهاً نحو مدينة افريقية ، وأرسل الثلث من أهلها إليها أول النهار ، فخرجوا فوافوا المدينة ليلاً ، فأعلموهم أنه قد رحل إليهم . فساروا جميعاً بالسلاح ، وخرجوا من غد ذلك اليوم . ثم أرسل الثلث الثاني ضحوة ، وقد بعد أهل المدينة عنها نحواً من ثلاثة فراسخ ، فأعلموهم أنه قد أقبل إليهم فتقدموا قليلاً . ثم أطلق الثلث الثالث مع الليل ، فوافوا أهل افريقية نصف النهار ، فأعلموهم أن جعفر خلفهم ، فتقدم القوم أيضاً حتى قطعوا أكثر البركة ، ووافاهم جعفر في جيشه وهوريّان مستريح ، وهم ظمياء مُتعبون^(٣) ، لاماء خلفهم ولا معقل لهم . فأوقع بهم فقتل أكثرهم ، وصار إلى المدينة ولا امتناع بها ، فتأق بالطاعة .

(١) جَمَّ : استراح .

(٢) الكراع : اسم يطلق على الدواب من خيل وبغال وحمير .

(٣) في ب : « متعبون مزحفون » ومزحفون : إعياء من السفر

وحكى أن ملكاً من ملوك الروم اليونانيين غزا (بلاد) افريقية ، فعبر البحر إليهم فحاصر مدينة لهم زماناً طويلاً ، فحاربوه على أبواب المدينة . وكان في أصحاب ملك الروم رجل يُقال له أرسلاوس لم يُذكر مثله في النجدة ، وكان قد عتب على الملك في بعض أموره فاعتزل الحرب . وكان في أهل مدينة افريقية رجل يقال له أقطر في غاية النجدة ، وكان لا يخرج إليه رجل من الروم إلا قُتله . فبلغ ذلك ملك الروم فاحتال على أرسلاوس بأن قال لأخ له : لو ركبت فرس أرسلاوس وخرجت إلى أقطر ، رجونا أن تقتله فتريحنا منه ، فاختدعوه . فلبس أخوه سلاحه وشُهرة^(١) كان أرسلاوس يُعرف بها ، ثم خرج إلى أقطر فقتله . فقالت الروم لأرسلاوس : إن أقطر قتل أخاك . فغضب ودعا بسلاحه وفرسه ، ثم خرج إلى أقطر فبارزه فقتله أرسلاوس . فقت ذلك في عضد أهل افريقية . فقال أرسلاوس للملك : إني لا يقنعني من القوم بعد قتل أخى إلا الاستباحة فقلدني الرأى ، فقلده الملك ذلك . فأمر الصُّنَّاع فعملوا مِثال فرس عظيم أجوف ، ثم نقشوه بالذهب وفصصوه بألوان الحجارة ، وجعلوا مقدار ما يسع جوفه مائة رجل ، وجعل له عَجَلًا يُجرُّ عليها وباباً يدخل منه الرجال خَفِيًّا . ثم قال أرسلاوس للملك : ارسل إلى أهل المدينة بقول يطمثون إليه ولا يوجب عليك عذراً ، ثم انكشف عنهم وأوهمهم أنك راجع إلى بلدك ، وتَنَحَّ بِمراكبك حتى تغيب عنهم في البحر ، فإذا جَنَّ الليل فارجع في نفر من أشد أصحابك في أسرع سِر حتى توافي القوم في السحر . وخَلَّفَ هذا الفرس فإني أرجو أن أدخله في مائة رجل من ثقاتك .

فراسل الملك أهل المدينة ، فأحبوا^(٢) الصلح فأطعمهم فيه ، وقبل منهم شيئاً أهده له ، وقال لهم : إني كنت معتماً على أن لا أبرح حتى أخرب

(١) الشهرة : علامة يشتهر بها الفارس .

(٢) في ب « فأجابوا للصلح » .

مدينتكم ، واتخذت هذا الفرس لأجعله مكان أصنامنا في بلادنا ، وحمله معي لا يمكن ، فاحتفظوا به لنا . فدخل في الفرس أرسلاوس ومعه مائة رجل من أنجاد الروم . فلما انكشف ملك الروم عن المدينة فغيب في البحر ، خرج أهل المدينة يطيفون بالفرس ويتعجبون منه . ثم جروه على عجلة ليدخلوه المدينة فضاق الباب عنه . فوسّع الباب له حتى دخل الفرس على عجلة . ثم أطاقوا به يشربون حوله الخمر ولا يرون فيه أثر مدخل ، حتى دجا عليهم الليل وأسرعت^(١) فيهم الخمر .

فلما جاء السحر وتفرق القوم من بين سكران وآمن ، سرى نحوهم ملك الروم في سراكب خفيفة وفيها أنجاد عسكريه . فوافاهم في السحر وباب المدينة مقلوع . وخرج عليهم أرسلاوس ومن معه من جوف الفرس يضربون بالسيوف ، فشغلهم عن حفظ الباب ، ودخل ملك الروم المدينة فاستباحها^(٢) .

(١) في ١ : « فأسرعت » .

(٢) في هذه القصة شبه كبير من قصة فتح طروادة :

الباب الخامس

في لطف التدبير في عقد ملك

يُروى أن أمير المؤمنين علياً رضوان الله عليه ، لما بويع بالخلافة ، دخل عليه المغيرة بن شعبة^(١) فقال له : يا أمير المؤمنين : إنه ليس على الأرض أحد أخوف على الفساد من معاوية بن أبي سفيان ، ومعه أهل الشام ، وهم في كثرتهم وكثرة خيلهم كما قد علمت ، فوجه إلى معاوية بكتاب تقرؤه فيه على عمله ، حتى يأخذ لك البيعة على نفسه ومن قبله ، ثم تستزيه في الموسم ، فإذا صار إليك حبسته قبلك ووليت غيره . فقال رضى الله عنه : لا يسألني الله عن إقرار معاوية يحكم في دماء المسلمين وأموالهم « وما كنت متخذ المضللين عضداً »^(٢) . فخرج المغيرة من عند علي ، ثم رجع إليه من عشي يومه ، فقال : يا أمير المؤمنين إن كنت قد عزمت على عزل معاوية فبادره قبل أن يدبر ما يريد . فدخل عبد الله بن العباس على علي رضوان الله عليه ، فخبّره بما قال المغيرة بالغداة وبالعشي . فقال : أما بالغداة فنصحك وأما بالعشي فغشك .

(١) المغيرة بن شعبة : صحابي من بني ثقيف . كان من دهاة قومه وقادتهم . وقد شهد المعارك الفاصلة في الفتح الإسلامي كاليرموك والقادسية ، ولاء عمر بن الخطاب البصرة ثم الكوفة وأقره عثمان عليها . ثم استخدمه معاوية في ولاية الكوفة بعد أن استماله إليه ، ولم يزل فيها حتى مات سنة (٥٠) للهجرة . وكان المغيرة ممن شجعوا معاوية على استخلافه ابنه يزيد (وفيات الأعيان ٥ : ٤٠٦ - ٤٠٩)

(٢) سورة الكهف ، الآية (٥٠) .

ووجه عايه السلام عاملاً^(١) إلى الشام ، وكتب إلى معاوية بعزله . فلما ورد العامل على معاوية وجد قميص عثمان رضى الله عنه مضطجاً بدمه على رمح ، ويد امرأة عثمان نائلة بنت الفرافصة^(٢) ، وكانت أرادت أن تستر عثمان فضربت يدها فقطعت . وتحت الرمح أكثر من ثلاثين ألف رجل من أهل الشام ، يكون ويحلفون أن يطلبوا قتلة عثمان حيث كانوا . فأخذ معاوية كتاب على رضى الله عنه فزقه ، وبعث إليه بكتاب مختوم لا شيء فيه ، فرجع الرسول بذلك . فأنشأ المغيرة يقول :

نصحت علياً في ابن حرب نصيحة	فردّ فما مني له الدهر ثانيه
وقلت له ارسل إليه بعهد	على الشام حتى يستقر معاويه
ويعلم أهل الشام أن قد ملكته	وأم ابن حرب عند ذلك هاويه
فلم يقبل النصح الذي جئته به	وكانت له تلك النصيحة كافيه
وقالوا له ما أرخص النصح عندنا	فقلت لهم إن النصيحة غاليه

(١) بعث الإمام على جرير بن عبد الله البجلي ، وكان جرير والياً على همدان ، إلى معاوية يدعوه إلى الدخول في طاعته ، فاستنص معاوية ، ورجع جرير إلى على فأعلمه بما رأى (راجع : الطبرى ٥ : ٢٣٥) .

(٢) نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص الكلبى ، كانت خطيبة شاعرة من ذوات الرأى والشجاعة . وقد ألفت بنفسها على عثمان عندما ضربه أحد الثوار ، وأمسكت بالسيف لترد الضربة عنه فقطعت بعض أصابعها . ولما قتل عثمان خرجت إلى المسجد تستغيث وخطبت خطبة طويلة ، ثم كتبت إلى معاوية في الشام تصف قتل عثمان ، وأرسلت إليه بقميصه المخرج بدمه وأصابعها المقطوعة ، تستنفره للأخذ بثأره (الأعلام ٨ : ٣٠٣ - ٣٠٤ . وبلاغات النساء : ٧٠ - ٧١)

وحدث المدائني^(١) عن مسلمة قال : لما أراد معاوية أن يبائع ليزيد كتب إلى زياد^(٢) يستشيرهُ . فبعث زياد إلى عُبَيْد بن كعب النميري ، فقال : إن لكل مستشار ثقة ، ولكل سرّ مستودعاً ، فإن الناس قد أبدعت بهم خصلتان : إضاعة^(٣) السر ، وإخداع^(٤) النصيحة . وليس موضع السر إلاّ أحد رجلين : رجل آخره يرجو ثواب الله ، أو رجل دنيا شريف عاقل يصون حسبه وعقله^(٥) وقد عجمتهما^(٦) منك فأحدث الذي قبلك ، فدعوتك لأمر اتهمت^(٧) عليه بطون الصحف . إن أمير المؤمنين كتب إليّ يزعم أنه قد أجمع

(١) هو علي بن محمد بن عبد الله ، راوية ومؤرخ بصرى ، سكن المدائن ثم انتقل إلى بغداد . وله تصانيف عديدة في السيرة النبوية وأخبار النساء وتاريخ الخلفاء والفتوحات وأخبار الجاهليين . توفي في سنة ٢٢٥ هـ .

(٢) هو زياد بن أبيه ، ويعتبر من أدهى رجال عصره . وقد اشتهر بكفائه في الإدارة والسياسة وبمقدرته الخطائية . أمه جارية اسمها سُمَيَّة وأبوه غير معروف ويُشك في أنه أبو مفيان . وكان زياد من أتباع الإمام عليّ وقد ولاه خراسان . وقد استطاع معاوية بعد قتل الإمام علي ، أن يستميله إليه فألحقه بأبي مفيان — أى جعله أخاً له — فوجد زياد أن التحاقه بمعاوية يعود عليه بالنفع ، وخاصة بعد أن تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية . وقد لعب زياد دوراً خطيراً في العراق حينما ولى حكم الكوفة والبصرة ، وقد تميزت إدارته بالصرامة والحزم .

(راجع عن استلحاق زياد بأبي مفيان : وفيات الأعيان ٥ : ٣٩٧ - ٤٠٦)

(٣) في الطبرى « إذاعة » . وإضاعة السر إفشاؤه وعدم الحرص عليه ، وكذلك إذاعته .

(٤) إخداع النصيحة : إخفاؤها وعدم بذلها . وفي الطبرى « إخراج النصيحة إلى غير أهلها » .

(٥) في الطبرى : « ورجل دنيا له شرف في نفسه وعقل يصون حسبه » .

(٦) عجم الأمر : خبره وجرّبه . وفي الطبرى « وقد خبرتهما عنك » .

(٧) اتهمت عليه بطون الصحف : لم آمنها عليه .

على بيعة يزيد ، وهو يتخوَّف نفرة الناس ويرجو مطابقتهم^(١) . وقد كتب يستشيرني ، وعلاقة أمر الإسلام^(٢) وضمّانه شديد . ويزيد صاحب رَسَلَةٍ^(٣) وتهافت مع ما أولع به من الصيد . فالتقَّ أمير المؤمنين مؤدياً عني ، فأخبره عن فعّلات يزيد ، وقل رويدك بالأمر يستتم لك ، فإنه قَمِنُ^(٤) أن يتم لك ما تريد ، ولا تعجل فإن دَرَكَ^(٥) في تأخير خير من تعجيل عاقبته القوَّت .

قال عُبيد : فهلاً غير هذا ؟ قال : ما هو ؟ قال : لا تفسد على معاوية رأيي ، ولا تمت إليه ابنه . وألقى يزيد سرّاً من معاوية ، فأخبره عنك إن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك في بيعته وإنك تخوّفت خلاف الناس لهنات ينقمونها منه ، وإنك ترى له ترك ما يُنقم عليه . فتستحكم لأمر المؤمنين الحجة على الناس ، ويسهل لك ما تريد^(٦) . وتكتب إلى أمير المؤمنين بما أجببت مما لا ينكر الكتاب به . فتكون قد نصحت يزيد وأرضيت أمير المؤمنين ، وسامت مما تخاف من علاقة أمر الأمة .

قال زياد : رميت الأمر بحجره^(٧) ، أشخص على بركة الله ، فإن أصبت

(١) المطابقة : الموافقة . وفي الطبري « يرجو طاعتهم » .

(٢) علاقة أمر الإسلام : شؤونه وارتباطاته .

(٣) صاحب رَسَلَةٍ : صاحب كسل ولين .

(٤) قَمِنُ : لا بد ، جدير .

(٥) الدَرَكَ : إدراك الحاجة أي بلوغها .

(٦) في ب : وتسهل له ما يريد .

(٧) رمى الأمر بحجره : مثل يقال لمن يصيب الهدف - وفي أ : « بحجوده » .

وجاء في مجمع الأمثال : ١ : ٢٨٧ : إنه يعني بقرن الأمر بمثله في الصلابة والصعوبة ، وجعل الحجر مثلاً للقرن ، لأن الحجر يختلف باختلاف الرمي .

فما لا ينكر ، وإن يكن خطأ فغير مستعثر^(١) ، وأبعد بك إن شاء الله تعالى من الخطأ . قال : (نقول) بما نرى ويقضى الله بغيب ما يعلم ، فقدم على يزيد فذاكره ذلك . وكتب زياد إلى معاوية يشير عليه بالتؤدة وأن لا يعجل ، فقبل ذلك معاوية ، وكفَّ يزيد عن كثير مما كان يصنع . وقدم عبید على زياد فأقطعه « قطيعة »^(٢) .

وحدث ابن عیاش^(٣) قال : أراد الوليد بن عبد الملك أن يبايع لابنه عبد العزيز بعد سليمان بن عبد الملك ، فأبى ذلك سليمان وامتنع منه . فقيل للوليد يا أمير المؤمنين : لو أمرت راجزاً يُرَجِّزُ وهو معك لعله يُقَرِّئُ بشيء فنشهد به عليه . فدعا الأقبيل القيني^(٤) فقال له : رَجِّزْ بذلك شعراً يسمعه سليمان . قال : فدعا الوليد سليمان يوماً فسايره ، وسار الأقبيل خلف القوم ، ثم رفع صوته فقال :

إِنَّ وَلِيَّ عَهْدِهِ ابْنُ أُمِّهِ ثُمَّ ابْنُهُ وَلِيٌّ عَهْدِ عَمِّهِ
قَدْ رَضِيَ النَّاسُ بِهِ فَسَمِهِ فَهُوَ يَضُمُّ الْمَلِكُ فِي مَضْمَعِهِ^(٥)
يَا لَيْتَهَا قَدْ خَرَجَتْ مِنْ فَمِهِ حَتَّى يَعُودَ الْمَلِكُ فِي إِضْطَمَعِهِ^(٦)

(١) خطأ غير مستعثر ، أى غير مقصود .

(٢) أقطعه جعل له رزقاً . وتعنى هنا أنه أكرمه . ومقطت في الأصل كلمة قطيعة وقد وردت في الطبرى فأثبتناها . (الطبرى ٦ : ١٦٩ — ١٧٠) .

(٣) هو إسماعيل بن عیاش بن سليم العنسى ، عالم الشام ومحدثها . رحل إلى العراق وعمل في خدمة المنصور . توفي سنة ١٨٢ هـ .

(٤) الأقبيل القيني بن نهان من بنى القين من قضاة ، شاعر إسلامي اشتهر في صدر الدولة الأموية . وقد هجا الحجاج مرة فطلبه ليقطله فهرب إلى عبد الملك ابن مروان واستجار به ، وكتب إلى الحجاج ألا يعرض له .

(٥) المضم : ما يضم به شيء إلى شيء .

(٦) الإضطم : الضم . واضطمه : ضمه إليه واشتمل عليه .

قال : فالتفت إليه سليمان فقال : يا ابن الخبيثة ، من رضى بهذا ، لا أم لك ؟ .
 وحدث المدائني عن مبارك بن فضالة ، قال : دخل الأحنف بن قيس^(١)
 على معاوية حين أراد البيعة ليزيد ، فتكلم الناس ؛ فبلغ الكلام رجلاً منهم ،
 فقال : والله يا أمير المؤمنين لئن لم تعقد العهد لتلقين الله مضيقاً لأمة محمد صلى الله
 عليه وسلم . وأقبل معاوية على الأحنف فسارّه ، فقال مالك : لا تتكلم في هذا
 الأمر يا أبا بجر ؟ فقال : نخافكم إن صدقناكم ونخاف الله إن كذبناكم . فقال
 معاوية : جراك الله خيراً يا أبا بجر عن السمع والطاعة ، احموا إلى منزله خمسين
 ألف درهم . فقام الناس لا يشكون أنه بايع .

وحدث الهيثم بن عدي^(٢) ، عن مجالد^(٣) ، عن الشعبي^(٤) ، قال : حدثني

(١) الأحنف بن قيس : سيد تميم وأحد الفصحاء الشجعان . يضرب به المثل
 في الحلم والدهاء ، كان يحتكم إليه في الخلافات ويؤخذ بأحكامه . وفد على عمر بن الخطاب
 في المدينة وساهم في الفتوحات في خراسان ، وشهد صفين مع الإمام علي . وكان معاوية
 ينحشاه ويحاول ترضيته . وقد التحق بمصعب بن الزبير لما دخل الكوفة ، وتوفي
 في سنة ٧٢ هـ . (وفيات الأعيان ١ : ١١٨٦ — ١٩٤) .

(٢) الهيثم بن عدي الطائي : مؤرخ عالم بالأنساب ، إلا أنه لم يكن ثقة في رواية
 الحديث . أقام بالكوفة مدة طويلة وجالس من خلفاء بني العباس المنصور والمهدي
 والهادي والرشيد . وله تآليف عديدة في أنساب العرب وبيوتاتها ، وفي اللغة
 والأدب والتاريخ . وكان يتعرض لمعرفة أصول الناس وتقل أخبارهم وإظهار ما هو
 مستور من معائبهم . (وفيات الأعيان ٥ : ١٥٧ — ١٦٥) .

(٣) هو مجالد بن سعيد الهمداني من رواة الحديث والأخبار . وهو من أهل
 الكوفة . توفي بواسط في أواسط القرن الثاني للهجرة .

(٤) الشعبي : عامر بن شراحيل الشعبي الحميري . راوية من التابعين يضرب
 المثل بحفظه . ولد وعاش في الكوفة . كان نديماً لعبد الملك بن مروان . وعمل قاضياً
 لعمر بن عبد العزيز ، ويعتبر من رجال الحديث الثقات ، سمي الشعبي نسبة إلى شعب
 بطن من همدان . (وفيات الأعيان ٢ : ٣٢٧ — ٢٢٩) .

الربيع بن هديم الخزاعي ، قال : كَتَبَ المغيرة بن شعبه إلى معاوية حيث كبر وخاف العزل . أما بعد ، فإنه كبرت سنى ورقَّ عظمى واقترب أجلى ، وسفهنى سفهاء قريش ، فرأى أمير المؤمنين موفق^(١) . فكتب إليه معاوية : أَمَّا ما ذكرت من كبر سنك فانت أكلت عمرك ، وأَمَّا ما ذكرت من اقتراب أجلك فإنى لو أستطيع دفع المنية لدفعتها عن آل (أبى) سفيان ، وأَمَّا ما ذكرت من سفهاء قريش فإن حلماء قريش أنزلوك هذا المنزل ، وأَمَّا ما ذكرت من العمل فَصَحَّ رُوَيْدًا تُدْرِكُ^(٢) . فاستأذن معاوية فى القدوم فأذن له .

قال الربيع : فخرج المغيرة وخرجنا معه إلى معاوية . فقال له معاوية : يا مغيرة ، كبرت سنُّك واقترب أجلك ولم يبق منك شيء ، ولا أظننى إلا مستبدلاً بك ، قال : فانصرف إلينا ونحن نعرف الكآنة فى وجهه ، قال : قلنا : مالك ؟ قال : (قال لى) كذا وكذا ، قلنا : فما تريد أن تصنع ؟ قال : ستعلمون ذاك . فأتى معاوية فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الأنفس يُغداى عليها ويرُاح ، ولست فى زمن أبى بكر ولا عمر ، وقد احترج^(٣) الناس ، فلو نصبت لنا علماً من بعدك نصير إليه ، مع أنى كنت دعوت أهل العراق إلى يزيد ، فقال : يا أبا محمد ، انصرف إلى عملك وأَحْكِمِ هذا الأمر لابن أخيك . فأقبلنا

(١) فى ب : « فرأى أمير المؤمنين فى عمله موفق » .

(٢) مثل معناه لا تعجل الأمر وتأن به . وكان العرب يسرون فى البادية فإذا مروا ببقعة فيها كلاً وعشب ، قال قائلهم : ألا ضحوا رويداً ، أى ارققوا بالإبل حتى تتضحى ، أى تتناول غذاءها فى الضحى .

وفى « مجمع الأمثال ١ : ٤١٩ » إنه أمر من التضحية ، أى لاتعجل فى ذبحها . ثم استعير فى النهى عن العجلة فى الأمر .

(٣) احترج الناس : وقعوا فى الحرج من جراء خلافاتهم .

على البريد^(١) تركض ، فقال : يا ربيع ، وضعت والله رجله في ركاب طويل الغي (على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولا ينزعها عنه إلى يوم القيامة) ، والله ما يلي الخلافة بعده إلا ابن أو أخ أو قريب . وبطلت الشورى أبدًا ، قال : فذلك الذي دعا معاوية إلى البيعة ليزيد^(٢) .

وحدث عمرو بن واقد الدمشقي قال : كان في الزمن الأول ملك له سبعة وزراء ، وهم قواده وعمّاله على جميع مملكته . وكان يجلس لهم يومًا من السنة يأمرهم فيه بما أراد ، ويتغدّون معه . وكان قد سنّ عليهم أن يقترعوا في ذلك اليوم ؛ فأبهم أصابته القرعة^(٣) ذبح ولدًا من أولاده وشواه وقدمه على الخوان . فإذا رآه الملك قال : على من كانت النوبة ؟ فيقال : على فلان . فيأمر (به) فيرفع ، فكثروا بذلك دهرًا حتى أضربوا بآولادهم . وكان في السبعة رجل شديد العقل ، فأتى رجلًا منهم لم يكن له إلا ابن صغير ، فخلاه به ثم قال : أخبرني إن أصابتك القرعة غدًا ، أليس تشكّل واحدك ؟ قال : فما أصنع ؟ قال : فأنا رسول جميع أصحابك إليك ، وقد تعاهدوا جميعًا سواك ، على الامتناع من هذه السّنة التي أثكلتنا أولادنا ونفّست علينا عيشنا ، وليس للملك في ذلك منفعة ، قال : وقد أجمع رأيكم على هذا غيري ؟ قال : نعم . قال : فأنا أسرعكم إليه وأحرصكم عليه لتخوفي على واحدٍ ؛ فاستحلفه حتى استوثق منه .

ثم دار^(٤) إلى آخر ، فقال له : إنا قد اجتمعنا على الامتناع من هذه السّنة التي قد أفنت أولادنا وأهلكتنا ولم يبق غيرك ، قال : فإني أبايعكم ، فاستحلفه

(١) يقصد خيل البريد .

(٢) ورد نص هذه القصة مع بعض التغير في العقد الفريد ١ : ٩٧ .

(٣) في ب : « وقعت عليه القرعة » .

(٤) في ب : « أتى » .

حتى استوثق منه . ثم دار عليهم واحداً فواحداً ، حتى أجمعوا على رفض تلك السُّنة .

فلما كان ذلك اليوم ، حضروا عند^(١) الملك وفرغوا من غدائهم ، ولم يأتوه بالصبي المشوى ، فقال الملك : عَلَى مَنْ كانت النوبة ؟ قالوا : دَعَّ عَنْكَ هذا ؛ فإننا قد اجتمعنا على رفض هذه السُّنة التي لا تنفعك ، وقد أَضَرَّتْ بنا وأثكلتنا أولادنا ، قال الملك : فعزمت عليكم ، أيكم الباديء بهذا ؟ فأخبروه . فأخذ التاج عن رأسه ووضعه على رأس ذلك الرجل ، وقال لهم : يا مجانين ، إنما كنت أمتحنكم ، هل فيكم أحد ينكر المنكر ؟ فلم يكن غير هذا ! وقد كبرت سنى ودنا أجلى ، ولست أرى أحداً أولى بالملك منه ؛ فاسمعوا له وأطيعوا (فقد) ملكته عليكم .

(١) في ب : « غداء » .

البَابُ السَّادِسُ

فِي كَسْرِ الْعَسَاكِ بِقُوَّةِ الرَّأْيِ لِابْتِقَاةِ الْمَكَائِدِ

حُكِيَ أَنَّ كَسْرَى أَبْرُويز^(١) ، وَجَّهَ رَجُلًا مِنْ جِلَّةِ أَصْحَابِهِ فِي جَيْشِ جَرَارٍ إِلَى بِلَادِ الرُّومِ ، فَكَبَّرَ فِيهِمْ^(٢) وَبَلَغَ مِنْهُمْ ، وَفَتَحَ الشَّامَاتِ وَبَلَغَ الدَّرَبَ^(٣) فِي آثَارِهِمْ^(٤) . وَعَظَّمَ أَمْرَهُ وَقَوَّى سُلْطَانَهُ . نَحَفَافَهُ أَبْرُويزُ وَلَمْ يَأْمَنْهُ عَلَى مَا بَلَغَ وَقَاقٍ مِنْ أَجَلِهِ . فَكُتِبَ إِلَيْهِ كِتَابَيْنِ ، أَحَدُهُمَا يَأْمُرُهُ فِيهِ أَنْ يَسْتَخْلِفَ عَلَى جَيْشِهِ مِنْ يَثْقُ بِهِ وَيُقْبَلُ إِلَيْهِ ، وَالْكِتَابُ الثَّانِي يَأْمُرُهُ فِيهِ بِأَنْ يَقِيمَ بِمَوْضِعِهِ فَانْهَ أَدَارَ الرَّأْيِ فَلَمْ يَجِدْ لِمَوْضِعِهِ سَادًّا غَيْرَهُ ، وَلَمْ يَأْمَنْ الْخُلَلَ بِغَيْبَتِهِ .

وَأَرْسَلَ بِالْكِتَابَيْنِ رَسُولًا مِنْ ثِقَاتِهِ وَقَالَ لَهُ : أَوْصِلِ الْكِتَابَ الْأَوَّلَ بِالْأَمْرِ بِالْقُدُومِ ، فَإِنْ خَفَّ^(٥) لَذَلِكَ فَهُوَ مَا أَرَدْتُ ، وَإِنْ كَرِهَ الْكِتَابَ وَتَثَاقَلَ عَنِ الطَّاعَةِ فَاسْكُتْ أَيَّامًا ، ثُمَّ أَعْلَمْهُ أَنَّ الثَّانِيَّ وَرَدَ عَلَيْكَ ، وَأَوْصِلْهُ إِلَيْهِ لِيَقِيمَ بِمَوْضِعِهِ . فَخَرَجَ رَسُولُ كَسْرَى حَتَّى وَرَدَ عَلَى صَاحِبِ الْجَيْشِ بِيَلَادِ الشَّامِ ، فَأَوْصَلَ الْكِتَابَ إِلَيْهِ . فَلَمَّا قَرَأَهُ ، قَالَ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ كَسْرَى قَدْ تَغَيَّرَ لِي وَكَرِهَ مَوْضِعِي ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ اخْتَلَطَ عَقْلُهُ ، يَصْرِفُ مِثْلِي وَأَنَا فِي بَحْرِ الْعَدُوِّ ،

(١) هُوَ كَسْرَى الثَّانِي وَلَقَبَهُ أَبْرُويزُ ، أَيْ « الْمَظْفَر » .

(٢) نَكَبَ فِيهِمْ : قَهَرَهُمْ فِي الْحَرْبِ جَرَحًا وَقَتْلًا .

(٣) الدَّرَبُ : مَدْخَلُ بِلَادِ الرُّومِ مِنْ جِبَالِ طُورُوسَ .

(٤) فِي ب : « فِي دِيَارِهِمْ » .

(٥) فِي ١ : « لَف » .

فيوهى جيشه لأمر لا يقوم فيه غيرى مقامى ، ودعا أصحابه فقرأ الكتاب عليهم
فأنكروه .

فلما كان بعد ثلاثة أيام ، أوصل الرسول إليه الكتاب الثانى بالمقام ، وأوهمه
أن رسولاً ورد به عليه . فلما قرأه قال : هذا تخليط ، ولم يقع منه . ودسَّ إلى ملك
الروم من ناظره فى إيقاع الصالح بينه وبينه ، على أن يخلَّى الطريق لملك الروم
حتى يدخل بلاد العراق على غيرة من كسرى ، وعلى أن لملك الروم ما تغلب
عليه من دون العراق ، وللفارسي ما وراء ذلك (إلى بلاد فارس) ، فأجابه ملك
الروم إلى ما طلب . وتنحَّى الفارسي عنه فى ناحية من الجزيرة^(١) وأخذ أفواه
الطرق^(٢) .

فلم يعلم كسرى حتى ورد خبر ملك الروم عليه من ناحية قرقيسياء^(٣) ،
وكسرى غير مُعدٍّ وجنده متفرق فى أعماله . فوثب من سريره وقال : هذا
وقت حيلة ، ليس هذا وقت شدة . وجعل ينكت^(٤) فى الأرض ملياً . ثم دعا
برقاً فكتب فيه كتاباً بخط دقيق إلى صاحبه بالجزيرة يقول فيه : قد علمت
ما كنت أمرتك به من مواصلة صاحب الروم وإطاعه فى نفسك وتخليط الطريق
له ، حتى إذا تولى فى بلادنا أخذته من أمامه وأخذته أنت من خلفه ، لما أملت
فى ذلك من بواره . وقد تمَّ عليه ما دبرت ، وميعادك فى الإيقاع به يوم كذا
وكذا . ثم دعا راهباً فى دير بجانب مدينته ، فقال : أىُّ جار كنت لك ؟ قال
الراهب : أكرم جار . قال : لى حاجة إليك . قال : الملك أجَلُّ من أن تكون

(١) الجزيرة : أرض ما بين النهرين شمالى العراق .

(٢) أفواه الطرق : مداخلها .

(٣) قرقيسياء : مدينة كانت عند ملتقى الخابور بنهر الفرات على تخوم ما بين

العراق والشام .

(٤) ينكت فى الأرض : يحفر فيها بقضيب أو باصبعه عند التفكير .

له حاجة إلى مثلى ، ولكن عندى بذل نفسى فى الذى يأمر به الملك . قال كسرى : تحمل كتاباً إلى فلان صاحبى ؟ قال : نعم . قال كسرى : فاحفهِ فإن الروم على طريقك . قال : نعم . فلما ولى عنه الراهب ، قال له كسرى : أعلمت ما فى الكتاب ؟ قال : لا . قال : فلا تحمله حتى تعلم ما فيه . فلما قرأه عليه أدخله فى جيبه ومضى . فلما صار فى عسكر الروم ونظر إلى الصليبان والقسيسين احترق لهم مما خاف أن يقع بهم ، وجعل يصيح : أنا لم يحملنى كسرى رسالة ولا معى له كتاب . فأخذ فوجد الكتاب معه .

وكان كسرى وجه رسولاً اختصر الطريق ، حتى مرَّ بعسكر الروم كأنه رسول إلى كسرى من صاحبه ، ومعه كتاب فيه : إن الملك كان قد أمرنى بمقاربة ملك الروم واختداعه وتخليه الطريق له ، ليأخذه من أمامه وآخذه من خلفه ، وقد فعلت ذلك . فرأى (الملك فى) إعلامى وقت خروجه إليه . وأخذ ملك الروم الرسول وقرأ الكتاب فقال : قد عجبت أن يكون هذا الفارسى أدهن^(١) على كسرى . ووافاه أبرويز فيما أمكنه من جنده ، فوجد ملك الروم قد ولى هارباً ، فاتبعه يقتل ويأسر من أدرك . وبلغ صاحب كسرى هزيمة ملك الروم ، فأحب أن يحلّى عن نفسه ويستر ذنبه ، لَمَّا فاتته ما دبّر على كسرى . فخرج إلى الروم الهاربين فلم يسلم منهم إلا القليل .

وحكى أن عبساً دخلت وهى فى معاورة^(٢) فزارة فى حرب داحس

(١) أدهن عليه : أى غش وأظهر مالا يبطن .

(٢) المعاورة : المداولة والمطاولة .

والغبراء^(١) ، في شِعب^(٢) لا منفذ له ، ونذرت^(٣) بهم فزارة ، فأنت باب الشَّعب فأخذته عليهم . فعطَّشت بنو عبس إبلهم ، حتى إذا بلغ العطش منها ، خرجت عبس فناشبت فزارة الحرب ، ثم أرسلت عبس الإبل وصيَّحت بها من خلفها . فخرجت الإبل لشدة العطش وقد تذكرت مشاربها ، لا يردُّها شيء . ففرقت جمع فزارة وكشفتهم وهدَّت جيشهم ، واتبعت عبس الإبل ، فكانت الهزيمة على فزارة^(٤) .

وحكى أن عبساً لما علمت يوم الهبأة^(٥) أن الجيش قد سار إليهم ، وأنه لا قوة بهم عليه ، أتوا الربيع بن زياد العبسي^(٦) فقالوا له : إنك تقول إنه لم يرد عليك أمر إلاَّ عرفت المخرج منه ، فما المخرج من جيش بني بدر ؟ قال الربيع : إذا شارفكم القوم فقدّموا الحُرْم^(٧) وانكشفوا عن النعم^(٨) ، فإذا شغلهم

(١) حرب داحس والغبراء : من أيام العرب المشهورة في الجاهلية ، قامت بين قبيلتي عبس وذبيان . وكانت الحرب سجّالا بينهما ، انتهت بصلح بين الطرفين . وداحس والغبراء : اسمان فرسين لقيس بن زهير سيد عبس قامت الحرب بسببهما .

(٢) الشعب : الطريق الضيق . وقد التجأت عبس إلى شعب جبلة ، ولهذا عرفت هذه الواقعة يوم جبلة .

(٣) نذرت : علمت .

(٤) راجع تفصيلات هذه الحرب بين عبس وفزارة في « أيام العرب في الجاهلية » ص ٣٤٩ - ٣٦٤ .

(٥) اشتملت حرب داحس والغبراء على عدة أيام مشهورة ، منها يوم الهبأة .

(٦) الربيع بن زياد العبسي : أحد دهاة العرب وشجعانهم في الجاهلية ، من رؤساء عبس ، وقد اشترك في حروب داحس والغبراء ، وكان يسمى « الكامل » لرجاحة عقله . اتصل بالنعمان بن المنذر في الحيرة ونادمه . توفي سنة ٣٠ قبل الهجرة

(٧) الحرم : النساء .

(٨) النعم : واحد الأنعام وهي المال الراعية وأكثر ما يطلق هذا على الإبل .

النهب ، فكَرُّوا عليهم . ففعلت عبس ذلك . فتشاغلت بنو فزارة بالنهب ،
وكرَّت بنو عبس عليهم فهزمتهم ، ومضوا متفرقين . فلحققت بنو عبس
بنى بدر بماء يقال له الهباءة ، فقتلت « حذيفة وحمل » ابني بدر .
وفيه قيل^(١) :

تَعَلَّمَ أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ مَيِّتٌ . عَلَى جَفَرِ الْهَبَاءَةِ لَا يَرِيمُ
وَحُكِّيَ أَنَّ طَاهِرَ بْنَ الْحُسَيْنِ^(٢) لَمَّا قَرِبَ جَائِيًا مِنْ خِرَاسَانَ لِمُحَارَبَةِ عَلِيٍّ
ابْنِ عِيْسَى بْنِ مَاهَانَ^(٣) ، وَطَاهِرٌ مِنْ قِبَلِ الْمَأْمُونِ وَعَلِيٌّ مِنْ قِبَلِ مُحَمَّدِ الْأَمِينِ .
حَبَسَ طَاهِرٌ جَمَالًا مُقْبِلَةً مِنْ خِرَاسَانَ عَلَيْهَا التَّجَارَاتُ ، فَلَمَّا شَارَفَ طَاهِرٌ عَلِيًّا ،
جَعَلَ الْجَمَالَ وَسَوَادَ عَسْكَرِهِ عَلَى الرُّوَابِي وَأَعْطَاهُم الْأَعْلَامَ ، وَدَلَفَ إِلَى عَلِيٍّ
بِأَصْحَابِهِ . فَلَمَّا نَظَرَ عَلِيٌّ إِلَى تِلْكَ الْجَمَالِ وَالْأَعْلَامِ ، ظَنَّ أَنَّهَا عَسْكَرٌ مُتَفَوِّقَةٌ عَلَيْهِمْ
فَانْهَزَمَ ، وَقَتَلَ عَلِيٌّ بَنَ عِيْسَى .

(١) كان قائد بنى بدر فى يوم الهباءة حذيفة بن بدر وقد قتل فى ذلك اليوم هو
وأخوه حمل . فرثاه قيس بن زهير سيد عبس بأبيات مطلعها هذا البيت . وقد سقطت
كلمتا « حذيفة وحمل » فى النسخ .

راجع عن حروب داحس والغبراء ويوم الهباءة : (أيام العرب فى الجاهلية
ص ٢٤٦ - ٢٧٧)

(٢) طاهر بن الحسين : من كبار قواد الدولة العباسية وأبوه الحسين من رجال
الرشيد ، كان طاهر مع المأمون عندما ولى الأمين الخلافة ، فأرسله للزحف على
بغداد ومحاربة الأمين ، فهاجمها وقتل الأمين وأخذ البيعة للمأمون . وتولى بعد
ذلك ولاية خراسان ، وخرج فى أواخر أيامه على المأمون . (وفيات الأعيان
٢ : ٢٠١ - ٢٠٦) .

(٣) على بن عيسى بن ماهان ، القائد الذى سيره الأمين لحرب المأمون وانتزاع
ماييده من بلاد فارس ، فما كاد جيشه يصل مدينة الرى حتى قابلته جيوش طاهر =

وَحُكِيَ أَنَّ غَزِيًّا^(١) مِنْ الْعَرَبِ ، أَغْزَاهُ^(٢) سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ بَعْدَ فَتْحِ الْقَادِسِيَّةِ ، فَخَرَجَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعَرَبِ بِنِسَائِهِمْ ، فَلَمَّا رَأَوْا عَدُوَّهُمْ مِنَ الْعَجَمِ خَلَفُوا النِّسَاءَ وَالسَّوَادَ وَدَلَفُوا إِلَى عَدُوَّهُمْ ، فَاشْتَدَّتْ الْحَرْبُ بَيْنَهُمْ . فَلَمَّا رَأَى النِّسَاءُ ذَلِكَ عَقَدْنَ خُرَّهِنَّ عَلَى الْعِيدَانِ وَأَقْبَلْنَ نَحْوَ رِجَالِهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَ الْعَجَمَ مِنْ بَعِيدٍ ، ظَنُّوا أَنَّ جَيْشًا ثَانِيًا قَدْ أَتَى مَدَدًا (لِلْعَرَبِ) فَانْهَزَمَتِ الْعَجَمُ .

وَذُكِرَ أَنَّ جَيْشًا مِنْ قَبْلِ السُّلْطَانِ خَرَجَ إِلَى نَاحِيَةِ طَبْرِسْتَانَ^(٣) ، فَلَمَّا دَنَا الْجَيْشُ مِنْهَا ، عَلِمَ صَاحِبُ النَّاحِيَةِ أَنَّهُ لَا مَنَازِلَ لِلْجَيْشِ إِلَّا فِي غَيْضَةِ بَقَرَبِ جَبَلٍ وَعَرِ . فَأَمَرَ الطَّبْرِيَّ بِشَجَرِ الْغَيْضَةِ فَقُطِعَ وَأُقِيمَ كَمَا كَانَ وَسُنِدَ بِالتُّرَابِ ، وَغُطِّيَ مَوْضِعُ الْقَطْعِ حَتَّى خَفِيَ عَلَى الْجُنْدِ . وَجَاءَ الْعَسْكَرُ فَنَزَلَ الْغَيْضَةَ ، وَاسْتَخْفَى الطَّبْرِيَّ وَأَصْحَابَهُ فِي الْجَبَلِ ، وَشَدَّ الْجُنْدُ دَوَابَهُمْ فِي الشَّجَرِ . فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ صَبَّحَ الطَّبْرِيَّ بِالْجُنْدِ ، فَنفَرَتِ الدَّوَابُّ وَتَسَاقَطَتِ الشَّجَرُ ، فَجَرَّتْهَا الدَّوَابُّ يَقْتُلُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَخَرَجَ الْجُنْدُ فَرَعِينَ لَا يَلْوِي أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَحَدٍ ، وَتَبِعَهُمُ الطَّبْرِيَّ يَقْتُلُ وَيَأْسِرُ .

وَحُكِيَ أَنَّ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ الْأَعَاجِمِ ، وَجَّهَ رَجُلًا مِنْ جِلَّةِ قَوَادِهِ فِي جَيْشٍ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ فُخَّارِبِهِ ، فَأَجْلَاهُ الْفَارِسِيُّ عَنْ أَكْثَرِ بِلَادِهِ حَتَّى فَتَحَ أَنْطَاكِيَّةَ وَمَا جَاوَرَهَا . فَأَوْغَلَ فِي بِلَادِ الرُّومِ وَاحْتَوَى عَلَى مَمْلَكَتِهَا ، فَجَمَعَ مَلِكُ الرُّومِ رُؤَسَاءَهُمْ فَشَاوَرَهُمْ ، فَأَشَارُوا عَلَيْهِ بِأُمُورٍ مُخْتَلِفَةٍ . حَتَّى انْفَرَدَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ

= ابن الحسين فنشبت بينهما معركة ضارية انتهت بقتل علي بن عيسى واندحار جيشه . وكان انكسار جيش علي بن عيسى إيذاناً بزوال حكم الأميين وانتصار المأمون .

(١) الغزى : اسم الجمع للغازى

(٢) أغزاه : حمله على الغزو .

(٣) طبرستان : الأقليم الممتد جنوب بحر قزوين الذى كان يعرف ببحر طبرستان .

أهل المملكة ، ولم يكن من أبناء الملوك . فقال : إن عندى رأياً أشير به . فإن رزق الله الملك الظفر فماى عنده ؟ فقال الملك : سل حاجتك . قال تجعلنى الملك بعدك ؟ قال : نعم . قال : فوثق لى بذلك . قال فوثق له به . قال الرومى للملك : إن الفرس قد طمعت فى ملكنا وبلدنا فلم يبق منهم نجدة إلا وجهوه فى وجوهنا ، وقد ضعفنا عنهم . وقد حملوا ذراريهم إلى الشام والجزيرة . وإنى أرى أن تأذن لى ، فأنتخب من عسكري خمسة آلاف رجل ، ثم أحملهم فى البحر ودوابهم وأموالهم . وأوكل بمضايق الطريق وصعب النقاب^(١) ، رجالاً من أصحابى من أهل البأس والنجدة . فإن خبرى إذا بلغهم فت فى عضدهم ونخب قلوبهم^(٢) . ورجعوا إلى عيالاتهم وأموالهم متقطعين . فلا يمر بالمضايق التى قد وكّلت بها أحد من الفرس إلا قُتل ، ولا يسلم أحد فيضير إلى الشام إلا أتيت عليهم وشردتهم أنت من خلفهم . فأجابه الملك إلى ما رأى وأنفذهم إلى الشام .

فلما بلغ الفرس أن الروم قد خلقتهم فى أهاليهم وأموالهم ، خرج أكثرهم متقطعين لا يلوون على شىء ، ومروا بمضايق الطرق فقتل أكثرهم ، وخرج ملك الروم إلى مَنْ بقى منهم فهزمهم ، فلم يسلم منهم إلا القليل . فتحول الملك بذلك السبب من أهل بيت المملكة إلى قوم ليسو من أهل المملكة ، بل هم من أهل أرمينيا^(٣) . فبقى فيهم إلى هذه الغاية .

وحكى أن الحجاج بن يوسف لما حارب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث

(١) النقاب : جمع نقب وهو الطريق فى الجبل .

(٢) نخب قلوبهم : نزعها من الخوف والهلع .

(٣) كذا فى الأصل والصحيح « أرمينيا » لان أرمينيا قس هو صاحب أرمينيا

وتسميه العرب أرميناك . (راجع معجم البلدان ١ : ٢٠٤) .

ابن قيس^(١). اشتد عليه أمر عبد الرحمن ، فمنعه الحجاج ومنع أصحابه من دخول البصرة . وكان أكثر أصحاب عبد الرحمن من أهل البصرة ، فقال للحجاج كاتب له من الدهاقين^(٢) يُقال له الفرخان : خلّ بين الناس وبين دخولهم البصرة ، وتنحّ لهم عن الطريق ، وابذل الأمان لمن دخل منهم ، ومُرّ أن لا يتعرّض لهم . فإنهم إن دخلوا البصرة إلى عيالاتهم وأوطانهم ، لم يخرج منهم إلى عسكر عبد الرحمن أحد ، لأن القوم قد أشرفوا من حربك على أمر عظيم . فمنهم من يرقّ لأولاده ، ومنهم من يمنعه أمه وأبوه ، ومنهم من يبقى على نفسه وماله .

ففعل الحجاج ما قال له الفرخان وتنحى عن طريق البصرة ، فتتابع الناس إلى البصرة ، فلم يبق في عسكر عبد الرحمن إلا القليل . ثم رجع الحجاج على الطريق ، فقتل كل من وقع في يده ممن يريد عسكر عبد الرحمن ، وأمسك الناس عن الخروج من البصرة ، وزحف الحجاج إلى عبد الرحمن فقتله واستأسر أكثر أصحابه وأئمن فيهم القتل^(٣) .

(١) من القادة الشجعان ، كان قائداً تحت إمرة الحجاج ، سيره على رأس جيش لغزو بلاد الترك ما وراء سجستان . وقد اختلف مع الحجاج فخرج عليه وأعلن خلع الخليفة عبد الملك بن مروان ، ودخل العراق لمحاربة الحجاج . فنشبت بينه وبين جيوش الأمويين معارك عديدة ، انتصر فيها عبد الرحمن أول الأمر . ثم قصده الحجاج بجيش كبير فانتصر عليه ، فتابعت هزائمه حتى اضطر إلى الالتجاء إلى ملك الترك « رتبيل » الذي غدر به فقتله وبعث برأسه إلى الحجاج .

(٢) الدهاقين : جمع دهقان وهو الرئيس عند الفرس القدامى .

(٣) جاء في الطبرى : أن عبد الرحمن هزم أمام جيوش الحجاج في موقعتين ، الأولى في « دير الجماجم » بظاهر الكوفة من جهة الصحراء للسالك إلى البصرة ، والثانية في « مسكن » بالقرب من البصرة . ولعل المؤلف يقصد هنا هزيمة عبد الرحمن بهذه المعركة . إلا أنه يلاحظ أن ابن الأشت لم يقتل فيها إذ هرب إلى كرمان فهراة ملتجئاً إلى ملك الترك الذي اغتاله (الطبرى ٨ : ١٢ — ١٤) .

وحكى أن قتيبة بن مسلم الباهلي^(١)، حارب أهل سمرقند والشاش^(٢)، وقد زحفوا إليه . فبعث إلى الرساتيق فحمل شراباً كثيراً إلى عسكره ، وأظهر أنه يولم على تزويج ابنه في يوم كذا وليمة عظيمة ، وبعث قوماً من قبيله مستأمنة^(٣) إلى أهل سمرقند والشاش فقالوا لهم : إن قتيبة عزم على أن يولم على تزويج ابنه يوم كذا ، وقد باغكم ما حمل إليه من الشراب وأصحاب الملاحى ، وما هياً من الطعام ، فقالوا : قد باغنا ذلك . قالت المستأمنة لهم : فاتهزوا الفرصة في ليلة كذا ببياته^(٤) ، فإنه وأصحابه سيسكرون في هذه الليلة فلا يكون بأكثرهم حراك .

فطمع أهل سمرقند والشاش وهم معسكرون منهم على مرحلة ، في قتيبة وأصحابه . فلما علم أنهم قد طمعوا فيه ، عمل وليمة عظيمة ومنع أصحابه الشراب . حتى إذا أمسى ، خرج في ألف فارس من أصحابه ، فكمنوا في روابى على طريق عدوه للبيات . وجاء القوم لبيات قتيبة فلما مرؤوا به ، خرج عليهم من ظهورهم فقطعهم وقتل أكثرهم . ثم رجع إلى عسكرهم ، فظن أهل العسكر أن قتيبة وأصحابه أصحابهم ، فلم يتحرزوا منهم ، فقتل أكثرهم .

(١) قتيبة بن مسلم بن عمر الباهلي : من قواد العرب الكبار في صدر الإسلام . تولى الرى أيام عبد الملك بن مروان وخراسان أيام الوليد بن عبد الملك ، ومن هناك توغل في بلاد ما وراء النهر وافتتح أكثر مدنها حتى وصل أطراف الصين . وقد وطد الحكم العربى في البلدان التى افتتحها . وعند ما ولى سليمان ابن عبد الملك الخلافة ، وكان يكره قتيبة ، حاول قتيبة الاستقلال بما فى يده من من البلاد ، ولما جاهر بذلك ثار عليه بعض قادة جيشه ، فقتل سنة ٩٦ للهجرة .

(٢) راجع عن حروب قتيبة فى سمرقند والشاش وفتحهما (الطبرى ٨ :

٨٤ — ٩٢ . وفتوح البلدان ٤٠٩ — ٤١١) .

(٣) المستأمن : طالب الأمان .

(٤) البيات : الهجوم على العدو ليلاً

وحكى أن بعض ملوك الجبل^(١) ، علم بعسكر يسير إليه . فأخذ شعيراً
فطبخه بالماء مع قضبان الدفلى ، ثم جففه ، ثم جربه على دابة فلما أكلت الدابة
(منه) نفقت من يومها . فخرج فعسكر بناحية من جبله^(٢) ونثر الشعير والميرة .
فلما ظن أن القوم يسرون إليه ، ترك ما في عسكره من الميرة وتنحى عنه ، وجاء
من كان يطلبه ، فوجدوا ذلك الشعير فأطلقوا عليه دوابهم فنفقت كلها .

(١) الجبل : الاسم الذى كان يطلق فى العهد الإسلامى على المنطقة الغربية من
من بلاد فارس المحاذة للعراق شمال خوزستان ، وتسمى الجبال أيضاً . وكان هذا
هو الإقليم الثانى من أقاليم مملكة فارس التى وضعها أنوشروان (راجع غرر السير
ص ٦٠٩) .

(٢) فى ١ : « من خيله » .

البَابُ السَّابِعُ

فِي كَسْرِ الْجُيُوشِ بِفِرْقَةِ كَلِمَتِهَا

حُكِيَ أَنَّ قُسْطَنْطِينَ مَلِكَ الرُّومِ ، مَلَكَهُمْ حَتَّى كَبُرَتْ سِنُهُ وَسَاءَ خُلُقُهُ ، وَظَهَرَ بِهِ وَضَحٌ^(١) شَانَ وَجْهِهِ . فَأَرَادَتْ الرُّومُ خُلْعَهُ ، وَقَالَتْ : حَسْبُكَ مِنَ الدُّنْيَا فَاعْتَزَلْ مَلِكُنَا ، فَقَدْ شَبَتْ^(٢) وَلَكَ مِنَ الْأَمْوَالِ مَا لَا تَفْقِدُ مَعَهُ شَيْئًا كُنْتَ فِيهِ مِنْ نِعْمَتِكَ ؛ فَشَاوَرِ نَصَحَاءَهُ فِي أَمْرِهِ ، فَقَالُوا لَهُ : لَا طَاقَةَ لَكَ بِقَوْمِكَ وَقَدْ اجْتَمَعَتْ كُلُّهُمْ عَلَى خُلْعِكَ ، وَهُمْ عَلَى غَيْرِ دِينٍ يَفْهَمُونَهُ . هَذَا وَالرُّومُ لَا تَعْرِفُ النَّصْرَانِيَّةَ ، وَهِيَ تَعْبُدُ الْأَوْثَانَ عَلَى جَاهِلِيَّتِهَا ، قَالَ : فَمَا الْحِيلَةُ ؟ قَالُوا لَهُ : تَسْتَأْذِنُ لِتُحْجِجَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، ثُمَّ تَطْلُبُ دِينًا مِنْ أَدْيَانِ الْأَنْبِيَاءِ فَتَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ وَتَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُمْ يَفْتَرِقُونَ (فِرْقَتَيْنِ) فِرْقَةً تَصِيرُ مَعَكَ عَلَى دِينِكَ ، وَأُخْرَى تَشْذُ عَنْكَ ، فَتَقَاتِلُ مِنْ عَصَاكَ بَيْنَ أَطَاعِكَ ، فَإِنَّكَ تَظْهَرُ عَلَيْهِمْ ، لِأَنَّ كُلَّ قَوْمٍ قَاتِلُوا عَلَى دِينٍ فَهُمْ غَالِبُونَ .

قَالَ قُسْطَنْطِينَ لِلرُّومِ : أَنْظِرُونِي أَحْجِجَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ (ثُمَّ أَرْجِعْ فَاعْتَزَلْكُمْ . فَأَنْظَرُوهُ ، وَخَرَجَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ) ، فَدَعَا بِالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَتَنَاضَرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ . فَاخْتَارَ النَّصْرَانِيَّةَ وَتَنَصَّرَ هُوَ وَجَمَاعَةٌ مِمَّنْ مَعَهُ . ثُمَّ رَجَعَ إِلَى بِلَادِ الرُّومِ وَمَعَهُ الرُّهْبَانُ وَالشَّمَامِسَةُ وَالْأَسَاقِفَةُ ، فَدَعَا الرُّومَ إِلَى النَّصْرَانِيَّةِ فَأَجَابَهُ أَكْثَرُهُمْ . فَقَاتَلَ مِنْ عَصَى فَظْفَرِ بِهِمْ ، وَأَحْرَقَ كُتُبَ حِكْمَتِهِمْ وَهَتَكَهَا ،

(١) الْوَضَحُ : الْبَرَصُ .

(٢) فِي ١ : « بَشِينَا » وَهُوَ خَطَأٌ فِي النُّسخِ .

وبنى البَيْع^(١) وحملهم على النصرانية بالسيف^(٢) ، وبني القسطنطينية^(٣) لنفسه وخاصة ، وكانت دار ملكهم رومية . وغلبت النصرانية على الشام^(٤) حتى ظهر الإسلام .

وحُكي أن العرب لمّا غلبت الروم على بعض أرض الشام ، واشتد أمرها على الروم ، أتت الروم ملكها قيصر^(٥) ، وهو عليل قد أشرف على الموت ، فقالت له : قد علمت مالنا بالعرب من طاقة ، وما نحن بعرضه منهم من ذهاب أمرنا ، وعلتك أشد علينا من ذلك فأوصينا . قال قيصر : إن العرب قوم كانوا في بؤس شديد ، يعيشون في الغياي من حَلَب الناقة والشاة ، ويحترشون

(١) البَيْع : مفردُها البَيْعَة وهي المبد للنصاري .

(٢) اعتنق قسطنطين الديانة المسيحية وفرضها على أهل القسطنطينية ومنع مزاوله الديانة الوثنية فيها . (راجع الامبراطورية البيزنطية ص ٩) .

(٣) وضع قسطنطين أسس المدينة التي أنشأها في شبه الجزيرة البارز من أوروبا والذي يكاد يلاقى الشاطئ الأسيوى ، في بقعة يحميها بحر مرمرية ، في سنة ٣٢٤ م وهي السنة التي توج فيها امبراطوراً . وكانت تسمى روما الجديدة . ثم احتفل بإكمالها سنة ٣٣٠ م وجعلها مدينة مسيحية ، بينما بقيت روما حصناً للديانة الوثنية إلى وقت طويل بعد ذلك (المصدر السابق ص ٧ — ٨) .

(٤) لأن بلاد الشام كان يحكمها الرومان قبل الإسلام .

(٥) « قيصر » لقب كل ملك من ملوك الروم والجمع قياصرة . وكان قيصر الروم عند ظهور الإسلام « هرقل » وقد امتد حكمه من سنة ٦٢١ حتى سنة ٦٤١ للميلاد ، وقد استطاع أن يثأر لروما من فارس إذ شنَّ حرباً على الامبراطورية الفارسية وتوغل في قلب فارس حتى وصل المدائن عاصمتها بعد أن كسر الجيوش الفارسية في معركة نينوى . إلا أن ظهور الإسلام واكتساح العرب بلاد الشام وفتحهم مصر ، على عهده ، أضعف من شأن الامبراطورية الرومانية . (الامبراطورية البيزنطية ص ٣٣٤ و ٣٦٠ — ٣٦٢) .

الضُّباب^(١) ، وقد رأوا ما أتم فيه من رفاهية العيش باين الملابس وطيب الطعام وحسن المناكح^(٢) . وقد وعدهم نبيهم أَنَّ لِمَن قَتَلَنَا مِنْهُمْ قُصُورَ الذَّهَبِ وَالْفُضَّةِ وَحَيَاةَ الْأَبَدِ . فَهَمُّ كُلِّكُمْ حَرَصُوا عَلَى الْمَوْتِ وَكَلَبُوا^(٣) لِمَا أَتَمَّ فِيهِ مِنَ النَّعْمِ . وَأَتَمَّ تَحَرُّصُونَ عَلَى الْحَيَاةِ لَطِيبَ مَا تَرْجِعُونَ إِلَيْهِ ، فَهَمُّ يَهْزُمُونَكُمْ . ثُمَّ أَغْمَى عَلَى قَيْصَرَ ، فَظَنَّتْ أَنَّهُ مَاتَ ، فَأَعْوَلَتْ عَلَيْهِ وَبَكَتْ عِنْدَهُ . فَأَفَاقَ ، فَقَالَتْ لَهُ : يَا سَيِّدَهُم ! إِنَّا شَاوَرْنَاكَ فِي أَمْرِ الْعَرَبِ فَزِدْتَنَا مِنْهُمْ رَعْبًا ، قَالَ : صَدَقْتُمْ عَنْهُمْ . قَالُوا : فَمَا الرَّأْيُ ؟ قَالَ : خَلُّوا لَهْمَ عَنْ بَعْضِ بِلَادِكُمْ وَارْفُقُوا بِهِمْ ، وَادْفَعُوهُمْ بِالْحَرْبِ قَلِيلًا حَتَّى يَمُوتَ مِنْهُمْ مَنْ شَاهَدَ نَبِيَهُمْ ، وَيَنَالُوا مِنْ طِيبِ الْعِيشِ (مِثْلُ) مَا نَأْتُمُ ، فَيَكْرَهُونَ الْمَوْتَ مِثْلَ كِرَاهَتِكُمْ . ثُمَّ ضَعُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ حُدًّا وَقَاتَلُوهُمْ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُمْ لَا يَجُوزُونَهُ أَبَدًا . فَفَعَلْتَ الرُّومُ ذَلِكَ وَوَضَعْتَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْعَرَبِ جَبَلَ الدَّرْبِ ، وَقَاتَلَتْ عَلَيْهِ ، فَبَقِيَ الْحَدُّ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ .

وَحُكِيَ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَعَاوِيَةَ لَمَّا التَقِيَا بِصَفِينِ^(٤) فِدَامَتِ الْحَرْبُ بَيْنَهُمَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ظَهَرَ أَصْحَابُ عَلِيٍّ كَرَمَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَلَى أَصْحَابِ مَعَاوِيَةَ ، وَخَافَ مَعَاوِيَةُ عَلَى أَصْحَابِهِ وَنَفْسِهِ ، فَهَمَّ بِالْهَرَبِ . فَدَعَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فَشَاوَرَهُ ، فَقَالَ لَهُ عَمْرُو : تَرْفَعُ الْمَصَاحِفَ عَلَى الرِّمَاحِ وَتَدْعُو أَصْحَابَ عَلِيٍّ إِلَى مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ . قَالَ مَعَاوِيَةُ : وَيَحْكُ يَا عَمْرُو ، مِثْلَ عَلِيٍّ تَرْفَعُ لَهُ الْمَصَاحِفَ وَيُنَاطِرُ فِي الدِّينِ وَالْكِتَابِ ؟ قَالَ لَهُ عَمْرُو : إِنْ أَصْحَابُ عَلِيٍّ يَقَاتِلُونَ مَعَهُ دِيَانَةً ، وَأَصْحَابُكَ يَقَاتِلُونَ

(١) يحترش الضباب : يصطادها ، والضباب جمع ضب .

(٢) المناكح : النساء .

(٣) كلبوا : حرصوا وطمعوا .

(٤) صفين : موقع على شاطئ الفرات قرب مدينة الرقة ، وقعت عندها الحرب الشهيرة بين الإمام علي وجيش معاوية .

معك على الدنيا ، وإنك متى رفعت لأصحاب عليّ المصاحف تخرجوا من قتالك ،
وانشعبت منهم التأويلات في دياتهم ، ولم يزد أصحاب عليّ إلا افتراقاً ،
ولم يزد أصحابك إلا اجتماعاً .

فأمر معاوية بالمصاحف فرفعت على الرماح . ونادى أصحاب معاوية أصحاب
عليّ صلوات الله عليه ، ندعوكم إلى ما في كتاب الله (عز وجل ، فأمسك
أصحاب عليّ عن القتال ، وقالوا لعلّ : لا نقاتل قومًا دعونا إلى كتاب الله)
قال عليّ : وَيُحَكِّم ! إن الجراح والقتل قد كثر فيهم ، وإنما احتجزوا منكم
بهذا ، وليس لهم في كتاب الله حجة . قالوا له : لا نقاتلهم حتى نناظرهم ، وأبوا
عليه القتال .

وكان الأشتر^(١) في وجوه القوم في ثلثمائة رجل من قومه ، يضربون
بالسيوف حتى قربوا من مضرب معاوية ، فقال أصحاب عليّ : ابعث إلى الأشتر
فرّده (حتى ينصرف ومنّ معه) وأمسك العسكر . فبعث إليه عليّ يأمره
بالانصراف فأبى وقال : قد قربت من مضرب معاوية ، فقال أصحاب عليّ لعلّ :
إما أن ترد الأشتر وإلاّ أسلمناك^(٢) وصرنا إلى معاوية ، لأنه قد دعا إلى
كتاب الله . فبعث عليّ الحسن ابنه رضي الله عنه إلى الأشتر فرّده ، وأمسك
العسكران عن الحرب .

(١) الأشتر : هو مالك بن الحارث النخعي ، من شجعان العرب المعدودين
في صدر الإسلام . وقد شهد معركة اليرموك ، كما شهد يوم الجمل ومعركة صفين إلى
جانب الإمام عليّ . وقد ولاه عليّ مصر ، إلا أن النية أدركته قبل وصوله إليها . وقد قال
عنه الإمام عليّ عندما سمع بموته : رحم الله مالكا ، فقد كان لي كما كنت لرسول الله
صلى الله عليه وسلم .

(٢) أسلمه : خذله .

ووقعت المناظرة بين علي وبين معاوية رضى الله عنهما . ثم إن المناظرة لَمَّا وقعت بينهما في حديث طويل ، اتفقوا على أن يبعث علي رضى الله عنه حكماً ، ومعاوية رضى الله عنه حكماً . فحكَّم علي أبا موسى الأشعري^(١) ، وحكَّم معاوية عمرو بن العاص . واجتمع الناس بدومة الجندل^(٢) ، فلما تشاهدوا على ذلك وكتبت به الكتب ، خلا أبو موسى وعمرو يتناظران . فمكثا عدة أيام يقدم عمرو أبا موسى في الصلاة والمدخل والمخرج وجميع الأحوال . حتى جرى الأمر على تقديم أبي موسى على عمرو بن العاص . ثم تناظرا فاتفقا على أن يخلع كل واحد (منهما) صاحبه ، وتعاهدا وتعاقدا على ذلك .

فاجتمع الناس في يوم اتَّعدوا له ليسمعوا من الحكمين ما اتفقا عليه . فلما دنا أبو موسى وعمرو بن العاص من المنبر ، قال لعمرو : اصعد فأخلع معاوية ، قال عمرو : أنت تعلم أنني لم أتقدمك في شيء ، فتقدم أنت فأخلع صاحبك حتى أتلوَّك فأخلع صاحبي ؛ فصعد أبو موسى المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : قد خلعت علياً من هذا الأمر كما خلعت نعلي من رجلي ، وخلع نعلي^(٣) ، ثم نزل . فصعد عمرو بن العاص ، فحمد الله وأثنى

(١) أبو موسى الأشعري : هو عبد الله بن قيس من بني الأشعر من قحطان . صحابي من الشجعان الفاتحين ومن أوائل المسلمين ومن المهاجرين إلى الحبشة . ولده عمرو بن الخطاب البصرة ، وولاه عثمان الكوفة وأقره علي عليها أول أمره . وهو أحد الحكمين اللذين رشحهما علي ومعاوية للاتفاق على حل لانتهاء الحرب بينهما .

(٢) دومة الجندل : قرية فيها حصن تقع عند وادي سرحان قرب جبلى طي (أجأ وسلمى) ويكاد يجمع المؤرخون على أن التحكيم بين علي ومعاوية إنما كان في «أذرح» وليس في دومة الجندل وأذرح قرية تقع في بلاد الشام بالقرب من عمان . (راجع مثلاً : مروج الذهب : ٢ : ٣٢ . وتاريخ ابن الأثير ٣ : ١٤٠) .

(٣) إن منزلة المؤلف العلمية والأدبية تربأ به عن استعمال مثل هذا التعبير . =

عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : إني قد أقررت معاوية في هذا الأمر كما أقررت خاتمي في إصبعي ، وأدخل إصبعه في خاتمه .

فافترق أصحاب عليّ على ثلاث فرق ، ففرقة أقامت على طاعته وهم الشيعة ، وفرقة مالت إلى معاوية ورغبت في الدنيا ، وفرقة شذّت وقالت : لا حكم إلا لله ولو كره المشركون ، ولا تحكيم في أمر الله ، وهم الخوارج . وأول من حكم أبو بلال مرداس بن أدية التيمي^(١) . فتكرهت الخوارج عليّاً ومعاوية رضي الله عنهما جميعاً . وإنما سُمّيت الحرورية لأنهم اعتزلوا عسكر عليّ بالكوفة ونزلوا بقرية يقال لها حروراء .

وحكى أن الطالبي ، المعروف بالكوكبي ، لما طابق ابن حسان صاحب

= ولعله أضيف من قبل أحد النساخين . والمعروف أن الحكمين اتفقا على أن يخلع كل منهما صاحبه وأن يترك الأمر للناس ليقرروا ما يريدون . وعندما تقدما لإعلان القرار ، أقره أبو موسى نخلع عليّاً ومعاوية ، أما ابن العاص فقد خلع عليّاً وثبّت معاوية .

(راجع الطبرى ٦ : ٣٩ - ٤٠ ، وابن الأثير ٣ : ١٤٢ - ١٤٤ و ١٦٨ . ودرج الذهب ٢ : ٣٢ - ٣٣) .

(١) المعروف في المصادر الأخرى أن الخوارج بعد انفصالهم عن جيش الإمام على ولوا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي الذي هباً أتباعه لمحاربة الإمام على في معركة النهروان التي انتصر فيها الإمام علىّ على الخوارج ، وقتل فيها ابن وهب (الطبرى ٦ : ٤٠ - ٥٣) .

إلا أن أول سيف مُسلٍّ من سيوف الخوارج ، هو سيف عروة بن أدية ، وهو أخو أبي بلال المذكور (الطبرى ٦ : ٣١ . والهرمستاني ١ : ١١٧ - ١١٨) .

أما أبو بلال مرداس الذي كان من شيوخ الخوارج . فقد خرج بالأهواز في ولاية عبيد الله بن زياد على البصرة ، حين اشتد ابن زياد على الخوارج وقتل منهم عدداً كبيراً ، من بينهم عروة أخو أبي بلال (الطبرى ٦ : ١٧٥) .

الديلم ، أقبلوا إلى الريّ فأناخا بها وحاصروا أهلها ، وكان عند أهل الريّ امرأة الكوكبي ومعها صبيان له منها . فلما اشتدت الحرب بينهم أياماً ، خرج رجل من أهل الريّ إلى الديلمي بأمان فاستخلاه^(١) ، فلما خلوا ، قال له الرازي : إن الكوكبي قد كاتب أهل المدينة أن يطلقوا له امرأته وولده ويمالئهم عليك ، وأهله وولده يخرجون إليه في هذه الليلة ، نخذ حذرنا . فخاف الديلمي مما قال له الرازي ، وجعل يدور المدينة بنفسه .

وانصرف الرازي إلى قومه فأخبرهم بما قال للديلمي . فأخذوا امرأة تشبه امرأة الكوكبي ومعها صبيان ، فأخرجوا من باب المدينة ، فوقعوا في يد ابن حسان ، فظن أن الرازي نصحه . ووجد مع المرأة كتاباً من أهل الريّ إلى الكوكبي : إنا قد وفيناك بما حالفناك وعاهدناك عليه ، فف لنا بما وعدتنا من الغارة على ابن حسان .

وجاء الرجل الذي نصح لأبن حسان إلى امرأة الكوكبي فقال لها : إن ابن حسان قد كاتب أهل الري على أن يثبوا بزواجك فيجتاحوه^(٢) في هذه الليلة المقبلة ، فاكتبي إليه بخطك كتاباً أعلميه ذلك . قالت : ومن يوصله إليه ؟ قال الرجل : أنا أخرج جاريتك من سور المدينة حتى تمضي إليه . فكتبت المرأة إلى زوجها تعلمه أن فلاناً خبرها بكذا ، وأن القوم على بيّاته . فوصل الكتاب إليه فبات على حذر . فلما وقعت المرأة على ابن حسان قال لها : من أنت ؟ قالت : فلانة امرأة الكوكبي . فخرج نحو الكوكبي ليعاتبه ، فلما شعر به الكوكبي تصايح أصحابه بالسلاح ، ونشبت الحرب بينهم بالليل . وصحّ عند كل واحد منهما ما قيل له . فهرب الكوكبي بالليل ، ومضى ابن حسان أيضاً هارباً لوجهه .

(١) استخلاه : طلب أن يخلو به . (٢) يجتاحه : يهلكه .

الباب الثامن فالتدبير على مفسداً ومُسْتَعَصٍ

حُكِيَ أَنَّ أَبْرُويزَ كَسْرِي، لَمَّا هَزَمَ مَلِكَ الرُّومِ، كَتَبَ إِلَى قَائِدِهِ الَّذِي كَانَ أَذْهَنَ عَلَيْهِ، يَجْزِيهِ خَيْرًا وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْجُنْدِ، وَيُعْدهم الْبِرَّ وَالزِّيَادَةَ فِي أَرْزَاقِهِمْ. فَعَلِمَ الْقَائِدُ أَنَّ الَّذِي فَعَلَ مِنْ تَخْلِيَةِ الطَّرِيقِ لِمَلِكِ الرُّومِ لَمْ يَخَفْ عَلَى أَبْرُويزَ، وَأَنَّ كِتَابَهُ إِلَيْهِ إِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ مِنْهُ لَهُ. فَكَتَبَ عَلَى لِسَانِ كَسْرِي إِلَى الْجُنْدِ بِغَيْرِ مَا كَتَبَ لَهُ كَسْرِي، مِنْ الشَّتْمِ لَهُمْ وَالْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ. وَكَتَبَ إِلَى أَبْرُويزَ عَنْهُمْ كِتَابًا غَلِيظًا. فَأَفْسَدَ قُلُوبَ الْجُنْدِ عَلَى أَبْرُويزَ، وَأَفْسَدَ قَلْبَ أَبْرُويزَ عَلَى الْجُنْدِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ فِي وَجْهِ الرُّومِ:

وَكَانَ أَبْرُويزَ قَدْ تَغَيَّرَ لِرَعِيَّتِهِ وَسَاءَ خَلْقُهُ فَأَبْغَضُوهُ جَمِيعًا. وَكَانَ قَدْ عَتَبَ عَلَى ابْنِهِ شِيْرُوِيَهَ فُحْبَسَ فِي حَصْنِ بَابِلَ مِنَ الْمَدَائِنِ مُسْتَقَرَّ كَسْرِي عَلَى خَمْسَةِ عَشَرَ فَرَسِيخًا. وَكَتَبَ كَسْرِي إِلَى صَاحِبِهِ الَّذِي فِي وَجْهِ الرُّومِ وَإِلَى جَمِيعٍ مِنْ مَعَهُ مِنَ الْجُنْدِ بِالْقَفُولِ حَذَرًا مِنْ مَفَاسِدِهِمْ، وَأَحَبَّ مَشَاهِدَتِهِمْ لِيَصَاحَ قُلُوبُهُمْ وَفَسَادُهُمْ. وَوَجَّهَ فِي مَوْضِعِ هَذَا الْقَائِدِ رَجُلًا مِنْ جِلَّةِ الْفَرَسِ وَوَجَّهَ مَعَهُ أَكْثَرَ الْجُنْدِ. فَخَلَا بَابَهُ مِنْهُمْ إِلَّا الْيَسِيرَ مِنَ الْجُنْدِ. فَقَدَّمَ الْقَائِدُ الْأَوَّلَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْجُنْدِ وَقُلُوبُهُمْ فَاسِدَةٌ، فَمَالُوا إِلَى شِيْرُوِيَهَ بْنِ أَبْرُويزَ، فَأَخْرَجُوهُ مِنْ حَبْسِهِ وَبَايَعُوهُ عَلَى الْفَتْكِ بِأَبِيهِ. ثُمَّ سَارُوا نَحْوَهُ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ قَتْلِ أَبْرُويزَ^(١).

(١) راجع عن مقتل أبرويز: إيران في عهد الساسانيين ص ٤٧٥ - ٤٧٧.

وغير السير ص ٧٢٤ - ٧٢٧.

وكان أبرويز كتب إلى عامله على اليمن في إشخاص رسول الله صلى الله عليه وسلم . فوجه عامله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رُسُلًا وهو بالمدينة . فلما وردوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له : إن ربنا ، يعنون كسرى ، أمرنا بأن ن شخصك إليه . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ربى أعلمنى أن ابن كسرى وثب على أبيه فقتله البارحة ، فارجعوا إلى صاحبكم . فرجعوا إلى صاحب اليمن فأعلموه الخبر . فحفظوا تاريخه ، فأثامهم الخبر بأن شيرويه قتل أباه أبرويز فى تلك الليلة التى ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) .

وحكى أن بقية الحمرة^(٢) لما انهزمت من الجبل مرّت بأرمينية ، ثم انحازت إلى ملك الروم فأكرمهم واصطنعهم ، فغلاظ ذلك على أهل الثغور . وكانت الحمرة الذين وصلوا إلى ملك الروم نحواً من عشرة آلاف رجل أكثرهم فرسان . وكان على الثغور محمد بن يوسف المعروف بأبى سعيد

(١) انظر تفصيل الخبر فى الطبرى ٢ : ٦٥٥ - ٦٥٨ (طبعة - م) .

(٢) الحمرة : هم اتباع بابك الخرمى . وكان بابك قد ظهر فى عهد المأمون فى بلاد فارس ، ودعا إلى إباحة المحرمات وإشاعة الأموال بين أتباعه . واستفحل أمره إذ دخل فى دعوته كثير من أهل الجبال من همدان وأصفهان . واستطاع أن يصمد بوجه جيوش الدولة العباسية طيلة حكم المأمون . حتى إن المأمون عندما أدركته الوفاة أوصى خلفه أخاه المعتصم بالاستمرار فى تجريد الجيوش لمحاربة بابك وأتباعه للقضاء عليه وعلى دعوته . فبذل المعتصم جهده فى ذلك . وقد تم لقائده الأفسين أن ينتصر على بابك ، بعد أن قاوم الدولة قرابة عشرين سنة . فأتى به وبأفراد عائلته إلى سامراء حيث صلب . وقد هرب من نجا من القتل من أتباعه ملتجئاً إلى بلاد الروم .

ذى العامين^(١) . فدرس رجالاً من قبله من أهل الجبل بكتاب على لسان الحمرة إلى أبي سعيد يسألونه الأمان ، على أن يثبوا بملك الروم في وقت الحرب من خلفه . وعرضه لأن يقع في يد ملك الروم . فلما وقع الكتاب في يد ملك الروم ، حذر الحمرة وتنكر لهم ، فحذروه . وكتب إليهم أبو سعيد كتاباً بالأمان ، فوقع الكتاب أيضاً في يد الملك فزاده وحشة منهم ، ولم يبد لهم ما في نفسه ، تخوفاً من أن يحسبوا أنه قد خافهم . ثم طلب عليهم عشرة وتجنّى عليهم فحاربهم فقتلهم أجمعين .

وحكى أن رجالاً من مدينة السلام يُقال له سهل بن سلامة^(٢) خرج في جماعة من غوغاء أهل مدينة السلام ، فأغواهم بأن وسم نفسه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فعظم شأنه . والمأمون بمرور ، فبلغه خبر سهل فدعا ثمانية ابن أشرس^(٣) فقال له : إن رجالاً خرج بمدينة السلام في نحو من خمسمائة

(١) المعروف بالثغري الطائي، من قواد حميد الطوسي في حربه مع بابك الخرمي، وتولى قيادة جيوش المعتصم بعد مصرع حميد، وكانت أول هزيمة لأتباع بابك على يده. سمي الثغري لأنه قضى معظم حياته في العمل في الثغور الإسلامية . توفي في عهد المتوكل وهو وال على أرمينية وأذربيجان ، فولى المتوكل ابنه يوسف ما كان لأبيه من شؤون الحرب . ولأبي تمام والبحري في أبي سعيد الثغري مدائح كثيرة .

(٢) سهل بن سلامة : يقول الطبري في حوادث سنة ٢٠١ للهجرة : « وفي هذه السنة تجردت المظوغة للنكير على الفساق ببغداد . . . ثم قام رجل يقال له سهل ابن سلامة الأنصاري من أهل خراسان يكنى أبا حاتم ، قد دعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعلق مصحفاً في عنقه . . . » الطبري ١٠ : ٢٤١ - ٢٤٣ .

(٣) ثمانية بن أشرس : من كبار المعتزلة وكان فصيحاً بليغاً . كان مقرباً من الرشيد ثم من المأمون الذي تأثر بآرائه في الاعتزال وبلغ من تقدير المأمون له أنه أراد أن يستوزره فاستغفاه . ويسمى أتباعه من المعتزلة « الثمانية » نسبة إليه . راجع : الشهرستاني ١ : ٧٠ - ٧١ .

رجل ، يدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فما ترى ؟ قال ثمامة :
يا أمير المؤمنين هذا خطب جليل ينبغي أن يتلافى . ثم دعاه المأمون بعد مدة ،
فقال : يا ثمامة ، إن الرجل قد صار في ألف . قال : وهذا خطب جليل
(أيضاً) هائل مخوف . ثم دعاه بعد مدة وقال : يا ثمامة إن الرجل في مدينة
السلام قد صار في خمسة آلاف رجل . قال ثمامة : هذا أمر قد ضعف
فلا تحفل به . فقال له المأمون : كيف استعظمت حاله في خمسمائة وفي ألف
وقد استضعفتها في خمسة آلاف ؟ قال ثمامة : لأنني ظننت أن مخرجه ومن معه
لقصد الدين فراغني ، فلما كثر أصحابه علمت أن خمسة آلاف رجل لا يجتمعون
على نصرة الدين في مثل هذه السرعة ، وأن أصحابه غوغاء .

فلما دخل المأمون مدينة السلام أمر بسهل ، وكره أن يقدم عليه بعقوبة
فيفسد قلوب أهل الديانة والرعية . ثم أمر أن يستعمل سهل على صدقات الجبل .
فلما وليها سقطت حالته عند أهل الديانة والعامية . ثم وجّه خلفه لما خرج إلى الجبل
من جاسبه وتبع عمله فأظهر خيائته . وأمر المأمون بتقييد سهل ، وحبسه بالجبل
حتى مات في حبسه .

وحكى أن قتيبة بن مسلم الباهلي ، ولي خراسان وعزل يزيد بن المهلب^(١)

(١) يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي : من القادة الشجعان وقد ولي
خراسان بعد وفاة أبيه ثم عزله الحجاج لأنه خشي طموحه . ولما ولي سليمان
ابن عبد الملك الخلافة ولاء العراق ثم خراسان ، فافتتح جرجان وطبرستان .
وعزله عمر بن عبد العزيز وحبسه . وعندما مات عمر استطاع يزيد أن يهرب
إلى البصرة ويتغلب عليها ويعلن الخروج على يزيد بن عبد الملك . فوجه إليه أخاه
مسلمة بن عبد الملك وإلى العراق ، فنشبت الحرب بينهما وقتل فيها يزيد في سنة ١٠٢ هـ
(راجع وفيات الأعيان ٥ : ٣٢٢ - ٣٥٢) .

عمّا كان في يده . فشخص يزيد بن المهلب إلى الشام ، إلى سليمان بن عبد الملك ، وهو على ملك قومه ، فقال له : كيف خلّفته ؟ فأفسد يزيد بن المهلب قلب سليمان على قتيبة بن مسلم . فكتب سليمان إلى قتيبة كتباً أنكرها ، وارتفعت حال يزيد عند سليمان ، فعلم قتيبة أن يزيد أفسد حاله عند سليمان بن عبد الملك ، فكتب إليه كتباً يتنصل فيها ، فلم يزد عليه سليمان إلا غاظةً . فوجّه قتيبة إلى سليمان رسولاً فطناً لبيباً ، ودفع إليه ثلاثة كتب ، وأمره أن يوصل الأول منها إلى سليمان . وقال : إنك ستدخل عليه ويزيد بن المهلب جالس عن يمينه ، فإذا دفعت إليه كتابي الأول فأقرأه يزيد ، فادفع إليه كتابي الثاني . فإذا دفعته إليه فشتمني وتنقّصني ، فادفع إليه الكتاب الثالث . فإنه إذا قرأه أمر بإكرامك وبرّك وصلتك ، وأجابني على كتبي بما أحب^(١) .

نخرج رسول قتيبة حتى ورد الشام ، فلما أذن له على سليمان ، إذا يزيد ابن المهلب على يمينه . فقال الرسول : ياأمير المؤمنين ، إن معي كتباً أفأوصلها على ما أمرت ؟ قال : فهاتها . فناوله الكتاب الأول وفيه : ياأمير المؤمنين أنا أمسّ بك رحماً ، وأقدم بك حرمةً ، وأوجب عليك حقاً ، فلا تشمت بي يزيد بن المهلب . فلما قرأ الكتاب دفعه إلى يزيد كالهazyء بقتيبة . فدفع رسول قتيبة الكتاب الثاني إلى سليمان ، وفيه : ياأمير المؤمنين يكتب إليك مثلي ، وليّ من أوليائك كتاباً فتتضحك به وتدفعه إلى يزيد بن المهلب الفاسق الكذاب المعروف بكذا ، لا يألو قتيبة ماأفحش على يزيد بن المهلب في كتابه . فقال سليمان : (ومن قتيبة) بن مسلم حتى يجترىء مثل هذا الكتاب ؟ لا يألو

(١) راجع عن المكاتبة هذه بين سليمان بن عبد الملك وقتيبة : الطبري ٨ :

١٠٣ — ١٠٤ . والعقد الفريد ٤ : ٤٢٦ — ٤٢٧ ، ووفيات الأعيان ٥ :

٣٣٨ — ٣٣٩ .

سليمان ما أخش في شتم قتيبة ، ولم يدفع الكتاب الثاني إلى يزيد . فدفع الرسول الكتاب الثالث كما أمره قتيبة بن مسلم ، إلى سليمان بن عبد الملك وفيه : من عبد الله قتيبة أمير المؤمنين إلى سليمان بن عبد الملك ، أما بعد فأتتم أئمة الضلال وبنو طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) ، لم تستحقوا هذا الأمر بسابقة ولا قرابة ، فادخل في السلام أو ائذن بحرب والسلام . فلما قرأ سليمان هذا (الكتاب) وضعه تحت وسادته وقال لحاجبه^(٢) : خذ الرسول إليك فاكرم مثواه وارفع إلينا حوائجه لتقضى . (وكتب سليمان إلى قتيبة يزيد في عمله) ويحسن صلاته . ثم دسَّ سليمان رجالاً فصاروا في عسكر قتيبة فسعوا في الفساد في أصحابه حتى شغبوا على قتيبة بن مسلم فقتلوه^(٣) .

وحكى أن بشر بن داود المهلبى^(٤) كان من شأنه أنه عظم بالسند ،

(١) طريد رسول الله : هو الحكم بن أبي العاص بن أمية ، عم عثمان بن عفان . أسلم يوم فتح مكة ، وقد طرده الرسول من المدينة فزل الطائف ومعه ابنه مروان . ولم يزل الحكم في الطائف إلى أن ولي عثمان الخلافة فأذن له بالعودة إلى المدينة . وكان سبب طرده من المدينة أنه كان يتسمع ما يسره النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه فيفشيهِ إلى المشركين من قريش . كما كان يقلد النبي صلى الله عليه وسلم في مشيته وبعض حركاته بشكل ينطوى على التهمك .

(٢) في ١ : « لجليسه » .

(٣) راجع عن مقتل قتيبة : الطبرى ٨ : ١٠٦ — ١٠٧ . وفتوح البلدان ص ٤١٢ — ٤١٤ .

(٤) بشر بن داود المهلبى : والى السند على عهد المأمون ، عصى عليه ولم يرسل إليه خراجها ، وكان اتفق معه على أن يحمل إليه كل سنة ألف ألف درهم .

فوجه المأمون إليه غسان بن عباد^(١) في اثني عشر ألف رجل من الجند ، وأمره إذا قرب منه أن يهول عليه ويكاتبه ، ويعرض عليه الأمان . فإن أذعن له أعطاه أماناً بخط أمير المؤمنين ، وإن أبى ولّاه السند وخلع عليه وضمّنه خراجها وانصرف . فشخص غسان بن عباد حتى إذا قرب السند ، كاتب رؤساء السند يعلم كل واحد منهم أن ولاية السند له إن انصرف عنها بشر ، ويأمرهم بالتنكر لبشر وإظهار معاندته . فلما أجابوه إلى ما أراد ، كتب إلى بشر : أما بعد ، فقد جرى أسلافك وجريت بعدم في الطاعة إلى غاية وجبت بها حقوقكم ، وشهر بها صفاء نيتكم ، وفضلت بها منزلتكم . ولم يعرف من الخطأ الأنبياء المنتخبون ولا الأصفياء المقربون ، بل وصفهم جل ثناؤه في كتابه وأخبر عن محبته إياهم ، فقال : ﴿ إِنْ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾^(٢) وقد وجهني أمير المؤمنين في جيوش لا يرى طرفها كثرة ، وأمرني بعرض الأمان عليك لنفسك ومن اتصل بك من أهلك وحاشيتك على أنفسهم ، وجميع ما حوته أيديكم ، وكتب بذلك كتاباً بخطه . فإن قبضته أصبت رشداً وربئت^(٣) ماضى عليه أوائلك . وإلا فتعرف نواصي الخيل سائلة عنك ومحيطة بعقوبتك ، واطئة عقر حريمك . وأية حال عند ذلك حالك إلا حال العاض على أنامله غيظاً والقارع لسننه ندماً ؟ . وكأني بك وقد واثبك الموتور وصاف^(٤) عنك

(١) غسان بن عباد : من رجال المأمون وهو ابن عم الفضل بن سهل . وقد ولّاه الحسن بن سهل خراسان . ثم ولّاه المأمون السند بعد بشر بن داود المهلبى ، فأقام هناك مدة أصلح خلالها شؤونها .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٢٢ .

(٣) ربئت : حفظت وأصلحت .

(٤) صاف : مال . وفي ١ : « ضاق بك المقهور » ولعل الصحيح أنها « وحاف

عليك المقهور » أى جار وتعدى .

المقهور ، وسمت بك المكاشح^(١) وأسلمك الناصح ، وأنا أعيدك بالله من الحال التي أصبحت بعرضها إن لم تنتهز الفرصة وتتوق العثرة .

فلما وصل الكتاب إلى بشر توقف عن الإجابة ، فتنكر له الرؤساء من أهل عمله ، وباعه عنهم مالا يحبه . وجعل أصحابه يحبون الرجوع إلى أوطانهم بالعراق . فاضطربت عليه أموره ، فقبل الأمان ورجع فمات بمدينة السلام .

وحكى أن نجاح بن سلمة^(٢) ، قد كان وعد أمير المؤمنين المتوكل على الله أن يظهر حيانات الكتاب ، وضمن له بذلك مالا جليلا . وكان فيمن ضمنه نجاح أحمد بن الخطيب كاتب المنتصر بالله^(٣) ، وأبو نوح كاتب الفتح ، وموسى ابن عبد الملك صاحب ديوان الخراج ، والحسن بن مخلد صاحب ديوان الضياع^(٤) . وكتب رقعة بخطه يتضمنهم للمتوكل على الله وهم على شرايهم . وانصرف نجاح على أن يبكر فيسلم القوم إليه يستخرجهم ويكشفهم . فشق ذلك على الفتح^(٥) وعلى عبید الله بن يحيى^(٦) ، فأعملا الحيلة .

(١) المكاشح : العدو الباطن العداوة .

(٢) كان نجاح بن سلمة صاحب ديوان التوقيع للمتوكل على الله ، أى الذى يتولى ختم الرسائل وتسجيلها . وكان من واجباته كذلك تتبع أعمال الموظفين والعمال .

(٣) المنتصر بالله : محمد بن جعفر المتوكل على الله وولى عهده ، وقد اشترك في دؤامة اغتيال أبيه ، وبويع له بالخلافة بعده ، إلا أنه لم تطل مدته بها .

(٤) ديوان الضياع : الديوان الذى يتولى إدارة ضياع الخليفة أى المزارع وقراها (التمدن الإسلامى ٢ : ١٢٤ — ١٢٥) .

(٥) هو الفتح بن خاقان بن أحمد ، أديب وشاعر فصيح . فارسي الأصل اعتمد عليه المتوكل على الله واستوزره وقتل معه . كان يشجع الأدباء والكتاب على التأليف حتى اجتمعت له مكتبة حافلة .

(٦) عبید الله بن يحيى بن خاقان ، انتخبه المتوكل لوزارته ، وبقي في منصبه حتى قتل المتوكل . وقد عرف بالحزم وأصالة الرأى .

فلما حضر نجاح من الغد دار السلطان ، خلا به عبيد الله فقال : إنك تقلدت أمراً عظيماً استفسدت به المنتصر بالله وهو ولي العهد الأكبر ، والفتح وهو أغلب الناس على أمير المؤمنين ، وإن هما كاداك لم تكن لك بهما طاقة ، فقال نجاح : فما أصنع وقد رهنت لساني عند أمير المؤمنين ؟ قال عبيد الله : فاكتب إليه رقعة تخبر فيها بأنك ضمنت هؤلاء القوم على النبيذ تهويلاً عليهم ، ليكفوا عن الخيانة ويعلموا أن لهم من يكشفهم . وتعتذر إلى أمير المؤمنين وتسأله إقالتك مما دخلت فيه . وأنا أتولى إيصال الرقعة وأقوم بعذرِكَ . نخدعه حتى كتب رقعةً بخطه بذلك .

ثم أمر الفتح صاحب الدار أن يحجب نجاحاً قدر ساعة ، فجاء نجاح ليدخل فحُجِبَ . ودخل عبيد الله مع الفتح فقالا له توكل : إن نجاحاً قد رجع عن جميع ما ضمن لك ، وهذه رقعته (بخطه) يعتذر مما ضمن ، ويسأل الإقالة ، ويخبر أن ذلك كان منه على نبيذ . فلما قرأ المتوكل الرقعة اشتد على نجاح غضباً ، ودعا بموسى بن عبد الملك والحسن بن محمد ، فضمننا نجاحاً بمال جليل ، فدفع نجاح إلى موسى فقتله^(١) .

وحكى أن أبا الحسن على بن هشام . لما ولّاه المأمون أذربيجان ، شخص إليها على وشخص المأمون إلى بلاد الروم ، دبَّ^(٢) أبو إسحاق المعتصم بالله عند المأمون . وكان قد غلب عليه في إفساد حال أبي الحسن على بن هشام ، لما تخوَّف من ميل أبي الحسن على بن هشام إلى العباس^(٣) . فكتب المأمون إلى

(١) راجع مفصل القصة في محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ٣: ٢٨٧—٢٨٨ .

وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على فساد موظفي الخليفة وحاشيته ووقيعتهم بعضهم ببعض ، وعلى انتشار الرشوة والخيانة بين العمال والموظفين . (٢) دب : نم .

(٣) العباس بن المأمون ، وكان والياً لأبيه على الجزيرة والثغور .

على كتباً غليظة أنكرها على فتنكر للسلطان ، دالةً عليه^(١) بموضعه منه . فلم تزل الغلظة تنمو بينهما حتى فشّت في الناس ولم يمكن المأمون عزل على بن هشام لأنه كان في بلاد الروم ، وعلى في ناحية بابل ، فلم يأمنه إن بادده^(٢) بالعزل . وبلغه أن عليّاً قد أفسد قلوب أصحابه وأهل عسكره بقطع أرزاقهم والسفه عليهم والكبر . فوجه المأمون عجيفاً ، وأمره أن يصير إلى على كالمعاتب له المستصلح لقلبه ، وأن يدبّ بالفساد عليه في عسكره ، وجعل عطاء الجند وعرضهم إلى عجيف .

(فدخل عجيف) عسكر على ، فأظهر لعل غاية التعظيم واستعته لأمر المؤمنين ، فاعتذر على وقال لعجيف : أحسب الذي جئت له غير هذا ، فاحذر على نفسك ، فإنني إن لدغتك بالمراغة^(٣) لدغةً أبطأت رقيتك من بلاد الروم^(٤) . فتذلل عجيف لعل وتلقّى قوله بالتواضع حتى سكن . ثم دبّ في أصحابه بالفساد ، حتى إذا أحكم عليهم الأيمان بالطاعة مع العطاء ، وعلم سوء نياتهم لعل ، وأعدّ رؤسائهم للفرصة ، فخرج على إلى بعض متنزهااته ، وجمع^(٥) عجيف الجند فقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين بعزل على . فقبول بالسمع والطاعة لعجيف . فبلغ الخبر عليّاً فرجع مبادراً . فوثب الجند عليه وعلى أخيه الحسين بن هشام فدفعوها إلى عجيف ، فأوثقهما بالحديد وحماهما إلى المأمون ، فقتلها بإذنه .

(١) دالة عليه : جرأة عليه بسبب وجاهته عنده .

(٢) بادده : بادره .

(٣) مراغة : بلدة كانت من أشهر وأكبر مدن أذربيجان .

(٤) يعني أنه إذا ما أراد به سوءاً ، فإن نجدة المأمون له ، وهو في بلاد الروم ، تبطىء في الوصول إليه لبعده المسافة .

(٥) هكذا في الأصل ، والواو زائدة .

البَابُ الْتَّاسِعُ

فِي تَسْكِينِ شَغَبٍ وَاصْلَاحِ نَفَارِ أَوْذَانِ بَيْنِ

حُكَيَّ أَنَّ أَبَا جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ ، لَمَّا أَعَدَّ مَا أَرَادَ بِاتِّخَاذِ مَدِينَتِهِ بَيْغَدَادَ (وَنَزَلَهَا) فَرَّقَ جُنْدَهُ مِنْ أَهْلِ خِرَاسَانَ فِي الْكُورِ^(١) وَالثَّغُورِ^(٢) إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُمْ . وَخَلَّفَ عَلَى بَابِهِ مِنْ قِبَائِلِ الْعَرَبِ . فَلَمَّا قَلَّ أَهْلُ خِرَاسَانَ بِبَابِهِ وَكَثُرَتْ الْعَرَبُ ، شَغَبَتْ عَلَى الْمَنْصُورِ وَطَلَبَتْ مِنَ الْأَرْزَاقِ مَا يُسْتَكْثَرُ لَهَا . وَاجْتَمَعَتْ كَلِمَتُهَا مِنْ نَزَارِ الْيَمِينِ عَلَى الْوُثُوبِ بِالْمَنْصُورِ ، وَاجْتَمَعَتْ بِبَابِهِ الْمَعْرُوفِ بِبَابِ الذَّهَبِ ، وَهِيَ مَتْنَكْرَةٌ مَتَذَمَّرَةٌ . وَقَدْ جَلَسَتْ نَزَارُ عَنْ يَمِينِ الْبَابِ وَالْيَمِينِ عَنْ يَسَارِهِ . فَأَتَى مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ^(٣) بَابَ الْمَنْصُورِ فَدَخَلَ عَلَيْهِ . وَكَانَ شَيْخًا جَلِيلًا مَعْرُوفًا بِجُودَةِ الرَّأْيِ ، وَقَدْ عَلِمَ^(٤) مَا يَفِيضُ فِيهِ الْجَنْدُ مِنَ الْعَرَبِ مِنْ تَوَعُّدِ الْمَنْصُورِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنِّي رَأَيْتُ جُنْدَكَ مِنَ الْعَرَبِ مَتْنَكِرِينَ لَكَ ، وَسَمِعْتُ مِنْهُمْ مَا لَا أَحِبُّهُ . فَقَالَ الْمَنْصُورُ : وَمَا عِنْدِي فِي ذَلِكَ إِلَّا مَدَارَاتِهِمْ حَتَّى تَوَافِينَا خِيَانًا مِنْ نَنَاهَضِهِمْ . فَقَالَ الْعَبَّاسِيُّ : لَا وَجْهَ لِقِتَالِ جُنْدِكَ ، لِأَنَّكَ إِنْ ظَفَرْتَ بِهِمْ أَفْسَدْتَ عُدَّتَكَ وَفَتَتْ فِي عَضْدِكَ ، وَإِنْ ظَفَرُوا بِكَ فَهُوَ الْبُورُ الَّذِي لَا إِقَالَةَ مِنْهُ . فَقَالَ الْمَنْصُورُ : فَمَا الْحِيلَةُ

(١) الْكُورُ : جَمْعُ كُورَةٍ وَهِيَ مَجْمَعُ الْقُرَى .

(٢) الثَّغُورُ : الْمَدَنُ وَالْحَصُونُ الَّتِي عَلَى حُدُودِ الْأَعْدَاءِ .

(٣) فِي الْكَامِلِ لِابْنِ الْأَثِيرِ ٥ : ٢٤٣ : أَنَّ الَّذِي دَخَلَ عَلَى الْمَنْصُورِ هُوَ قَتْمُ

ابْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ مُحَمَّدٍ الْمَذْكُورِ .

(٤) فِي ب : « سَمِعَ » .

فيهم ؟ قال العباسي : عندي فيهم حيلة ورأى لا يجوز أن أخبر به حتى أمضيه .
قال المنصور : وما هو ؟ قال : إن خبرتك به فسد . قال المنصور : فشأنك .

فخرج العباسي إلى دهليز المنصور ، فدعا رجلاً من مواليه فقال له : إذا
ركبت فسرت بين صفى العرب فقل لي بصوت يُسمع ، (يا سيدى) أى
القبيلتين أشرف ، نزار أم اليمين ؟ فإن زبرتك^(١) وزجرتك ، فأعد على القول
واستحلفنى بحق الله عز وجل وبحق رسوله صلى الله عليه وسلم . فلما ركب
العباسي دابته ومشى ومعه مولاه (سأله عمّا أمره به فزجره ، فاستحلفه مولاه)
وهما بين صفى نزار واليمين ، فاشترأبت أنفس العرب من الفريقين لما يقول
الشيخ . فقال : وَمَنْ اليمين ، بنو كذا وكذا ، لا يقصّر عن الإفحاش ، نزار
سادة الناس . فأمرت اليمين شاباً منها أن يقوم إلى الشيخ يعنفه وينكّسه عن
دابته . وسمعت نزار يقول الشيخ . قال : فوثب بعضهم على اليمين فضربه
بالسيف فحلى عن العباسي ، فرجع مسرعاً إلى دهليز المنصور . وتهايج الحَيَّان
من نزار واليمين بالسيوف^(٢) .

(١) زبر السائل : نهره .

(٢) كانت الخلافات القبلية من أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط الدولة الأموية ،
وكانت القبائل قد كونت جبهتين منذ عهد معاوية ، الأولى وتمثلها القبائل العدنانية
أو القيسية ، والثانية وتمثلها القبائل الليمانية أو القحطانية . وكانت هذه الخلافات
تشتد وتضعف حسب سياسة الخلفاء تجاه القبائل المذكورة . فاذا ما قرّب أحدهم
القيسين ، علا شأن هذه القبائل وضعف شأن القبائل الليمانية ، وبالعكس إذا انتصر
الخليفة لليمانين ، فان ذلك يؤدي إلى إضعاف القبائل القيسية . ولم يقتصر أثر هذه
الخلافات القبلية على بلاد الشام وحدها ، بل انتقل إلى الأقطار الأخرى ، فظهر
بوضوح في العراق وفارس وما وراء النهر ، وكان له أثر عميق في إضعاف الدولة
الأموية وسقوطها . ومع تلك النتائج السيئة لهذه الخلافات ، فإنها استمرت مدة
طويلة في العهد العباسي حتى أضعفت في النتيجة كلمة العرب في الدولة العباسية .

ودخل العباسى على أمير المؤمنين المنصور فقال : قد كفيتك القوم وأغریت بينهم ، فكل فرقة منهم محتاجة إلى حسن رأيك لئلا تميل مع الفرقة الأخرى عليها ، فلا يكون لهم بك وبعدهم طاقة . والرأى أن تبني داراً في شرقى دجلة وتحوّل ابنك المهدي إليها ، وتُصَيّر جنك من أهل خراسان معه . فيكون (هو) ومن معه مسرعاً لك^(١) وأخرج إلى القوم وانهم عن الحرب . ففعل المنصور ذلك ، وبني الرصافة^(٢) .

وحكى أن مُصعب بن الزبير^(٣) ، لما قدم البصرة لحرب عبد الملك ابن مروان ندب الناس للقتال معه . وكان فيمن ساعده الأحنف بن قيس ، فأخرج مضربه فضربه في عسكر مصعب ، فخرجت معه بنو تميم . فجاءت زبراء جارية الأحنف وكانت إحدى الدهاة ، فبكت بين يديه ، وكانت حظيةً عنده . فقال : مايبكيك ؟ قالت : يقول الناس إن الأحنف قد ارتكس^(٤) في الفتنة ، وخرج في الطمع لشيء يأخذه . فقال لها : فإني راجع . فبعث فردّ مضربه . فبلغ مصعباً فغمه ذلك وقال : من أين أتيت في الأحنف ؟ قيل له : جاريته زبراء ردّته . فبعث إليها بعشرة آلاف درهم ، فضمنت له ردّ

(١) في ب « مفرغاً لك » .

(٢) راجع عن بناء الرصافة : الكامل لابن الأثير ٥ : ٢٤٣ .

(٣) مصعب بن الزبير : هو أخو عبد الله بن الزبير وعضده القوى في تثبيت ملكه . ولأه أخوه البصرة فأخضعها وقتل المختار الثقفي وجمع إليه ولاية الكوفة : ولما استفحل أمره في العراق وأصبح خطراً رئيسياً يهدد الدولة الأموية في الشام ، سّير إليه عبد الملك بن مروان الجيوش فدحرها مصعب ، فخرج إليه عبد الملك بنفسه على رأس جيش كبير . وحاول أن يستميله إليه فأبى وحارب حتى قتل ، فدخل عبد الملك الكوفة . وبمقتل مصعب ثبت حكم الأمويين في العراق .

(٤) ارتكس : وقع وانتكس .

الأحنف . فأتته تبكى ، فقال : مايكيك ؟ قالت : عيرتنى النساء وقلن : كبر مولاك (وجبن) ولا قوة به على الحرب ، ولا علم له بها . فحمى من قولها فردّ مضربه . فقيل : هاجت زبراء^(١) . وكانت إحدى سقطات الأحنف .

وحكى أنه لما ولي محمد بن موسى العباسي^(٢) اليمامة والبحرين وطريق مكة ، نزل بجنده في ظهر البصرة . وفرّق الخيل في جباية الصدقات وبذرة السابلة^(٣) إلا أقل خيله . وبقى على باب ألف رجل من غوغاء بغداد ، ومن الأنبار رجالة معهم رماح طوال وتراس حصينة . فشغبوا وطمعوا في الغارة عليه وعلى من بقى معه من جنده . فلما انتهى إليه ما يفيضون فيه ، وعلم أن لاطاقة له بهم ، أمر محمد بن موسى بعض ثقاته ، فأخرج من البصرة باعةً معهم الأطعمة وغيرها . وأسلفهم مالا وأمرهم أن لا يعطوا من جاءهم من الرجالة ما يريدون ، إلا برهن سنان أو سيف أو ترس ، وأن يرخصوا عليهم السعر ، ويحملوا ما يرهنون (من أسلحتهم) يوماً يوماً إلى البصرة . فأقبل الرجالة على أولئك الباعة للإمكان^(٤) ورخص السعر ، يرهنون أسلحتهم وهم لاهون في أكلهم وسكرهم . حتى ارتهن جميع أسلحتهم إلا اليسير منها . فلما استنظف السلاح^(٥)

(١) كانت زبراء جارية الأحنف سايطة اللسان ، وكانت إذا غضبت ، قال الأحنف : قد هاجت زبراء . فذهبت مثلاً في الناس حتى ليقال لكل إنسان إذا هاج غضبه : قد هاج زبراؤه ، والأزبر الأسود الضخم ، واللبؤة زبراء ، (مجمع الأمثال ٣ : ٣٨٤) .

(٢) محمد بن موسى العباسي بن يعقوب بن المأمون بن هارون الرشيد ، من علماء بني العباس في الحديث وكان ثقة . ولد بمكة وتوفي في مصر سنة ٣٤٢ هـ .

(٣) بذرة السابلة : خفارتها وحراستها .

(٤) الإمكان : السهولة واليسر .

(٥) استنظف السلاح من أيديهم : أخذه من أيديهم .

من أيديهم ، تنحى البساعة عنهم ، فانتبهوا من سكرتهم ولا سلاح معهم ،
وققدوا ما كانوا يجدون . فهاجوا في الشغب طمعاً في النهب . فخرج إليهم من
بقي معه من جنده في غاية من العُدَّة والعتاد والسلاح ، ولا سلاح مع الرجال
إلا الحجارة فشردهم كل مُشَرَّد .

وحكى أن معاوية بن أبي سفيان ، لما ولي زياد المدعى إلى أبي سفيان
العراق وفارس والأهواز ، ساس زياد أهل عمله أشدَّ سياسة . وكان أحد الدهاة .
فلما عظم شأنه واستوثقت أموره تنكَّر لمعاوية . فكتب إليه معاوية كتباً
غليظة . فبعث إليه زياد : تكتب إليّ بمثل هذه الكتب وخلفي مال فارس
والأهواز ، ومعى رجال العراق وعجم الدهاقين . فدعا معاوية جماعة فشاورهم ،
فكلهم يشير عليه بعزله ومناهضته .

ثم بعث معاوية إلى المغيرة بن شعبة ، فشاوره ، فقال له المغيرة : شاورت
الناس حتى إذا لم يبق أحد بعثت إليّ . قال معاوية : إني لم أؤخرك لتقصيرك
ولكنني أردت أن آخذ آراء الناس ، ثم اجعل لرأيك عياراً عليها^(١) . إن زياداً
قد تنكر لنا ، وبعث إليّ يذكر أن خلفه مال فارس والأهواز ورجال العراق
والعجم ، فما ترى ؟ قال المغيرة : إني أرى أن ترفق بزياد ، فقد علمت دهاءه
وسياسته ، وفي قلوب أهل العراق منك ماعلمت ، وأكثرم يتمنى عليك الكبوة .
قال معاوية : لمثلي يُقال هذا ، وقد حاربت عليّاً مع فضله وسابقته وقرابته
فظفرت بما أردت ؟ قال المغيرة : فإذا غلبت من هو أفضل منك فتأمن أن يغلبك
من أنت أفضل منه ؟ فأطرق معاوية طويلاً . قال المغيرة : فعلمت أن معاوية قد
عرف الفضل فيما أشرت به عليه ، ثم قال لي : إن صلح هذا الأمر بأحدٍ فبك .

(١) يجعل لرأيه عياراً على آراء الآخرين : يفضل رأيه ويرجحه على آرائهم

قلت له : مُر بأمرك يا أمير المؤمنين . قال : تمضي حتى تصير إلى زياد بالبصرة فتشاهده وتنفض في عقله^(١) ، وتنظر من أين غرته^(٢) ، وتغمزه من حيث يلين عليك وتأتية من جهته ، وتتأمل كيف تؤمل صرعه^(٣) ، فإن لكل امرئ وإن كمل عقله واشتدت فطنته ، عيباً منه يُتسلق على غلبته ، وبه يُطمع في خديعته ، وتجتهد في أن تخرجه من البصرة . وقل عني ماشئت وعجّل عليّ بخبرك وخبره يوماً فيوماً لأكون منه على علم .

قال المغيرة : فمضيت حتى دخلت البصرة في الليل . فأتيت المسجد في السحر ، فلم أعلم حتى أصابت المقصورة وجهي ولم أعرفها قبل ذلك ، فقلت : هذه إحدى سياسات زياد وحزمه . فجلست حتى خرج فصلّي الغداة ، ثم سلمت عليه فأكرم وتحنّى^(٤) ، ثم دخل منزله ودخلت معه ، فقال : ما أقدمك يا مغيرة ؟ قلت : إن أمير المؤمنين وجهني إليك مطالعاً (لك) ومتعرفاً خبرك في نفسك وعملك^(٥) . قال : كأني وقد شاور الناس فأشاروا عليه بعزلي ، ثم شاورك فأشرت عليه بغير ذلك ، فقال : قاتلت عليّاً رضى الله عنه مع فضله وسابقته فغلبته ، فقلت له : أفيأمن معاوية أن يغابه مَنْ هودونه كما غلب هو مَنْ فوقه ، فرأيت رجلاً لا مطمع فيه ولا في خديعته إلا من جهة ما قد دخله من الكبر وما يجب من بُعد الذكر . فقلت له : ذهبت في غير مذهب ، (إن) أمير المؤمنين ليس لك على ما ظننت ، ولا لهذا أو غيره مما تكره وجهني ، ولكنه أرساني

(١) ينفض في عقله : يلقي فيه ويلهجه .

(٢) الغرة : الغفلة .

(٣) الصرعة : المرة من صرع ، وصرعه غلبه .

(٤) تحنّى : بالغ في الإكرام .

(٥) في ١ : « وعملك » .

لما تحب ، وستعلم هذا بما يرد عليك من كتبه . قال : فأين الكتب ؟ قلت :
تأتيك بما يزيل عنك الشك .

ثم انصرفت فكتبت بما شاهدت إلى معاوية ، وأعلمته أن الرأي له أن
يزوج عبيد الله بن زياد إحدى بنات معاوية ، وأن يزوج يزيد إحدى بنات زياد .
فكتب معاوية بما أردت . ثم أوصلت الكتب إلى زياد فقرأها (وسرَّ بها)
وأظهرها لأصحابه ، وقال : هذا أمر صدر الرأي فيه عنك ؟ قلت : لم تغب عما
حضرت من شأنك . وقلت له : لو شخصت إلى الكوفة فعقدت بها (هذا)
العقد (الذي) يقرب منك يزيد بن أمير المؤمنين ، كان أحسن وأولى . فخرج
يريد الكوفة ، وكأنه اتهمني وخانتني ، فقال لي : تخلف بالبصرة في موضعي
إلى حين رجوعي إليك . فوجدت الفرصة فتخلفت ، وأصلحت قلوب أهل
البصرة لمعاوية ، وأردت الوثوب على زياد من خلفه فسبقت به المنية^(١) .

قال : وخرج أبو سفيان^(٢) في جماعة من قريش وثقيف يريدون بلاد

(١) توفي المغيرة قبل زياد ، وكان المغيرة والياً على الكوفة ، فضم معاوية
الكوفة إلى زياد ، فكان أول من جمع له ولاية العراقين : البصرة والكوفة . وقد
توهم المؤلف بقوله هذا . (راجع مروج الذهب ٢ : ٦٨) .

(٢) أبو سفيان : هو صخر بن حرب بن أمية ، من سادات قريش وقوادهم
في الجاهلية ، وكان من رؤساء المشركين عند ظهور الإسلام ، وقد قاد جيوشهم في
معركة أحد وفي غزوة الخندق . إلا أنه أسلم يوم فتح مكة ، ودعا أهلها إلى الدخول
في الإسلام . وقد رحب الرسول صلى الله عليه وسلم بإسلامه وسرَّ به ، فاعتبر داره
بمثابة الحرم ، كل من يدخله فهو آمن . وشهد بعض المعارك بعد ذلك إلى جانب الرسول
صلى الله عليه وسلم . كما اشترك في معارك الفتح الإسلامي ، فعصى في معركة اليرموك
حيث كان يحارب تحت راية ابنه يزيد . وهو أبو معاوية مؤسس الدولة الأموية
في الشام .

كسرى بتجارة لهم . فلما ساروا ثلاثاً جمعهم أبو سفيان فقال : إنا من مسيرنا هذا لعلنا خطر ، إنما قدومنا على ملك لم يأذن لنا في القدوم عليه ، وليست بلاده لنا بمتجر . ولكن أيتكم يذهب بالعبير ، فإن أصيب فنحن براء من دمه ، وإن يغنم فله نصف الربح ؟ فقال غيلان بن سلمة الثقفي^(١) : دعوني إذن ، فدخل الوادي يضرب فروع الشجر وهو يقول :

فلو رأني أبو غيلان إذ حسرت عنى الأمور إلى أمر له طبق
لقال رعب ورهب يجمعان معاً حب الحياة وهول الفضل والشفق
إما تشفّ على مجدٍ ومكرمةٍ أو أسوة لك فيمن يهلك الورق^(٢)

ثم قال : أنا صاحبكم . فخرج بالعبير . فلما قدّم بلاد كسرى ، وكان أبيض طويلاً جعداً ، فتحلق ولبس ثوبين أصفرين وشهر أمره . وقعد بباب كسرى حتى أذن له فدخل ، وبينهما شباك من ذهب . فقال له الترجمان : يقول لك الملك ما أدخلك بلادى بغير إذن ؟ قال : لست من أهل عداوة لك ، ولم آتكم جاسوساً ، وإنما حملت تجارةً ، فإن أردتها فلك ، وإن كرهتها رددتها . قال : فإنه ليتكلم إذ سمع صوت كسرى فخرّ ساجداً . فقال الترجمان : يقول لك الملك : ما أسجدك ؟ قال : سمعت صوتاً مرتفعاً حيث لا ترتفع الأصوات فظننته صوت الملك فسجدت . قال : فشكر له ذلك وأمر له بمرفقة^(٣) توضع تحته ، فرأى عليها صورة فوضعها على رأسه . قال : فاستخفّه عند نفسه وقال : إنما بعثنا

(١) غيلان بن سلمة الثقفي ، حكيم وشاعر جاهلي ، أدرك الإسلام وأسلم . وكان من وجوه بني ثقيف وممن وفد على كسرى . كان عنده عشرين سنة فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يختار أربعاً منهم ، فصار ذلك سنة .

(٢) الورق : الحى من كل حيوان .

(٣) المرفقة : المخدة .

بها إليك لتقعد عليها . قال : قد علمت ، ولكنى رأيت عليها صورة الملك فوضعتها على أكرم أعضائي . قال : ما طعامك في بلادك ؟ قال : الخبز . قال : هذا عقل الخبز . ثم اشترى منه التجارة بأضعاف أثمانها ، وبعث له من بنى له أطماً^(١) بالطائف ، فكان أول أطم بالطائف .

وعن ابن عيَّاش قال : كانت عاتكة^(٢) بنت يزيد بن معاوية - وأُمها أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر - تحت عبد الملك بن مروان . فغضبت عليه ، فطلب رضاها بكل شيء فأبت . وكانت من أحب الناس إليه . فشكى ذلك إلى خاصته . فقال عمر بن بلال - رجل من بنى أسد - : مالى إن رضيت ؟ قال : حكمك . قال : فخرج فجلس في^(٣) بابها يبكي ، فقالت له حاضنتها : مالك أبا حفص ؟ قال : العجب ، فرعت إلى ابنة عمى ، فاستأذنى لى عليها ، فأذنت له وبينها وبينه ستر . فقال : قد عرفتِ حالى عند أمير المؤمنين معاوية ، وأمير المؤمنين يزيد ، وأمير المؤمنين مروان (وعند) أمير المؤمنين عبد الملك ، ولم يكن لى غير ابنين ، فعدا أحدهما على صاحبه فقتله ، فقال أمير المؤمنين : أنا قاتل الآخر ، قلت : أنا ولى الدم وقد عفوت . فقال : ما أحب أن أعود رعيتى هذا ، وهو قاتله بالغداة . فأنشدك الله (أن تشفى لى) . قالت : ما أكلمه . قال : ما أظنك تكسبين شيئاً أفضل من إحياء نفس . فلم يزل بها خدمها وحواضنها وحاشيتها حتى قالت : علىّ بثيابى ، فلبست . وكان بينها وبين عبد الملك باب ، وكانت قد ردمته ، فأمرت بفتحه ، ثم أقبلت فدخلت . فأقبل حُديج الخصى يشتد^(٤)

(١) الأطم : الحصن وجمعها آطام .

(٢) عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، أم يزيد بن عبد الملك . تزوجها عبد الملك وأحبها حباً عظيماً . عرفت بالدهاء بكدها معاوية . وكانت ممن حدث بالشام .

(٣) فى ب : « على » .

(٤) أقبل يشتد : أقبل مسرعاً فى مشيه .

فقال : يا أمير المؤمنين ، هذه عاتكة . قال : وبلك ، أرايتها ؟ قال : نعم . قال :
فبيننا هما في حديثهما إذ طلعت وعبد الملك على سريرته ، فسلمت فسكت . فقالت :
أما والله لولا مكان عمر بن بلال ما فعلت ولا أتيتك ، الله لئن عدا أحد بنيه
على الآخر فقتله ، وهو الولي وقد عفا لتقتلنه ؟ قال : أى والله وهو راغم . قالت :
أنشدك الله أن لا تفعل . فسكت ، فدنت منه فأخذت بيده فأعرض ، فأخذت
برجله فقبلتها . فقال : هو لك ، فتراضيا ، قال : فراح عبد الملك فجلس مجلسه
للخاصة ، فدخل عمر بن بلال فقال : أبا حفص ، الحكم ؟ قال : يا أمير المؤمنين
ألف دينار ومزرعة بما فيها من الرقيق والآلة . قال : هى لك . قال : وفرائض
لولدى وأهل بيتى ؟ قال : هى لك ، فأنفذ ذلك كله .

حكى أن مُصعب بن الزبير قدم الكوفة ومعه الأحنف ، فقال الناس :
قدم الأحنف بأهل البصرة . قال : فحُتُّنا ننظر وهو في المسجد الأعظم وقد احتجى
بسيفه ، ووضع مرفقه على ركبتيه ويده على خده ، وقد أطاف به بنو تميم .
فكلمهم الأحنف بشيء فقالوا : لا ، فأطرق الأحنف ساعة ثم رفع رأسه إلى
الناس وقال : إن بنى تميم خيل ضعاف تأبى الشيء ثم ترجع بعده ، فقالوا :
نعم نعم .

وحكى عن الأصمى^(١) أنه قال : قال هشام بن عتبة^(٢) شهدت الأحنف

(١) الأصمى : عبد الملك بن قريش الباهلى ، من أهل البصرة . راوية العرب
وأحد أئمة اللغة والشعر . كان كثير التطواف في البوادي يقتبس أخبار العرب
ونوادرهم ويحفظ أشعارهم وكلامهم . وله عدة مؤلفات في اللغة والنوادر .
توفي سنة ٢١٦ هـ (وفيات الأعيان ٢ : ٣٤٤ — ٣٤٩) .

(٢) هشام بن عتبة العدوى : شاعر من أخوة ذى الرمة وكان أكبر منه ،
وهو الذى رباه .

وقد جاء إلى مقبرة بنى تميم في ديم ، فقال : احتكموا ، قالوا : ديتين ، قال : ذاك لكم . فلما سكتوا ، قال : إني قائل قولاً لا أقوله راجعاً عما جعلت لكم ، ولكن الله فضل دينه ، والسلطان يأخذ ديةً ، والعرب بينها تتعاطى ديةً ، وأنتم اليوم طالبون ، وأخشى أن تكونوا غداً مطلوبين ، فلا ترضى منكم العرب إلا بمثل ما سنتم ، قالوا : فقد رددناها إلى ديةٍ . فحمد الله تعالى وقام . قال : وما جاء معه بأحد . فلما قام رأيت رداءه مشمراً عن قميصه ، وقميصه مشمراً عن إزاره ، وإزاره مشمراً عن كعبه .

وحكى الهيثم عن ابن عيَّاش : أن معاوية لما بايع يزيد وأتى إلى المدينة يريد الحج ، بلغه عن الحسين بن علي وابن الزبير وابن عمر وابن أبي بكر ما يكره^(١) فدعاهم معاوية فقال : يا هؤلاء ، إن الناس قد بايعوا لهذا الرجل ، وقد باغنى عنكم ما أكره ، وما أردت بهذا الأمر إلا الذي هو خير . وقد كان ابن الزبير قال لأصحابه : ولّوني كلامه ، فولوه إياه . فقال ابن الزبير : يا هذا ، إن ابنك لبس بخير من مضى ، فإن أحببت أن تدع الناس على ما تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يستخلفوا خيرهم ، وإن أحببت أن تختار لها كما اختار لها أبو بكر رضى الله عنه ، فإنه قدّم أفضل من يعلم ، وإلا فاجعلها شورى كما جعلها عمر رضى الله عنه ، حتى يأتمر المسلمون في أمرهم . فقال معاوية : يا هؤلاء ، إني أكره معرفة أهل الشام ، ولكني متكلم وذاكر البيعة فاسكتوا وأنتم على ما أردتم من أمركم .

فخرج معاوية وألزم كل واحد منهم حرساً ، وقال : إن تكلم واحد منهم فاضربوا عنقه . ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن هؤلاء

(١) ابن الزبير هو عبد الله ، وابن عمر هو عبد الله ، وابن أبي بكر هو عبد الرحمن . وكان هؤلاء الأربعة من أبناء الصحابة من المعارضين لتولية يزيد الخلافة بعد معاوية وامتنعوا عن مبايعته .

قد تكلموا ، وبلغنى عنهم أمر ثم بايعوا ، فقوموا فجددوا بيعتكم . وسكت القوم . وكان نافع مولى ابن عمر يقول : قال ابن عمر يومئذٍ : خدع والله القوم وقلدهم إياها فى أعناقهم . ثم وصل القوم وأحسن إليهم . ثم أتى مكة فوجه إلى وجوه الآفاق فبايعوا . ثم انصرف إلى الشام ، فلم يزل يتخوف هؤلاء القوم على يزيد بعده^(١) .

حكى الهيثم عن ابن عياش قال : كان بين طلحة بن عبيد الله^(٢) والزبير ابن العوام^(٣) مدرة^(٤) فى وادٍ بالمدينة يقال له قناة . وهو موضع قبور الشهداء ، أعلاه لآل الزبير وأسفله لآل طلحة . فقالا : نجعل بيننا من ينظر فى هذا الأمر ، فجعل عمرو بن العاص ، أتياه فقالا له : إنا جعلناك بيننا حكماً فى أمر شجر ، فاسمع واقض فيه برأيك . فقال : مرحباً بكما وأهلاً ، وأتما فى فضلكما وقديم سابقتكما ونعم الله عليكما ، وقد سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما سمعت ، وحضرتما مثل ما حضرت ، من اقتطع من أخيه شبراً من

(١) راجع نص هذا الخبر فى البدء والتاريخ ٦ : ٦ — ٧ .

(٢) طلحة بن عبيد الله القرشى ، صحابى وأحد العشرة المبشرة بالجنة . ومن السابقين فى الإسلام . كان من الذين رشعهم عمر بن الخطاب للخلافة بعده : وكان من دهاة قريش ومن علمائها . شهد أكثر الحروب مع الرسول صلى الله عليه وسلم . واشتهر بالجوهر والتسارع . قتل يوم الجمل وكان يحارب علياً إلى جانب عائشة .

(٣) الزبير بن العوام بن خويلد الأسدى القرشى صحابى وأحد العشرة المبشرة بالجنة . وهو ابن عمه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشهد أكثر الحروب إلى جانبه . كان من الذين رشعهم عمر بن الخطاب للخلافة بعده . وكان تاجراً غنياً . قتل يوم الجمل وكان يحارب مع عائشة .

(٤) المدرة : القرية .

الأرض بغير حقه طوّقه الله من سبع أرضين^(١) . والحكم أحوج إلى العدل من المحكوم عليه ، وذلك أن الحكم إذا جارَ زرى دينه^(٢) ، والمحكوم عليه إذا جِرَ عليه زرى عَرَضَ الدنيا . فأدليا حجتكما وإن شئتما فأصلحا أمركما . فاصطلحا وأعطى كل واحد منهما صاحبه الرضى .

حكى المدائنى قال : تنافر^(٣) عامر بن الطفيل^(٤) وعَلَقَمَة^(٥) إلى هَرَم

(١) ورد هذا الحديث في كتب الحديث الرئيسية بنصوص متباينة ولو ان معانيها واحدة . وأقربها إلى هذا النص ماورد في « نيل الأوطار ٥ : ٣١٧ » وهو : « من اقتطع شيئاً من الأرض بغير حقه طوّقه الله يوم القيامة من سبع أرضين » . وجاء في : « الفتح الربانى ١٥ : ١٤٥ » ما يلى : « ... عن طلحة بن عبد الله بن عوف قال : أتتني أروى بنت أويس في نفر من قريش فيهم عبد الرحمن بن عمرو بن سهل ، فقالت : إن سعيد بن زيد انتقص من أرضى إلى أرضه ما ليس له ، وقد أحببت أن تأتوه فتكلموه . قال : فركبنا إليه وهو في أرضه بالعقيق ، فلما رأنا قال : قد عرفت الذى جاء بكم وسأحدثكم ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعت رسول الله يقول : من أخذ من الأرض ما ليس له طوّقه إلى السابعة من الأرض يوم القيامة » .

(٢) زرى بالأمر : عابه ووضع من شأنه .

(٣) تنافر : المنافرة فى الجاهلية ، أن يحتكم المتفخرون إلى من يفاضل بينهم ويحكم لأفضلهم .

(٤) عامر بن الطفيل بن جعفر العامرى ، كان فارس قومه وأحد فتاك العرب فى الجاهلية ، وكان شاعراً كريماً وفارماً جريئاً ، وهو ابن عم لبيد الشاعر . أدرك الإسلام ووفد إلى المدينة ولكنه لم يسلم .

(٥) علقمة بن عُلالته بن عوف من الصحابة من بنى عامر ، كان من أشراف قومه فى الجاهلية وقد وفد على قيصر ، أسلم ثم ارتد فى زمن أبى بكر ، ثم عاد إلى الإسلام فى عهد عمر بن الخطاب فولاه حوران . كان جواداً كريماً .

ابن قُطَيْبَةَ الْفَزَارِي^(١) . فَضْرَبَ لَهَا الْقَبَابَ وَنَحَرَ لَهَا الْجُزُرَ . فَلَمَّا أَمْسَى أَتَى
عَامِرًا فَقَالَ : يَا عَامِرُ ، أَرْجَوْتُ أَنْ أَنْفُكَ عَلَى عِلْقَمَةٍ وَهُوَ أَبُو عَشْرَةٍ وَأَخُو عَشْرَةٍ
وَعَمَّ عَشْرَةٍ ، وَجَدَّه الْأَحْوَصُ سَيِّدَ بَنِي عَامِرٍ ؟ وَعَدَّ مَنَاقِبَهُ ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَى عِلْقَمَةٍ
فَقَالَ : يَا عِلْقَمَةُ ، أَرْجَوْتُ أَنْ أَنْفُكَ عَلَى عَامِرٍ وَهُوَ أَفْرَسُ الْعَرَبِ وَأَشْهَرُهَا ؟
وَعَدَّ مَنَاقِبَهُ . فَلَمَّا أَصْبَحَ دَعَا بِهِمَا فَقَالَ : أَنْتُمَا عِنْدِي كَرَكِبَتِي الْبَعِيرُ^(٢) ، قَالَا :
فَأَيُّهُمَا الْيَمِينِي ؟ قَالَ : كَلْتَاهُمَا يَمْنِي . فَلَمَّا قَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :
يَا هَرِمُ ، لَوْ كُنْتُ مَنْفَرًّا مَنْ كُنْتُ تَنْفَرُ ؟ قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى تَخْطُبُ
عَقْلِي ، وَلَوْ قُلْتُ ذَاكَ الْيَوْمَ دَخَلْتُ عَلَيْهِمَا قَبُورَهُمَا . قَالَ عُمَرُ : مِثْلُكَ فَلَيْسَتْ دُودَعُ
الْقَوْمِ أَحْسَابُهُمْ .

(١) هَرَمُ بْنُ قُطَيْبَةَ بْنِ سَيَّارِ الْفَزَارِي ، مِنْ قَضَاةِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ
كَانَ يَحْتَكِمُ إِلَيْهِ الْمُتَنَافِرُونَ . وَكَانَ خَطِيئًا بَلِيغًا ، أَدْرَكَ الْإِسْلَامَ وَأَسْلَمَ وَعَاشَ حَتَّى أَيَّامِ
عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ .

(٢) يُقَالُ هُمَا كَرَكِبَتِي الْبَعِيرُ ، مِثْلُ يَضْرِبُ لِلْأَثْنَيْنِ يَسْتَبْقَانِ فَيَسْتَوِيَانِ ، وَمِثْلُهُ
قَوْلُهُمْ : هُمَا كَفَرَسِي رَهَان . (مَجْمَعُ الْأَمْثَالِ ٢ : ٣٩١ — ٣٩٢) .

البَابُ الْإِعَاشِرُ

فِي النَّضْرِيبِ وَالْإِغْرَاءِ^(١)

حُكِيَ أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ كَانَ لَهُمْ حَصْنٌ بِقَرَبِ الْمَدِينَةِ ، وَكَانُوا يَهُودًا .
فَلَمَّا غَزَتْ الْأَحْزَابُ^(٢) ، وَهُمْ قَرِيشٌ وَكِنَانَةٌ وَغَطَفَانٌ ، رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ ، خَنَدَقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَنْدَقًا عَلَى الْمَدِينَةِ . وَأَرْسَلَتْ الْأَحْزَابُ
إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ عَلَى أَنَّ يَعِينُوهُمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ نُعَيْمُ
ابْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ^(٣) : كَانَتْ قُرَيْظَةُ أَهْلُ شَرَفٍ وَأَمْوَالٍ ، وَكُنَّا عَرَبًا لَا نَخْلُ
لَنَا وَلَا حَرَمٌ^(٤) وَإِنَّمَا نَحْنُ أَهْلُ شَاءٍ وَبَعِيرٍ . فَكُنْتُ أَقْدَمُ عَلَى كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ

(١) التضريب : الاستفزاز والتهيج .

(٢) غزوة الأحزاب : تحالف يهود المدينة من بني النضير مع قريش وغطفان
على محاربة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتقضت بنو قريظة عهدها مع الرسول وانضمت
إلى أعدائه . وكان قائد قريش أبو سفيان بن حرب . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم
أمر بحفر خندق حول المدينة بإشارة من سلمان الفارسي ، فحاصرت جيوش المشركين
المدينة . واستمر الحصار قرابة الشهر ، اقتضرت الحرب فيه على المناوشات البسيطة
وبعض المبارزات . وانتهت الحملة بفشل المشركين وانصرافهم خائبين لم ينالوا شيئاً .

راجع : تاريخ الأمم الإسلامية ١ : ١٧٧ - ١٨٥ .

(٣) نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي كان من دهاة العرب ، أسلم وكنم إسلامه
عن قومه . و لعب دوراً مهماً في تفريق كلمة الأحزاب المجتمعة لحرب المسلمين .

(٤) كذا في الأصل ، ولعل الصحيح « لا نخل لنا ولا جرم » والجرم

قطف ثمر النخل .

من بنى قريظة ، وأقيم عندهم الأيام وأشرب من شرايبهم وآكل من طعامهم ،
ويحملونني تمراً على ركابي ما كانت ، فأرجع إلى أهلي . فلما سارت الأحزاب
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيثرب ، سرت مع قومي وأنا على ديني ،
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عارفاً . فأقامت الأحزاب ما أقامت
حتى أجذب الجناب وهلك الخلف والكراع . وأدخل^(١) الله سبحانه وتعالى في
قلبي الإسلام ، وكنمت عن قومي إسلامي . فأخرج حتى آتى رسول الله صلى الله
عليه وسلم بين المغرب والعشاء فأجده يصلي ، فلما رأيته جالس ثم قال : ما جاء
بك يا نعيم ؟ قلت : إني جئت أصدقك ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن
ما جئت به حق ، فمررت بما شئت يا رسول الله ، فوالله لا تأمرني بأمرٍ إلا مضيت
له . وقومي لا يعلمون بإسلامي ولا غيرهم .

قال عليه السلام : ما استطعت أن تُخَذِّلَ فافعل^(٢) . قال ، قلت : افعل
ولكن يا رسول الله أقول ؟ فأذن لي ، قال : قل ما بدا لك وأنت في حلٍّ .
قال : فذهبت حتى أتيت بنى قريظة ، فلما رأوني حيوا وأكرموا وعرضوا على
الطعام والشراب . قلت : إني لم آت لشيء من هذا إنما جئتكم نصيباً^(٣)
بأمركم وتخوفاً عليكم ، لأشير عليكم برأى . وقد عرفتم ودي إياكم وخاصة
ما بيني وبينكم . قالوا : قد عرفنا ذلك ، وأنت عندنا على ما تحب من الصدق
والبر . قلت : فاكتموا عليّ . قالوا : نعم . قلت : أمر هذا الرجل بلاء ،
أعني النبي صلى الله عليه وسلم ، صنع ما قد رأيتم ، بيني وبين قينقاع وبنى النضير قوم

(١) في ب : « وقذف » .

(٢) روى ابن ماجه عن عائشة قالت : إن نعيم بن مسعود قال : يا نبي الله إني
قد أسلمت ولم أعلم قومي بإسلامي ، فمررت بما شئت . فقال : إنما أنت فينا كرجل واحد ،
نفادع إن شئت ، فإنما الحرب خدعة . فتح الفدير : ٣ : ٤١١ .

(٣) كذا في الأصل ، ولعلها « سعيّاً بأمركم » أي اهتماماً به .

من اليهود ، وأجلاهم عن بلادهم بعد قبض الأموال . وكان ابن أبي الحقيق^(١) ،
يعنى رجلاً من اليهود ، قد ساد فينا واجتمعنا معه لنصركم . وأرى الأمر
قد تطاول كما ترون ، وإنكم والله ما أنتم وقريش وغطفان سواء . أولئك قوم
جاءوا سيّارة حتى نزلوا حيث رأيتم ، إن رأوا فرصة اتهموها ، وإن كانت
الحرب أو أصابهم ما يكرهون ، مّثّوا إلى بلادهم ، وأنتم قوم لا تقدرون على
ذلك . البلد بلدكم وفيه أبناؤكم ونساؤكم وأموالكم . وقد غلظ عليهم جانب
محمد صلى الله عليه وسلم ، أجلبوا^(٢) عليهم أمس إلى الليل فقتل رأسهم عمرو
ابن ودّ وهربوا هرباً . وهم لا غنى بهم عنكم لِمَا يعرفون عنكم . فلا تقاتلوا
مع قريش ولا غطفان حتى (تأخذوا منهم رهناً من ساداتهم تستوثقون به منهم ،
لا يبرحون) حتى يناجزوا محمداً . قالوا : أشرت بالرأى علينا والنصح . ودعوا
لى وشكروا ، وقالوا : نحن فاعلون (ذلك) ، قال : ولكن اكتبوا علىّ ،
قالوا : نفعل .

ثم أخرج حتى آتى أبا سفيان بن حرب فى رجال من قريش ، فقلت :
يا أبا سفيان قد جئت بك بنصيحة فاكتم علىّ ، قال : أفعل ، قلت : تعلم أن
بنى قريظة قد أقدموا على ما فعلوا بينهم وبين محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد
أرادوا استصلاحه ومراجعته . فأرسلوا إليه وأنا عندهم : إنا سنأخذ من قريش
وغطفان من أشrafهم سبعين رجلاً نسلمهم إليك تضرب أعناقهم ، وتردّ
جناحنا الذى كسرتة إلى ديارهم ، يعنون بنى النضير ، ونكون معك على

(١) هو سلام بن أبي الحقيق من يهود بنى النضير وأحد ساداتهم .

(٢) أجلب القوم : ضجوا واختلطت أصواتهم ، وأجلبوا عليهم : هجموا عليهم .

(م ٦ - لطف التدبير)

قریش حتی نردھم عنک . فإن بعثوا إلیکم یسألونکم رهنًا فلا تدفعوا إلیهم ،
واحذروا علی أشرافکم . ولكن اکتبوا علیّ ولا تذکروا من هذا حرفًا ،
قالوا : لا نذکره .

ثم خرجت حتی صرت إلی غطفان ، فقلت : یامعشر غطفان ، قد عرفتم
أنی رجل منکم فاکتبوا علیّ ، واعلموا أن بنی قریظة بعثوا إلی محمد صلی الله
علیه وسلم ، وقلت لهم مثل ما قلت لقریش ، فاحذروا أن تدفعوا إلیهم أحدًا
من رجالکم . وأرسلت یهود قریظة رجالًا منهم یقال له عِراک بن سِماک إلی
أبی سفیان بن حرب وأشراف قریش : إن ثواکم^(١) قد طال ولم تصنعوا شیئًا ،
ولیس الذی تصنعون برأی . إنکم لو وعدتمونا یومًا ترحفون إلی محمد صلی الله
علیه وسلم ، فتأتون من وجه وتأتی غطفان من وجه ، ونخرج نحن من وجه
آخر لم یفلت من بعضنا . ولكن لا نخرج معکم حتی ترسلوا إلینا برهائن من
أشرافکم یكونون عندنا ، فإننا نخاف إن مستکم الحرب أو أصابکم ما تکرهون
تشرتم^(٢) وترکتبونا فی عقر دارنا ، وقد نابذنا محمدًا صلی الله علیہ وسلم
بالعداوة . وانصرف الرسول إلی بنی قریظة ولم یرجعوا إلیهم شیئًا . وقال
أبو سفیان : هذا ما قال نعیم .

نخرجتُ إلی بنی قریظة فقلت : یامعشر بنی قریظة ، أنا عند أبی سفیان
حین جاء رسولکم إلیه یطلب منه الرهائن فلم یرد علیہ شیئًا . فلما ولیّ قال :
لو طلبوا منی عقلاً^(٣) ما أرهنته إیاهم ، فأنا أرهنهم سراًة أصحابی یدفعونهم

(١) الثوی : المقام .

(٢) أى أسرعتم فی الحرب .

(٣) العقال : الحبل الذی تربط به الإبل .

إلى محمد صلى الله عليه وسلم يقتلهم . قروا رأيكم ولا تقاتلوا مع أبي سفيان وأصحابه ، حتى تأخذوا منه الرهن ، فإنكم إن لم تقاتلوا محمداً صلى الله عليه وسلم وانصرف أبو سفيان بن حرب ، تكونوا مع محمد صلى الله عليه وسلم على موادعتكم الأولى ، قالوا : نرجو ذلك يا نعيم ، قلت : نعم . قال كعب : فإننا لا نقاتله والله أبداً ، والله لقد كنت لهذا كارهاً ، ولكن حبي بن أخطب رجل مشؤوم . قال الزبير بن باطا : إن انكشفت قريش وغطفان عن محمد صلى الله عليه وسلم لم يقبل منهم إلا السيف ، قال نعيم : قلت : لا تخشين ذلك يا أبا عبد الرحمن . قال الزبير : بلى ورب التوراة ، ولو أصابت اليهود رأيها وقد لحم الأمر لتخرجن إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا تطلبوا من قريش رهناً فإنها لا تعطينا رهناً أبداً ، وعلام تعطينا رهناً وعددهم أكثر من عددنا ، ومعهم كراع ولا كراع معنا ، وهم يقدرون على الهرب ونحن لا نقدر عليه . وهذه غطفان تطلب إلى محمد صلى الله عليه وسلم (أن يعطيها بعض تمر الأوس والخزرج وتنصرف ، فأبى محمد صلى الله عليه وسلم) إلا السيف^(١) ، وهم ينصرفون بغير شيء .

فلما كانت ليلة السبت ، كان مما صنع الله عز وجل لنبيه عليه السلام أن قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إن الجنب قد أجذب وهلك الكراع والخف ، وغدرت يهود وكذبت ، وليس هذا بخير مقام ، فانصرفوا . قالت قريش : فاعلم يهود واستكشف خبرهم . فبعثوا عكرمة بن أبي جهل حتى أتى بني قريظة

(١) عندما اشتد الحصار على المدينة حاول الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفرق كلمة الأحزاب . فبعث إلى زعيمى غطفان ، عيينة بن حصين والحارث بن عوف يفاوضهما على ثلث ثمار المدينة ، على أن يرجعا بمن معهما عن حرب المسلمين ، فوافقا على ذلك . إلا أن بعض أصحاب الرسول رفضوا ذلك وقالوا : ليس لهم عندنا إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم فأخذ برأيهم . (الطبرى طبعة م ، ٢ : ٥٧٢-٥٧٣) .

عند غروب الشمس مساء ليلة السبت . فقال : يا معشر بني قريظة ، قد طال اللبث وجهد الخف والكراع وأجذب الجنب ، ولسنا بدار مقام . اخرجوا إلى هذا الرجل حتى نناجزه بالغداة . قالت اليهود : إن غداً يوم السبت ونحن لا نعمل فيه شيئاً ، وإنا مع ذلك لا نقاتل معكم أبداً إذا انقضى سبتنا حتى تعطونا الرهائن من رجالكم يكونون معنا بأن لا تبرحوا حتى نناجز محمداً صلى الله عليه وسلم . فإنا نخشى إن أصابتكم الحرب أن تتشمروا إلى بلادكم وتدعونا وإيّاها ولا طاقة لنا به .

فرجع عكرمة إلى أبي سفيان فأخبره بما ردت يهود . فقال أبو سفيان : أحلف بالله إن الخبر هو الذي جاء به نعيم . فكرر أبو سفيان وغطفان الرسل إلى يهود ، فردت عليهم يهود كالمرّة الأولى . وقالت لئما كثر تردد الرسل إلى يهود : نحلف بالله إن الخبر كما قال نعيم . فانصرفت الأحزاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وغزا يهود بني قريظة^(١) . وكان نعيم يقول : أنا أمين رسول الله صلى الله عليه وسلم على سرّه ، وأنا فرقت الأحزاب عنه^(٢) .

وحكى أنه كان للمتوكل على الله ولأحمد أخيه معلم يُقال له إسماعيل ابن غيث . فلما ولي المتوكل الخلافة انضم إسماعيل المؤدب إلى أحمد بن المعتصم ، فغلب على قهرمته وأمر قصره ، فخانه خيانة فاحشة . فأسند أحمد أمره إلى يعقوب بن إسحاق الكندي المنجم^(٣) ، فنصحه وكشف عن خيانات

(١) على إثر انسحاب قريش وحلفائها ، أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أتباعه بالمسير إلى بني قريظة ، فحاصروهم حتى فتح حصنهم ومشتهم فأمن جانبهم .

(٢) راجع عن دور نعيم بن مسعود في غزوة الأحزاب : الطبري طبعة : م

٢ : ٥٧٨ — ٥٧٩ .

(٣) أبو يوسف ، فيلسوف العرب والإسلام في عصره . نشأ في البصرة وانتقل إلى بغداد وبها تعلم . واشتهر بالطب والفلسفة والفلك والهندسة والموسيقى . =

إسماعيل . فكتب إسماعيل المؤدب إلى المتوكل رقعة يخبره فيها ، أن يعقوب ابن إسحاق الكندى يقول لأحمد بن المعتصم ، إنه يرى له في النجوم أنه يملك الأمر بعد أخيه ، وأن بيعة ولاية العهود لا تتم . ثم جاء إسماعيل بالرقعة إلى محمد بن موسى المنجم^(١) فدفعتها إليه ، وكان بينه وبين الكندى مباحدة . فأوصل الرقعة محمد بن موسى إلى المتوكل على الله . فغضب على أخيه أحمد ، ووكل بمنزله قصر الجص ، وأمر بالكندى أن يُحبس في أضيق الحبوس ، ووكل بضياع أحمد .

ولم يعلم أحمد من أين أتى . وكان المتوكل وأحمد ولدا في سنة سبع ومائتين ، وكانت أم المتوكل^(٢) ترأف على أحمد لأنها أرضعته . وكلمت المتوكل في أحمد وقالت له : غضبت على أخيك لشبهة لم تصح عندك . قال لها : إن الرافع عليه مؤدبنا إسماعيل بن غيث ، وهو ثقة عندي . فوجهت أم المتوكل إلى أحمد

= وألف وترجم وشرح كتباً كثيرة . وقد أصاب عند المأمون والمعتصم منزلة عظيمة وإكراماً بالغا . إلا أنه لقي بعض المتاعب في زمن المتوكل ، إذ ضرب وأخذت كتبه بتأثير الوشاة ثم ما لبث أن نال العفو ، فردت إليه كتبه . توفي سنة ٢٦٠ هـ .

(١) هو أحد الأخوة الثلاثة الذين اشتهروا باسم « بنى موسى » وإليهم تنسب حيل الميكانيك ، وكان عالماً بالهندسة والموسيقى والفلك ، وكان مقرباً من المأمون والخلفاء من بعده ، يرجعون إليه فيما يستعصى عليهم من آراء الحكماء المتقدمين . وقد استعان المأمون بالأخوة الثلاثة في التثبت من مقدار محيط الكرة الأرضية ، فقام الأخوة بقياس ذلك وتحقق لهم صحة قول القدماء من أن محيط الأرض أربعة وعشرون ألف ميل ، وذلك بعد أن ثبت لهم أن كل درجة من درجات الفلك يقابلها من سطح الأرض ستة وستون ميلاً وثلاثاً الميال . راجع عن الطريقة التي اتبعوها : وفيات الأعيان ٤ : ٢٤٨ — ٢٤٩ .

(٢) وهى أم ولد خوارزمية ، يقال لها شجاع .

تُعلمه ذلك ، وتأمره أن يدعو إسماعيل فيردّه إلى ما كان عليه من أمره ويصله ويرفع قدره . ثم يقول له بلغني أنك رفعت رقعةً علىّ إلى السلطان ، فإنه سيحصد ذلك . نخذ رقعة بخطه أنه لم يرفع عليك شيئاً ، وأن كل ما قيل عنه في رقعته فباطل ، وليجعل في رقعته يميناً بالله وبِحياة أمير المؤمنين ، ثم انفذ الرقعة إلى .

فتعطف أحمد بن المعتصم لإسماعيل بن غيث حتى أخذ رقعته بذلك ، وأنفذها إلى أم أمير المؤمنين ، فدفعتها إلى ابنها وقالت له : هذا خط إسماعيل ينكر ما رفع على أخيك ، وإنما كان سببه أنه استكفاه فخانه فكشف خيائته . فلما قرأ المتوكل رقعة إسماعيل استشاط غضباً عليه ، ثم قال : يرفع إلىّ على أخى ما يوجب قتله ، ثم يكتب رقعة يحصد ذلك وأنا أعرف خطه . فرضى عن أحمد أخيه وأقطعته غلة عشرة آلاف دينار ، وأخرج الكندى من حبسه . وأمر بإسماعيل فصيرّ في ذلك الحبس ، فمكث فيه حتى هلك .

وحكى أن كلثوم بن مرة العجيلي ، كان يحارب ابن أخيه دُلف بن عياض ابن عاصم ، فبقى كلثوم مشرداً عن الدينور^(١) زماناً طويلاً . فشاور بعض نصحائه ، فقال له ناصحه : دُلف رجل مستقر في مدينته الدينور ، وأموالها تُجبي إليه ، وأنت مُشرّد في صعاليك يصحبونك على الغارة على الناس ولا يناصحبونك في حرب . وعندى لك ولدُلف مثل . قال كلثوم : وما هو ؟ قال : ذكر في كتاب كليلة ودمنة ، أن غراباً كان يُفرّخ في شجرة وكان تحتها جحر لحية عظيمة ، وكان الغراب كلما أفرخ فشوّكت فراخه ، طلبت

(١) الدينور : مدينة في منطقة الجبال في بلاد فارس قرب مدينة همدان .

الحية غيرةً منه ثم انسابت إلى فراخه فأكلتها ، فشقَّ ذلك عليه ، وهمَّ بمحاربتها . فقال له غراب كان يوده : إن الذي عزمت عليه من محاربة الحية خطأ ، لأنها أعظمُ منك جسماً وأحدُّ ناباً ، وأنها إن التفتَّ عليك قتلتك . قال : فما الحيلة ؟ قال : إنَّ بقربك جحراً للدق^(١) عظيم وطبعه عداوة الحية . وقد كان يقال عدوُّ عدوِّك صديقك . فاحتمل قطعاً من لحم وخبز ، فانظمها من جحر الدلق إلى جحر الحية ، فإن الدلق يأكل ما نظمت له أولاً فأولاً حتى يقف على باب جحر الحية . فيتردد يطلب ما عودته ، ولا تقطعه عنه . فإنه متى ما ظفر بالحية قاتلها وأكلها فاستغنيت وسلمت . ففعل الغراب ذلك بالدلق . فأكل الدلق ما نظم له الغراب حتى بلغ جحر الحية فلم يزل يتردد إلى جحرها حتى صارت الحية خارج جحرها ، فنشبت الحرب بينهما والغراب ينظر ، حتى قتلها الدلق وأكلها^(٢) .

(١) الدلق : حيوان وحشى يقرب من السنور في حجمه ، أصفر اللون وفي بطنه وعنقه بياض .

(٢) لم ترد هذه الحكاية بهذا الشكل في كتاب كيلة ودمنة . فقد راجعنا طبعة دار المعارف من الكتاب المذكور ، وهي أصح وأكمل طبعة بالعربية على ما نعلم ، فلم نجد هذه الحكاية بنصها الوارد هنا . وفي الطبعة المشار إليها حكيتان تشبهان هذه ، إحداهما « حكاية الغراب والأسود » ص : ٦٣ - ٦٦ ، والأخرى « حكاية العليوم والأسود وابن عرس » ص : ٩٢ - ٩٣ . على أن عدم وجود هذه الحكاية بنصها هذا في الطبعة المشار إليها من كتاب كيلة ودمنة ، لا تدل على أنها لم ترد في هذا الكتاب المذكور . إذ ربما كان مؤلف كتابنا هذا قد اطلع عليها في إحدى النسخ المتيسرة من الكتاب في عهده ، ولم يُعثر عليها بعد .

لكنى أرى لك أن تصير إلى يعقوب بن الليث الصفار^(١) فتغريه بالجليل ،
وتجتهد أن تقع بين أصحابه وبين أصحاب دلف حرب ، فيكفيك يعقوب مؤونته .
ف فعل كلثوم ذلك . فوجه يعقوب بن الليث (أحمد بن عبد العزيز) وعزيز بن
عبد الله إلى الجبل ، فهرب منهما دلف بن عياض . ثم لم يطل ذلك حتى عاد
الأمر إلى دلف بتشريد أحمد بن عبد العزيز وعزيز بن عبد الله عن الجبل^(٢) .

وحكى أن حُجراً أبا امرئ القيس الكندي ، لما حارب بني أسد
وحاربت معهم تميم والرباب ، قتلت بنو أسد حُجراً . فشخص امرئ القيس بن
حُجر إلى ملك الروم يستجيشه^(٣) على بني أسد . وخرج معه الطماح القيسى^(٤) .
فلما ورد امرؤ القيس على ملك الروم أكرمه وعظمه وأجابه إلى ما سأل من
النجدة . فكره ذلك الطماح لما خاف على بني أسد من البوار ، وتعصب
للمضرية ، وخاف أن تعلق كندة على مضر ثانية . وكان امرؤ القيس رجلاً
جميلاً بهياً ، فدرس الطماح على لسان امرئ القيس إلى بنت ملك الروم

(١) هو مؤسس الدولة الصفارية . كان في صغره صفاراً ، وقد تطوع لقتال
الخوارج ، وما لبث أن جمع بعض المغامرين حوله فاشتدت شوكته فتغلب على سجستان
وهراة ثم أوغل في تركستان ، واستولى على فارس . وقد توجه على رأس جيشه
إلى بغداد للاستيلاء عليها وإخضاع الخليفة المعتمد على الله ، فقاتله الجيش العباسي
ورده ، فعاد إلى فارس ومات في جنديسابور سنة ٢٦٥ هـ . (وفيات الأعيان ،
٥ : ٤٤٤ - ٤٧٦) .

(٢) الجملة في الأصل مرتبة وقد صححناها بهذا الشكل استناداً إلى القسم الأول
من الفقرة .

(٣) يستجيشه : يحرضه على المعاونة ، ويستجيش الجيش يجمعه .

(٤) الطماح القيسى : من وجوه بني أسد وكان امرؤ القيس قد قتل خاله

يراسلها ويفازلها . فنظرت ابنة ملك الروم إلى امرئ القيس (فأعجبها جماله وهيبته ولبسته فعمشقه ، وكانت تبعث إليه) بالطفاف^(١) من طيب وجوهر وغير ذلك . فيحبسها الطمّاح ويحبب عنه . ويومها أن امرأ القيس لا يحب أن يظهر نفسه وأن الطمّاح واسطة بينهما . حتى إذا شخص امرؤ القيس عن ملك الروم بكتبه إلى جنده بالشام في إنجاد امرئ القيس ، تخلف الطمّاح عن امرئ القيس متارصاً .

ثم دخل إلى ملك الروم فقال له : إن هذا العربي قد فعل فعلاً يجب به قتله . فإن أمني الملك خبرته بعشه له ، فأمنه الملك على نفسه ، فأخرج إليه ما كانت ابنة الملك تهدي إلى امرئ القيس . فلما رأى ذلك الملك صدّق الخبر وقرر ابنته فقتلها . ووجه خلف امرئ القيس بخلع مسمومة ، وأمر رسوله أن يلبسها امرأ القيس . فاحقه الرسول بأنقرة فألبسه الخلع على جلده ، وسقاه الخمر حتى سكر فبات في الخلع ، ثم أفاق وقد دبّ السم في بدنه^(٢) فقرّح جلده وتساقط لحمه ، فمات هناك . وهو الذي يقول في مرضه :

لقد طمح الطمّاح من بعد أرضه ليلبسني من دائه ما تلبسا^(٣)
فلو أنها نفس تموت سوياً ولكنّها نفس تساقط أنفسا
وكانت كندة ملوك اليمن^(٤) ، فلم يقم لها بعد موت امرئ القيس قائمة

(١) الألفاف : مفرد لها لطفة وهي الهدية .

(٢) في ١ و ب : « يديه » والسياق يقتضي ما أثبتنا .

(٣) وفي بعض الروايات : « ليلبسني مما يلبّس أبؤما » .

(٤) يقصد القبائل اليمنية .

بنجد ، حتى لحقت بأرض اليمن^(١) .

وحكى أن الأفشين^(٢) لما انصرف مع أمير المؤمنين المعتصم بالله بعد غزوة عمورية^(٣) إلى سُرَّ من رأى ، تقدمت حال الأفشين عند المعتصم

(١) لم يعرف تاريخاً أن قبائل كندة عادت ثانية إلى اليمن .

راجع لزيادة التفصيلات : أيام العرب في الجاهلية ص : ١١٢ — ١٢٣ .

(٢) هو حيدر بن كاوس ، تركي الأصل من بلاد ما وراء النهر ، والأفشين لقب يطلق على ملوكهم . عمل في حاشية المعتصم عندما كان هذا والياً لأخيه المأمون على مصر والشام . ولما استخلف المعتصم جعل الأفشين في مقدمة قواده . وقد وجهه لحرب بابك الخرمي فخاربه مدة طويلة حتى ظفر به . كما أبلى بلاء حسناً في حرب الروم عندما غزا المعتصم عمورية ، مما جعل له مركزاً خطيراً في الجيش . وما ذكره المؤلف هنا لم يكن نتيجة الوشاية والحسد وحدها ، إذ لا يستبعد أن يكون المركز الذي وصله الأفشين حفزه على الوثوب بالدولة العباسية . وقد ثبت للمعتصم أن الأفشين قد كاتب بعض الرؤساء والدهاقين في بلاد فارس مثل « مازيار » دهقان طبرستان ، ولذا أمر بمحاكمته . وقد تولى المحاكمة القاضي أحمد بن أبي دؤاد ، فأمر بحبسه حتى مات .

راجع التفصيلات في : الطبرى ١٠ : ٣٦٢ — ٣٦٧ ، وخلاصتها في تاريخ الأمم الإسلامية ٣ : ٢٦٥ — ٢٦٨ .

(٣) عمورية من أمنع مدن الروم وأكثرها حصانة وقد غزاها المعتصم بجيش كبير وافتتحها عنوة وغنم منها مغانم كثيرة . وكان سبب غزوها أن الروم أخذوا يهاجمون الثغور الإسلامية مغتتمين فرصة انشغال الجيوش العباسية في حرب بابك ، واستولوا على قسم منها ، فقتلوا رجالها وسبوا نساءها فثقل ذلك على المعتصم فغزا غزوته المظفرة هذه .

وأكرمه غاية الإكرام لجمده ما كان من بلائه وحسن أثره في بابك وفي ملوك الروم . فاستخف بأحمد بن أبي دؤاد^(٢) ومحمد بن عبد الملك^(٣) . فأعملا الفكر

(٢) أحمد بن أبي دؤاد بن جرير بن مالك الإيادي ، أحد القضاة المشهورين ومن رؤساء المعتزلة ، وكان على رأس المحنة بالقول بخلق القرآن في عهد المأمون ، وهو الذي امتحن الإمام أحمد بن حنبل بذلك . وقد عرف بالفصاحة وقوة الحجة والدهاء . وأعجب به المأمون كثيراً فقربه إليه واتخذته مستشاراً له ، ولما دنت وفاته قال لأخيه المعتصم في وصيته له : « أما أحمد بن أبي دؤاد لا يفارقك واشركه في المشورة في كل أمرك فإنه موضع لذلك » . فاخص به المعتصم وجعله قاضي قضااته ومستشاره الخاص ، حتى كان لا يفعل فعلاً باطناً ولا ظاهراً إلا برأيه . وعاش حتى عهد المتوكل فأصيب بالفالج .

(٣) المعروف بابن الزيات ، نشأ ينفاد ونال حظاً وافراً من العلم والأدب ، وعمل أول أمره كاتباً في الديوان . وكان أديباً شاعراً . استوزره المعتصم لما رأى من علمه وأدبه فقام بالوزارة خير قيام . ولاستيزاره قصة لها دلالتها . يقال إن كتاباً ورد على المعتصم من أحد ولاته ، فقرأه وزيره أحمد بن عمار الخراساني عليه ، وكان في الكتاب ذكر الكلاء ، فقال المعتصم : ما الكلاء ؟ فقال الوزير : لا أدري . قال المعتصم : خليفة أمي ووزير عامي ، وكان المعتصم ضعيف القراءة والكتابة ، ثم قال : ابصروا من في الباب من الكتاب . فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات فأدخلوه إليه . فقال له : ما الكلاء ؟ قال : الكلاء العشب على الإطلاق ، فإن كان رطباً فهو الحلا ، فإذا يبس فهو الحشيش . وشرع في تقسيم أنواع النبات . فعرف المعتصم فضله واستوزره .

وكان ابن الزيات شديداً في معاملة العمال ومحاسبتهم . واستوزره من بعد المعتصم ابنه الواثق . ونقم عليه المتوكل لأنه اجتهد في تولية الواثق بعد المعتصم بدلاً منه ، فنكل به وسجنه ومات في سجنه سنة ٢٣٣ هـ . ويقال إنه أحرقه في التنور الحديدي الذي كان ابن الزيات اتخذه لتعذيب المصادر والمطلوبين بالأموال (وفيات الأعيان ٤ : ١٨٧) .

في أمره ، فلم يريا شيئاً في كيده أبلغ من إيحاشه من المعتصم بالله . وكان (محمد ابن إبراهيم ، أخو إسحاق بن إبراهيم الطاهري ، صديقاً وندياً للأفشين ، وكانت بينه وبين) محمد بن عبد الملك مؤانسة . فاستمال محمد بن عبد الملك ، محمد ابن إبراهيم ووعدته أن يوليه فارس والأهواز ، ويرفع عند السلطان قدره ، على أن يلفظ لإيحاش الأفشين من المعتصم بالله . وقال له : أوحش الأفشين من صاحبه فإننا نوحش صاحبه منه . فدخل محمد بن إبراهيم على الأفشين يوماً فرآه الأفشين كثيراً (متغيراً) فسأله عن شأنه ، فكتمه ، فعزم عليه الأفشين . فقال محمد بن إبراهيم : أنا في حال ضيقة ، إن بحث بما في نفسي خنت سلطاني ، وإن أمسكت خنت صديقي .

فلم يزل الأفشين يُنقَرُ^(١) محمداً حتى قال له محمد : فاحلف أنك لا تبدى شيئاً مما ألقى إليك . فحلف له بأوكد الأيمان . فقال محمد بن إبراهيم : إن أمير المؤمنين قد تغير لك وأخذ في التدبير عليك . قال الأفشين : هذا باطل لأنني على عظيم البركة قد فتحت له الفتوح الجليّة ، ولم يظهر له مني سوء . قال محمد بن إبراهيم : قد بحث بما في نفسي وستعلم ذلك عن قليل ، وحلف له على ما قال . فاعتم الأفشين وكثر نكده وساء ظنه . فدخل بعد ذلك على المعتصم بالله فوافق من المعتصم ضجراً ببعض أموره ، وغيظاً على أحد خدمه ، ورآه متغير البشر عابس الوجه ، فظن الأفشين أن الذي رأى من المعتصم هو ما قال محمد ابن إبراهيم ، وتحقق قوله . فحذر على نفسه ، فتحرز في منزله واحتفظ بأبوابه . فبلغ المعتصم بالله فعله فأنكره . فقال له ابن أبي دؤاد : يا أمير المؤمنين ، أنت

(١) ينقره : يراجعه في الكلام ، أى يؤكد عليه .

منا بمنزلة الروح من البدن ، وهذه الأعاجم تدخل عليك وأنت متفضل^(١) في ثوبك ، وفي أيديها العمدُ ومعها السيوف والخناجر . فقال المعتصم : لا تخف فأنا أهيب للخلافة مما تظن ، ولا تُعد في هذا شيئاً .

ونفر قلب المعتصم من الأفسشين ، فلم تزل الوحشة تنشأ بينهما حتى تفاقمت . فكتب الأفسشين إلى منكجور^(٢) خليفته بأذربيجان كتباً في التديير على السلطان . فوقعت الكتب إلى المعتصم . فقتل المعتصم الأفسشين . وذُكر أنه لم يختن ولم يكن على الإسلام .

قيل لما خرج من خرج من الأوس^(٣) إلى مكة ليحالفوا قريشاً على الخروج ، فخالقهم قريش ، ولبثوا فيهم أياماً . ثم قدم أبو جهل بن هشام الخزومي من سفر فبلغه شأنهم . فقال لقريش : ما أصبتم حين خالقتموهم لأنهم أهل عدة وجلد ، وقلماً نزل قوم على قوم إلا أخرجوهم من بلادهم

(١) تفضل : لبس الفضال وهو الثوب الذي يلبس في البيت .

(٢) المعروف أن الأفسشين كاتب المازيار دهقان طبرستان وشجعه على إظهار الخلاف على عبد الله بن طاهر أمير خراسان ، فتحصن بالجبال غير أن جيوش ابن طاهر استطاعت إخماد ثورته والقبض عليه . إلا أن الخليفة المعتصم كان يتهم الأفسشين بأمر منكجور عند ما خرج في أذربيجان ، لأنه من أقارب الأفسشين وكان الأفسشين عينه عاملاً على أذربيجان . وقد جرد المعتصم حملة أعادت أذربيجان وأسرت منكجور فجيء به إلى سامراء فأمر الخليفة بحبسه .

(٣) الأوس : إحدى القبيلتين الكبيرتين في يثرب اللتين بادرتا إلى اعتناق الإسلام ونصرة النبي صلى الله عليه وسلم وتشجيعه على الهجرة . والقبيلة الثانية هي الخزرج .

وغابوهم عليها . قالوا : فما المخرج من حلفهم ؟ قال : أنا أ كفيكموهم ، إنهم من أشد العرب غيرةً ومرارةً ، فلعلِّي آتيهم من قبل ذلك .

ثم خرج حتى جاءهم فقال : إنكم حالفتم قومي وأنا غائب ، فقدمت فجئتكم لأحالفكم ، وأذكر لكم من أمرنا أمراً تكونون منه على رؤوس أموركم . إنا قوم تخرج نساؤنا إلى أسواقنا يبعن بها ، ولا يزال الرجل منا يدنو من المرأة منهن إذا أعجبته فيضرب عجيزتها . فإن كنتم طيبي الأنفس أن يفعل بنسائكم حالفناكم ، وإن كرهتم ذلك فردوا حلفنا . فقالوا : لا نقر ذلك أبداً ، وقد رددنا إليكم حالفكم .

البَابُ الحَادِي عَشَرَ

فِي تَدْبِيرِ الْمُنْهَزِمِ

حُكِيَ أَنَّ مَلِكَ الْفَرَسِ لَمَّا هَرَبَ مِنْ بَهْرَامِ جَوْبِينَ^(١) إِلَى مَلِكِ الرُّومِ ،
وَجَّهَ بَهْرَامُ فِي طَلَبِهِ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ بَسْطَامُ فِي جَيْشِ كَثِيفٍ عَلَى سَرَّعَانِ الْخَيْلِ .
فَنَزَلَ الْمَلِكُ فِي نَاحِيَةِ هَيْتٍ فِي دِيرٍ لِيرِيحٍ^(٢) . وَمَضَى وَهُوَ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ غُلَامَانِهِ ،
وَمَعَهُ خَالَ لَهُ يُقَالُ لَهُ كَرْبَا ، إِذَا لَاحَتْ لَهُمْ غَبْرَةٌ خَيْلِ بَسْطَامِ . فَقَالَ الْمَلِكُ لَخَالِهِ :
قَدْ أَدْرَكْنَا الطَّلَبَ فَمَا تَرَى ؟ قَالَ لَهُ خَالُهُ : لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ أَقْبِكَ بِدُمِي . قَالَ :
وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ خَالُهُ : أَرْكَبُ أَفْنَ^(٣) خَيْلِكَ وَأُجَنِّبُ فَرَسًا^(٤) وَاجْ بِنَفْسِكَ
فَإِنِّي أَصْده عَنْكَ . فَرَكَبَ الْمَلِكُ فَرَسًا (وَجَنَّبَ فَرَسًا) وَمَضَى نَحْوَ مَسَاحٍ^(٥)
الرُّومِ . وَلَبَسَ كَرْبَا ثَوْبًا مَنْسُوجًا بِالذَّهَبِ ، وَوَضَعَ التَّاجَ عَلَى رَأْسِهِ ، وَأَقَامَ سَائِرَ

(١) بَهْرَامُ جَوْبِينَ : كَانَ قَائِدًا كَبِيرًا مِنْ قَوَادِ هَرْمَزْدَ كَسْرَى فَارِسَ ،
وَقَدْ وَجَّهَهُ لِحَرْبِ الرُّومِ فَمُنِيَ بِهَزِيمَةٍ مَنكَرَةٍ ، فَانْتَزَعَ كَسْرَى مِنْهُ الْقِيَادَةَ بِصُورَةٍ مَهِينَةٍ .
فَأَعْلَنَ بَهْرَامُ الثُّورَةَ عَلَى هَرْمَزْدَ ، الَّذِي كَانَ يُجَاهِدُهُ ثُورَةٌ دَاخِلِيَّةٌ أُخْرَى لَمْ يَسْتَطِعْ
إِخْمَادَهَا . فَخَسِرَ عَرْشُهُ وَنُصِبَ ابْنُهُ بَرْوِيزُ مَكَانَهُ . إِلَّا أَنَّ بَهْرَامَ جَوْبِينَ اسْتَطَاعَ أَنْ
يَتَغَلَّبَ عَلَى بَرْوِيزَ وَيَطْرُدَهُ ، فَالْتَجَأَ هَذَا إِلَى إِمْبَرَاطُورِ الرُّومِ فَأَنْجَدَهُ ، فَاسْتَطَاعَ اسْتِعَادَةَ
عَرْشِهِ بَعْدَ أَنْ فَرَّ بِهْرَامِ . (إِيْرَانُ فِي عَهْدِ السَّاسَانِيِّينَ ص : ٤٢٧ — ٤٢٩)

(٢) لِيرِيحُ : لِيرِيحُ .

(٣) أَفْنُ الْخَيْلِ : أَمْهَرُهَا بِفَنُونِ السَّيْرِ . وَيُقَالُ اسْتَفَنَ الْخَيْلَ إِذَا حَمَلَهَا عَلَى
فَنُونِ السَّيْرِ . وَفِي نَسْخَةِ ب : « أَفْرَهُ خَيْلِكَ » .

(٤) أُجَنِّبُ فَرَسًا : مِيرَ فَرَسًا إِلَى جَانِبِ فَرَسِهِ لِيَرْكَبَهَا عِنْدَ مَا تَتْعَبُ فَرَسَهُ .

(٥) الْمَسَاحُ : الثَّغُورُ ، أَيْ الْمَدَنُ وَالْحَصُونُ الْقَائِمَةُ عَلَى الْحُدُودِ .

مَنْ معه بين يديه وهو على ظهر الدابة ، حتى إذا علم أن بسطاماً قد تأمل لبسته ولم يعرف وجهه ، نزل^(١) كربا فنزع تلك الثياب ولبس أقبية^(٢) . وخرج فتلقى بسطاماً فحيّاه ثم قال له : الملك يقرئك السلام ويقول لك إن الدهر قد ألقانا إلى ما ترى ، ولنا عليك حق المملكة . قال بسطام : وما ذاك ؟ قال : قد ظفرت يدك بظلمتِكَ وأدركت ما وُجِدت إليه ، وقد زمزمت^(٣) وبدأت طعامي ، فأنظرني حتى آكل وأخرج إليك . فقال بسطام : كل متمهلاً فنحن منتظرونك ، ونزل بأصحابه حول الدير . فلما مضى من الزمان قدر الغداء ، خرج كربا إلى بسطام فقال له : إن الملك يسألك أن تتم إحسانك بأن تنظره قليلاً ليخرج في وقت قد اختاره ، فأذن له . فلم يزل كربا يدافعه حتى أمسى . وهو يُخرج له لُطْفاً من الجوهر والكسوة الفاخرة . حتى إذا أصبح وعلم كربا أن الملك قد لحق بمأمنه . قال بسطام : إن الحقّ بنا أولى . قال : نعم . قال : فإن الملك قد نجا بنفسه حيث رأى غيبتك ، وإنما صددتك عنه حتى لحق بمأمنه ، وها أنا ذا فاحكم بما تريد . فهمّ بسطام بقتله فأبى عليه أصحابه وقالوا : أخرت طلب الرجل حتى فات بغير أمر ، وتريد قتل هذا بغير أمر . فحمله بسطام إلى بهرام . فاما علم بهرام الخبر ، قال : أما أنت يا بسطام فغششت فجزاؤك القتل ، وأما كربا فنصح لصاحبه فجزاؤه الصفح . وأمر بكربا فحبس^(٤) .

وحكى أن عبد الله أخا بابك انهزم في بعض حروبه ، فمرّ منفرداً فارّاً من

(١) في ١ : « قام » .

(٢) الأقبية : جمع قباء وهو الثوب الذي يلبس فوق الثياب .

(٣) زمزم : دمدم حين الأكل ، وهي عادة الفرس عند الطعام .

(٤) في كتاب الأخبار الطوال ما يشبه هذه القصة مع بعض الاختلاف ،

المحاربين له . فمضى يكُدُّ دابته^(١) حتى إذا صار^(٢) إلى جانب غيضة والنفر خلفه ، نزل يقود دابته ، وصاح وأومأ إلى الغيضة يومهم النفر الذين يطلبونه ، أنه يصنّوت بقوم من أصحابه في الغيضة . فتوقف النفر عن طلبه ، وقالوا : لم ينزل عن دابته ونحن نكُدُّه إلا وقد صار إلى أصحابه . فتراجعوا عن مضيق كانوا صاروا إليه . فلما علم أنهم قد تراجعوا ركب دابته ومضى ، فأروه من بُعْدٍ و (قد) فاتهم .

(١) يكُدُّ دابته : يشتد عليها ويحثها على السير .

(٢) في ب : « حتى إذا وصل » .

البَابُ الثَّانِي عَشِيرٌ

(١)

فِي لُطْفِ التَّدْبِيرِ

حُكِيَ أَنَّ عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ طَيِّ (٢) ، لَمَّا بَلَغَهُ خَبَرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٣) ، أَرَادَ اللَّحَاقَ بِهِ ، وَخَافَ قَوْمَهُ عَلَى إِبْلِهِ وَمَالِهِ . فَأَمَرَ ابْنَهُ أَنْ يَتَمَسَّيَ (٤) بِإِبْلِهِ فَلَا يَرُدُّهَا إِلَّا فِي اللَّيْلِ ، فَفَعَلَ فَلَامَهُ بِحُضْرَةِ قَوْمِهِ . ثُمَّ أَمَرَهُ بَعْدَ فَتْمَسِيهِ بِالْإِبْلِ أَيْضًا فَلَامَهُ وَشْتَمَهُ وَتَوَعَّدَهُ . فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ قَالَ لِأَهْلِهِ : إِنْ لَابَنِي لَشَأْنًا فِي تَمْسِيَّتِهِ بِالْإِبْلِ ، وَإِنِّي خَارِجٌ (مَعَهُ) يَوْمِي هَذَا لِأَنْظُرَ مَا شَأْنُهُ . فَخَرَجَ مَعَ إِبْلِهِ وَجَعَلَ وَجْهَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٥) . فَلَمْ يَفْتَقِدْهُ قَوْمُهُ إِلَّا مِنَ الْغَدِ ، فَخَرَجُوا فِي طَلَبِهِ فَلَمْ يَدْرِكُوهُ .

وَحَدَّثَ الْمَدَائِنِيُّ قَالَ : دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَقَالَ : لِأَلْقَيْنَ بَيْنَ قُرَيْشٍ

(١) فِي ب « فِي لُطْفِ الْمُخْلِصِ » .

(٢) عَدِيٌّ بْنُ حَاتِمٍ طَيِّ : مِنْ الْمُعَمَّرِينَ ، اشتهر أبوه حَاتِمُ الطَّائِي بِكْرَمِهِ الَّذِي غَدَا مُضْرِبَ الْأَمْثَالِ . أَدْرَكَ الْإِسْلَامَ وَوَفَدَ عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ لِلْهِجْرَةِ . وَقَدْ امْتَدَحَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ حِينَما وَفَدَ عَلَيْهِ لَمَّا صَارَ خَلِيفَةً . وَانْضَمَّ إِلَى الْإِمَامِ عَلِيِّ وَحَارَبَ مَعَهُ فِي مَعْرَكَتَيْ الْجَمَلِ وَصَفَيْنَ .

(٣) فِي ١ : « خَبَرُ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ » وَهُوَ غَيْرُ مُسْتَقِيمِ الْمَعْنَى ، إِذْ كَيْفَ يَرِيدُ اللَّحَاقَ بِهِ بَعْدَ بُلُوغِهِ خَبَرِ وَفَاتِهِ .

(٤) يَتَمَسَّى : يَجْبَىءُ مَسَاءً .

(٥) فِي ١ : « وَجَعَلَ وَجْهَهُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ » وَهُوَ خَطَأٌ ، لِأَنَّ عَدِيًّا وَفَدَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

حرباً لا تُطفأ أبداً . فأناخ ناقته على الحزورة ، وهى أكمة وسط مكة ، وقال : لينحرها أعز قريش . فنحرها أبو سفيان بن حرب ، فقال عتبة بن ربيعة ^(١) : أأنت أعز قريش ؟ قال : مَنْ كنت ابن عمه ^(٢) كان أعزهم . وقال سعيد بن العاص ^(٣) : أأنت أعز قريش ؟ قال : نعم ، بعزك . فأطل ^(٤) الناقة ولم يقع بينهم إلا خير . وانقلب الرجل خائباً .

وحكى العتي ^(٥) عن أبيه قال : خاصم هشام بن عبد الملك ^(٦) ، إسحاق ابن طلحة بن عبيد الله فى بعض الأمور ، وأغلظ له هشام . فقال له إسحاق : أنت تظلمنى يا أمير المؤمنين ، فاجعل بينى وبينك قاضيك . ففعل . قال : فطرح

(١) عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، من زعماء قريش فى الجاهلية ، عرف بالحلم والدهاء . وقد اشتهر فى حرب الفجار الأولى التى نشبت بين هوازن وكنانة ، حيث احتكموا إليه ونزلوا على حكمه . أدرك الإسلام وقاتل النبى صلى الله عليه وسلم فى معركة بدر وقتل فيها . وهو ابن عم حرب بن أمية .
(٢) فى ١ : « ابن عمته » .

(٣) سعيد بن العاص الأموى ، صحابى من قواد الفتوحات الإسلامية ، فتح طبرستان . وقد ولى الكوفة لعثمان . وهو أحد الذين أسهموا فى كتابة المصحف على عهد عثمان ، كما دافع عنه عندما قامت الثورة عليه . ثم اعتزل عند نشوب الحرب بين الإمام على ومعاوية : وقد استرضاه معاوية وولاه ولاية المدينة وبقى فيها حتى مات .

(٤) أطل الناقة : أضاع دمها .

(٥) العتي : محمد بن عبيد الله بن عمرو ، أديب بصرى كثير الأخبار حسن الشعر . له تصانيف عديدة فى أخبار العرب وأيامها ، وأكثر أخباره عن بنى أمية . وسمى بالعتي نسبة إلى جده عتبة بن أبى سفيان .

(٦) تولى الخلافة بعد أخيه يزيد بن عبد الملك ، توفى سنة ١٢٥ هـ .

لها مصلًى بين يدي القاضي فجلسا عليه ، ثم اختصما . فتوجه القضاء على هشام . فقام إسحاق فقال رافعاً صوته : الحمد لله الذي حال بينك وبين ما أردت من ظلمي . فأحفظ^(١) هشاماً فقال : والله لقد هممت بأن أضربك ضرباً أنثر منه لحك وأسيل منه دمك على قدمك . قال : يا أمير المؤمنين ، أما والله لئن ضربتني لتضربني رحماً قربية وبدناً ضعيفاً قد ذهب أكثره وبقي أقله . قال : فاسترها عليّ . قال : لا والله إلا بشئها . قال : ثمنها مائة ألف . قال ، فسترها عليه ، وحدث بها بعد وفاته لابنه^(٢) .

وحكى العتبي قال : بينا الحجاج في مسجد واسط يوماً إذ مرَّ به رجل لم يرَ رجلاً (قط) أقرب ما بين هامته وقدمه (منه) فدعا به وكلمه . ثم قال : إيتوني بفلان ، يعني رجلاً من المجوس في حبسه . قال : فأتى برجل نكس رأسه حين أراد دخول المسجد كأنه عادي^(٣) . فقال الحجاج : افرج بين رجليك ، ففعل . فقال للقصير : مرّ بين رجليه . فقال : أصلح الله الأمير (ليس في هذا المسجد أحفظ لكتاب الله ولا أقرأ له مني ، فإن رأى الأمير أن لا ينجس كتاب الله عز وجل بمرى بين رجلى هذا الكافر (فليفعل) . قال : (صدق) خلّوا سبيله .

وحكى الهيثم بن عديّ قال : سمعت أشرس بن ثمامة يحدث عن الحسن ابن عمارة قال : دفع يوسف بن عمر^(٤) إلى رجل من النخاسين من بني أسد

(١) أحفظه : أغضبه .

(٢) في ١ : « لأيه » .

(٣) عادي : نسبة إلى قوم عاد الذين اشتهروا بطول القامة وضخامة الجسم .

(٤) يوسف بن عمر الثقفي ، من ولاية بني أمية المشهورين . وقد احتذى حذو الحجاج في العنف والشدة في حكمه .

ألف دينار ، وقال له : انهدر إلى البصرة فاشتر لي بها عشر وصائف . قال : فحدثني الرجل الأسدي ، قال : فطلبتهم بالبصرة حتى وجدتهن ، فلما أردت الانصراف نظرت إلى إحداهن فإذا بها شامة سوداء مثل هذه ، وأشار بيده ، فأردت ردّها فلم أقدر على ذلك . قال : فقدمت بهن فأدخلتهن الحمام وهياتهن ، ثم قلت لصاحبة الشامة : تسمعين ؟ قالت : نعم . قلت : إذا قدّمتُ إليه جارية فتقدمي فإذا زجرتك فانزجري ، وأفعل ذلك مرات . قال : فدخلتُ على يوسف ، قال : ما صنعت ؟ قلت : خيراً ، قد جئتُك بحاجتك على ما تريد . قال : ادخلهن . فقلت : يا جارية تقدمي ، فتقدمت تلك ، فقلت : وراءك . فرجعت . قال : فعرضت عدة « جوار » وهي تتقدم وأنا أردّها . فقال : ما بال هذه ؟ قلت : أصلح الله الأمير ، إنه بلغني أمر هذه فغاليت (بها وزدت) في ثمنها على أثمانهن ، وبها شامة زعمت العلماء أنها لم تكن بامرأة قط في ذلك الموضع إلا ولدت ملكاً من الملوك ، فقال لعلام له خصي : اذهب إلى فلانة فقل لها تصنعها . قال : فأفلتُ والله منه ، وجعلت لله على أن لا أعود لمثلها أبداً .

وحدث الوليد بن هشام الحزومي عن أبيه عن مسّلة عن محارب قال : قال معاوية : إن عمرأ احتجز^(١) دوننا خراج مصر ، وعزله واستعمل أبا الأعور السلمي^(٢) . فبلغ عمرأ الخبر فدعا وردان مولاه وقال : ويحك يا أبا عثمان عزّلنا

(١) في ب : « احتجن » والمعنى واحد .

(٢) أبو الأعور السلمي : هو عمرو بن مفيان ، كان أبوه أحد قادة قریش في معركة أحد . وحارب أبو الأعور في اليرموك . وانضم إلى معاوية في خلافة مع الإمام على ، وحارب معه في صفين وكان مقرباً إليه . عينه معاوية والياً على منطقة الأردن .

معاوية . قال : فمن استعمل ؟ قال : أبا الأعور الشامي ، فهل عندك من حيلة لطيفة تتخلص بها من المكروه الذي أظلمنا ؟ قال : نعم ، اصنع له طعاماً ولا تنظر له في كتاب حتى يأكل ، ودعنا نفعل ما نريد . (قال : نعم) .

فلما قدم عليه أبو الأعور وأخرج كتاب معاوية بتسليم العمل إليه ، قال له عمرو : وما نصنع بالكتاب ؟ لو جئتنا برسالة قبيلنا ذلك منك ، ضع الكتاب وكل . قال : انظر في الكتاب . قال : ما أنا بناظر فيه حتى تأكل . فوضعه إلى جانبه وجعل يأكل . فاستدار له وردان فأخذ الكتاب والعهد .

فلما فرغ أبو الأعور من غذائه ، طاب الكتاب فلم ير شيئاً ، وقال ؟ أين كتابي ؟ قال له عمرو : أليس إنما جئتنا جائزاً^(١) لنحسن إليك ؟ قال : استعملني أمير المؤمنين وعزلك . قال : مهلاً ، لا يظهرن هذا منك ، إنه قبيح . نحن نصلك ونحسن جائزتك . فرضي بالجائزة . وبلغ معاوية الخبر ، فاستضحك على فراشه وأقرَّ عمرًا على مصر .

وحكى المدائني أن عمرو بن معدى كرب ، هجم في بعض غاراته على جارية شابة جميلة منفردة ، فلما أمعن لها^(٢) بكت . فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : أبكي والله لفراق لبنات عمي لي مثلي في الجمال والشباب وأفضل ، خرجت معهن ناعب فانقطعنا عن الحى . قال : وأين هن ؟ قالت : خلف ذلك الجبل من الرمل ، ووددت أنك أخذتني . فأخذها إلى ذلك الموضع الذي وصفت له ، فما شعر بشيء حتى هجم عليه فارس مستلثم بالسلاح^(٣) ، فقال : خلّ عن الظعينة . فأبى عمرو . فعرض عليه المصارعة فصرعه الفارس ، ثم عرض

(١) جاز المسكان . مر به ، وفي ب : « جئتنا زائراً » .

(٢) أمعن لها : طاردها .

(٣) فارس مستلثم بالسلاح : متدرع به .

عليه ضررباً من المناوشة ، ففي كلها كان الفارس يغلبه . فسأل عمرو عن اسمه ، فإذا هو ربيعة بن مُكَدَّم^(١) ، وسمي له عمرو نفسه . فخلى عنه واستنقذ الجارية .
وحكى المدائني قال : كان ليوسف بن عمر غلام صيرفي فهرب . فقال : مَنْ كان يخالط ؟ فقل له ، كان يخالط إلى فلان الصيرفي . فقال : على به . فأرسلوا إلى الشيخ فأوصى حين دعا به . فتلقاه رجل من ثقيف فقال له : أذكرك الله تعالى لما دخلت معي . قال : ليس ينفعك أحد . ولكنني أشير عليك بشيء عسى أن تنجوه به إن كان شيء ينجيك . كلما سألك عن شيء أو قال لك فعلت كذا وكذا ، فقل نعم . وإياك أن تقول لا . فلما دخل عليه ، قال : يا شيخ ، أفسدتم غلامي ؟ قال : نعم . قال : وأكلتم مالي ؟ قال : نعم . قال : وأمرتموه بالهرب ؟ قال : نعم . قال : أفرقت يا شيخ ؟ قال : نعم . قال : ارجع إلى أهلك ، خلوا سبيله .

(١) ربيعة بن مكدم : من بني كنانة وأحد الفرسان المعددين في الجاهلية . وله أخبار في الحرب والطعان كثيرة .

الباب الثالث عشر

في المكائد على الأعداء

حُكي أن صباحاً الصقلبي^(١)، لما وفد على الواثق بالله^(٢)، جهزه الواثق لغزو الروم مما يلي البحر، بأحسن جهاز من المراكب والرجال وسائر الآلات. فخرج في البحر، وكان لا يقصد لهم ناحية إلاّ بلغ منها حاجته. وكان أكثر ما يفعل^(٣) جيوش الروم بالنار. فبلغ ذلك من الروم (وأقلق ملكها^(٤)) فوجه إليه ملك الروم رجالاً مستعربة من ثقاته مستأمنة، فقرح صباح بهم. ثم أناخ على حصن يقال له انطاكية على ضفة البحر. فاحتال أولئك المستأمنة لنفط صباح وصبوا فيه الخل الثقيف مدوفاً بالمغرة^(٥)، ثم لوّحوا لأهل الحصن بعلامة بينهم، فهم بها أن نفط صباح قد فسد. وأوقد أهل الحصن للروم بعلامة (بينهم) فقصد جيش من الروم لا ترام كثرته. وبلغ ذلك صباحاً

(١) صباح الصقلبي : أحد القواد الذين اشتهروا في العصر العباسي الأول ، وقد اشتهر في غزواته في بلاد الروم .

(٢) الواثق بالله : الخليفة العباسي ، هرون بن محمد المعتصم ، توفي في سامراء سنة ٢٣٢ للهجرة .

(٣) يفل الجيش : يفرقه ويهزمه .

(٤) في ١ : « فبلغ ذاك ملك الروم فوجه إليه » .

(٥) الخل الثقيف : الحامض جداً ، ومدوفاً : مخلوطاً ومذاباً ، والمغرة : طين

أحمر يصبغ به .

فلم يحفل به . فلما وافى الجيش رمى بالنار فلم يعمل النفط . فُقُتِلَ (هو)
وجميع من معه .

وحُكِيَ أن رجلاً خرج بناحية خراسان ، يُقال له صالح بن أبي حبال ،
من أهل مرو الشاهجان^(١) ، يدعو إلى آل أبي طالب . وكان مخرجه على عهد
المهدى . فوجه المهدي لمحاربته جعفر بن محمد بن الأشعث الخزاعي . فقال جعفر
للمهدى : يا أمير المؤمنين ، إن هذا الرجل قد عظم شأنه جداً ، والحيلة فيه
أبلغ من محاربته ، فإن وجهي إليه أمير المؤمنين وهو من نيتي على الثقة ،
وينزل كل ما يبلغه عني على أحسن وجوهه ، رجوت أن أبلغ محبته^(٢) .
وإلا عمت بما يرى أمير المؤمنين من محاربته . قال له المهدي : امض واحتل
بما رأيت فأنت عندنا في حال من الثقة .

فخرج جعفر يريد خراسان ، فكاتب صالحاً من كل منزل نزله ، يواصله
بكتبه ويعلمه أن الحق معه وأنه على متابعتة . حتى ورد جعفر مرو ، فدخلها
بصلح وقع بينه وبين صالح بن أبي حبال . ثم أظهر جعفر أنه عليل ، وكتب
إلى صالح يعلمه أنه لا بد من لقائه ليدير ما يحتاجان إليه على بني العباس ، وأنه
عليل ولولا علته لصار إليه . وأقبل صالح حتى وافى مرو ، ثم ركب إلى منزل
جعفر في أفضل عدته ورجاله وسلاحه . ثم وقف بباب جعفر فراساه ، فاتفقا على
أن يدخل عليه في مائة رجل من أصحابه ، فأجابه جعفر إلى ذلك . وملاً بيوت

(١) مرو الشاهجان : هي مرو العظمى ، أشهر مدن خراسان وقصبتها . وسميت
شاهجان لجلالتها وعظمتها . ويطلق عليها أحياناً (مرو) فقط . (معجم البلدان ٨ :
٣٣ - ٣٨) .

(٢) لعل الصواب : ما يحبه .

داره بالرجال عليهم الجواشن^(١) ومعهم السيوف ، وقال لهم جعفر : إذا كثرت
فاخرجوا على صالح وعلى مَنْ معه . ثم أذن لصالح فأدخل وعليه جوشن وخوذة
ومعه عمود ، ومعه مائة من أصحابه في مثل ذلك الزى . وجعفر في صحن الدار على
سرير عظيم .

فقعد صالح إلى جعفر ، وجعفر في ثوبين رقيقين ولا سلاح عليه . فلما رآه
صالح في ذلك الزى استرسل ، فقال جعفر : أتيتنا متقبضاً^(٢) ونحن واثقون بك
ونحتاج إلى أن تتفاوض في أمور نكتبها حتى تظهر في أوقاتها . قال صالح لمن
بقربه من رجاله : تنحوا جميعاً ، فتنحوا عنهما . قال صالح لجعفر : إن أكثر
من في عسكر محمد بن عبد الله ، يعنى المهدي ، قد كاتبني . قال له جعفر :
الله أكبر ، ورفع صوته ليخرج رجاله على رجال صالح ، فلم يخرجوا ، وتناظرا
ساعة ، قال جعفر : فأين الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن صبيان
بنى العباس يتلاعبون بها . قال صالح : ما أحب أن أسمع منك مثل هذا ، وهذا
الأثر كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال جعفر : الله أكبر ، ورفع
صوته فوق مقدار كلامه كالمستحث لأصحابه . فتغيّر وجه صالح وأنكر رفع
صوته ، وحسّ بأن ذلك من جعفر علامة بينه وبين رجاله ، فوثب صالح مسرعاً
لينزل من السرير .

قال جعفر : فقلت في نفسي متى ألقى هذا بعد اليوم إلا في حرب . فوثب
جعفر إليه كالمعظم له ، القائم بقيامه . وقال : لتدخل دابته ، حتى قرب منه ،
ثم أدخل رجله بين رجلي صالح وأخذ يده بيده ، ومنعه من إخراج خنجره ،

(١) الجواشن : جمع جوشن ، وهو الدرع .

(٢) تقبض عن الأمر : أخذ موقف الحذر منه ، أى كان حذراً غير منبسط .

وكَبَّرَ تكبيرة شديدة ، فتحرك رجال جعفر في البيوت ولم يخرجوا ، فسمع رجال صالح صوت الحديد من البيوت فهربوا نحو الباب . وجعل يروم خنجره فلا يقدر عليه . وجعفر يصيح برجاله ، فلم يخرج منهم أحد . حتى لحق جعفرًا غلام له طَبَّاح يكنى بأبي حميد ومعه طبرزين^(١) ، فأخذ خوذة صالح عن رأسه وضرب رأسه بالطبرزين ضربة أسكرته . فوثب جعفر عن صدره ووالى عليه أبو حميد حتى قتله .

ومضى جعفر فأخرج رجاله من البيوت وقال لهم : الحقوا باب الدار فقد قُتل صالح . وأغلق باب القصر ، فضربه أصحاب صالح ، وهم نحو من عشرين ألف بالنار ، فأمر جعفر مَنْ زاد على الباب حطبًا حتى لا يمكن دخول الدار . ثم رفع رأس صالح لأصحابه وقال لهم : لكم جميعًا الأمان ، فمن أقام فديوانه له ، ومن رجع إلى بلاده فهو آمن . فأقام أقلهم مع جعفر ؛ ومضى أكثرهم حين رأوا رأس صاحبهم .

وحكى أن جماعة من العرب كانوا يكثرون الغارة على قرية بالشام . وكان بين القرية وبين الحى الذى يغيرون منه مفازة جذبة صعبة المسلك ، وكان فيها بئر يمر المغيرون بها فيشربون منها . فيمتنع طلبهم على السلطان لتلك المفازة وجهلهم بموضع البئر . فقال رجل من حكماء أهل القرية : إن هؤلاء العرب لا يقطعون إليكم هذه المفازة إلا وقد وجدوا ماء يشربون منه مقبلين وراجعين ، فاحتالوا لتعرفوا الماء . فوجهوا قومًا منهم بتجارات إلى حى أولئك الأعراب ، فأقاموا بينهم حتى أنس الأعراب بهم . ثم سألوا دليلًا يخرجهم إلى الريف ، وبذلوا

(١) الطبرزين : الطبر ، وهو الفأس من السلاح .

للدليل جُعلًا^(١) . فخرج الدليل بهم حتى وقف على الماء الذى فى المفازة . فإذا
بئر غزيرة فتزودا منها . فلما وصلوا إلى أهل القرية أعلموهم بذلك ، فردوه إلى
حاكهم^(٢) ، فأمرهم أن يطرحوا فى البئر جيفًا كثيرة ، فامتنع على الأعراب
وُرودها ، فانقطعت الغارة عن أهل القرية .

(١) الجعل : الأجر .

(٢) لعل الصواب « حكيمهم » لسبق الإشارة إليه .

الباب الرابع عشر

في مكايكة صغير كبير

حُكي أن المنذر بن ماء السماء^(١) صاحب الحيرة ، كان خليفة كسرى على طائفة من العرب وطَّف السواد^(٢) ، وكان منزله في الحيرة على طَف السواد ، لما هلك ، شَخَص عدى بن زيد العبادي^(٣) إلى كسرى ليسأله أن يستخلف النعمان بن المنذر في موضع أبيه . فأقبل يريد باب كسرى على ناقة له ، وكسرى ينظر إلى مَنْ على بابه من حيث لا يرونه . فجلس عدى بن زيد بالباب ، فأطاف به أحداث من الفرس يستهزئون به ، فقالوا له ، وكسرى يسمع : يا أعرابي أيُّ شيء أقوى ؟ قال : ناقتي هذه . قالوا له : هي أقوى من الفيل ؟ قال : نعم . قالوا : وكيف ذاك ؟ قال أحمل عليها

(١) هو المنذر الثالث بن امرئ القيس : وماء السماء اسم أمه . وكان من أشهر ملوك المناذرة في الحيرة . وهو صاحب يومى النعيم والبؤس . وقد عاصر قباذ ملك فارس وابنه أنو شروان . نفاه قباذ لأنه أبى أن يدخل في دين مزدك ، ونصب مكانه الحارت بن عمرو ملكا على الحيرة . إلا أن أنو شروان عند ما ولى الملك أعاده إلى عرشه .

(٢) كَطَف السواد : الطف ما أشرف من الأرض ، أو الجانب منها ، والسواد الأرض الممتدة بين البصرة والكوفة وما حولهما من المدن والقرى .

(٣) عدى بن زيد : نشأ في فارس وأصبح كاتب العربية لكسرى . وكان له نفوذ في الحيرة ، وقد لعب دوراً مهماً في تعيين النعمان بن المنذر ملكا على الحيرة دون إخوته الآخرين . إلا أن النعمان غضب عليه بعد مدة فحبسه ، ثم قتله .

بوزنها وهى باركة ، ثم أثيرها فتقوم ، وأحمل على الفيل بوزنه فلا يحمله .
فعجب كسرى من حجته . قالوا : يا أعرابي ، فأى شيء أشد صوتاً ؟
قال : ناقتى هذه . قالوا : بل الكركى أشد صوتاً . قال : وكيف ذاك ؟ قالوا :
الكركى يصيح وهو محلق فى جوف السماء فنسمعه . قال : فارتفعوا ناقتى
حتى تصيح معه ، أو انزلوا الكركى حتى يصيح بجانب الناقة ، فهى أشد
صوتاً . فعجب كسرى من حجته . قالوا : فأى شيء أطيب لحماً ؟ قال : ناقتى
هذه . قالوا : هى أطيب لحماً من الدجاج والفراخ ؟ قال : نعم ، خذوا دجاجاً
وفراخاً ومن لحم ناقتى هذه حتى نطرحه فى قدر واحدة ثم يطبخ ، وبعد ما ينضج
الجميع ويطيب ، فإن نضج لحم الناقة قبل غيره وزاد فى الطيب عليه ،
وإلا فحكمكم . فعجب كسرى منه ، فدعا به فناظره . فقال عدى بن زيد :
إن النعمان أفضل إخوته ، ولو أحضرهم الملك فامتحنهم لعرف ذلك . فأحضر
ولد المنذر وكانوا عشرة ، النعمان أصغرهم سنّاً ؛ فحلبوا بكل واحد منهم ، فقال له :
من أفضلكم ؟ قال : أنا أفضل إخوتى . حتى بلغ إلى النعمان فقال له : من
أفضلكم ؟ قال النعمان : كل إخوتى أفضل منى . فأعجب به كسرى . فملك
النعمان بن المنذر دون إخوته .

وسأل عدى كسرى أن يجعل ابناً له كان معه فى خدمته ، يقال له زيد ،
ففعل كسرى ذلك . فحذق ابنه كلام الفارسية ، وكان حاذقاً بالعربية ، فصار
ترجماً لكسرى على العرب .

واستحوذ عدى على أمر النعمان بن المنذر وغلب عليه . وكان فى الحيرة
قوم يقال لهم بنو بَقِيلَةَ^(١) ، كانوا كتّاب الملك ووزاءه ، فنحّاهم عدى

(١) جدّهم الحارث وسمى بقيلة ، وإنما سمي بذلك لأنه خرج على قومه فى
بردين أخضرين ، فقالوا له : ما أنت إلا بقيلة خضراء . ويظهر أن آل بقيلة ،
استمروا فى الحيرة حتى الفتح الإسلامى . (الطبرى ٣ : ٣٥٩ - ٣٦٥) .

واستخف بهم . ثم إن عدياً سأل النعمان أن يزوره إلى منزله ، وهياً له ولأصحابه طعاماً ؛ فخرج النعمان يسير إلى عدي ، في جنده الصنائع والوضائع ، كما يقال الجند والشاكرية^(١) . فرّ على دور بني ببيعة وقد وضعوا له أسمطة الطعام وآنية الشراب على الطريق . فقاموا إليه فقالوا : أبيت اللعن أيها الملك ، شرفنا بأن تنزل عندنا فتأكل طعامنا . قال النعمان : قد وعدت عدياً أن أصير إليه ولا يحسن تركه ، ولكن لكم يوم بيوم . فقالوا له : ياسيدهم ، فنقدم إليك جام حلوى فتضع أصبعك فيه بقدر ما تكون قد مسّت طعامنا . قال : نعم . فقدموا طبقاً فيه طعام ، فوضع إصبعه عليه . ثم قالوا له : ياسيدهم ، إنا قد أعدنا لك قينة حسناء مجيدة ، تنظر إليها فإن أعجبتك قبلتها . قال : نعم . فأخرجوا إليه جارية فائقة الحسن كأنما تطلع الشمس من وجهها ؛ فلما رآها - وكان مفرماً بالنساء - ذهبت بنفسه . فأمرها فجلست على كرسي ، ثم أخذت مزهراً ، وهو العود ، فغنت . فطرب ودعا بقدر من شراب فشربه ، ثم غنت فشرب . فقالت له بنو ببيعة : لو نزلت أيها الملك ، فقد هيأنا داراً مفروشة فسررت يومك بجاريته ، وجعلت لعدي يوماً مكان هذا ، وعوّضته من نفقته . قال لهم : نعم . فنزل عندهم في دار قد نُجِّدَتْ^(٢) له ، وبعث إلى عدي يعتذر إليه . وأكل أصحابه الطعام ، فأقام يوماً في غاية السرور ، وبات بجاريته في دار بني ببيعة .

(١) الصنائع هم الجنود المدربون المختارون ، والوضائع جماعة من الجند يوضعون في موضع ما لحمايته والشاكرية من فرق الجيش ظهرت أيام المهدي واستفحل أمرها أيام المستعين ، وقد تمردوا عدة مرات ببغداد .

(٢) نُجِّدَتْ : أثت .

وبلغ الخبر عدياً فأحنقه وأغضبه ؛ فلما كان من الغد ، قالت الجارية للنعمان : يا سيدها ، كيف كانت ليلتك ؟ قال : أطيب ليلة . قالت له : نعم ، لولا ما أخاف عليك من سخط عدى . قال النعمان : ومن عدى حتى يسخط على ؟ وهل هو إلا أحد عبيدى ؟ قالت له : هيهات ، ما هو عند نفسه فيما يُبدي ويقول ، إلا أنه اصطنعك وولاك موضعك . قال : ليس هو كذلك . قالت له : فارسل إليه أن يصير إلى هذه الدار ، فإنه لا يفعل . فبعث إلى عدى من يدعو ، فأبى أن يجىء . فاستحيا النعمان من الجارية وبعث إلى عدى من يعزم عليه ليصيرن إليه ، فدخلت عدياً دالة عليه بخدمته أن يجيئه . وكان يقال آفة الخدمة الدالة ، فأبى على الرسول وأغلظ له ؛ فوجه إليه النعمان من سجنه ، وأمر بحبسه وتقييده ؛ فأنشأ عدى يقول فى (الحبس) من قصيدة له طويلة :

أيها الشامت المفسر بالدهر أنت المـبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيام بل أنت جاهل مغرور
أم رأيت المنون أبقيين أم من ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى كسرى الملوك أبو ساسان ، أم أين قبله سابور
وبنو الأصفر الكرام ملوك الروم لم يبق منهم مذكور
وأخو الحضرة إذ بناه وإذ دجلة تجبى إليه والخابور^(١)
شاده مرمرأ وجـلله كلساً فلطير فى ذراه وُكور

(١) الحضرة : تقع بقايا هذه المدينة فى الجزيرة غربى وادى الثرثار وعلى مقربة منه . وقد أسسها عرب الجزيرة ، وازدهرت فيها الحضارة عند ما صارت مركزاً تجارياً فى منتصف القرن الثانى للميلاد . وحافظ حكامها العرب على استقلالها من الحكم الرومانى والحكم الفارسى حتى منتصف القرن الثالث للميلاد ، حينما هاجمها سابور الأول الساسانى واستولى عليها وخرّبها . والخابور أكبر روافد نهر الفرات .

لم يهبه ريبُ المنون فأضحى زائل الملك بابه مهجور^(١)
ثم بعد الفلاح والملك والإمّة دارتهم هناك القبور^(٢)
ثم أضحوا كأنهم ورق جفّ فألوت به الصبا والدبور^(٣)
وتفكر رب الخورنق إذ أشرف يوماً وللهدى تفكير^(٤)
سرّه ماله وكثرة ما يملك والبحر معرّض والسدير^(٥)
فارعوى قلبه فقال وما غبطة حتى إلى الممات يصير^(٦)

وحكى أن عدياً لما حبسه النعمان كتب إلى ابنه زيد بن عدى يعلمه
الخبر . فلما بلغ الخبر زيداً ، بلغ منه وأرمضه^(٧) . وكان كسرى أبرويز مغرماً
مستهتراً بالنساء ، فقال زيد بن عدى لكسرى أبرويز : أيها الملك ، إن للنعمان

(١) و يروى هذا البيت كما يلي :

لم يهبه ريب المنون فباد الملك عنه فبابه مهجور

(٢) الإمّة : النعمة .

(٣) الصبا والدبور : الصبا ريح مهبها من مطلع الثريا إلى بنات نعش ، والدبور
الريح التي تقابل ريح الصبا . وألوت به : ذهبت به .

(٤) و (٥) الخورنق والسدير : قصران عظيمان بناهما النعمان الأول بن امرئ
القيس الثاني أشهر ملوك المناذرة ، وكانت تحيط بهما البساتين الغناء والرياض النضرة
والمياه الجارية . و يروى أنه قتل الشخص الذي بنى الخورنق واسمه (منار) لكلا
يعرف أحد سر قوة البناء . راجع : تاريخنا بأسلوب قصصى ، ص : ٤٦ - ٤٧ .

(٦) وتروى هذه القصيدة في المصادر الأخرى بتقديم وتأخير تسلسل أبياتها .

انظر مثلاً :

البدء والتاريخ ٣ : ٢٠٠ - ٢٠١ . غرر السير ، ص ١٣٢ . وفيات الأعيان

٦ : ٢٤٣ .

(٧) أرمضه : آلمه .

ابن المنذر أخوات كأنهن الكواكب حسناً وكلاً . قال كسرى : وكيف لنا بهن ؟ قال زيد : إن أرسلني الملك إليه جئت بهن . قال كسرى : فامض برسالتى إليه فإنه لا يذهب بأخواته عنى . فشخص زيد بن عدى برسالة كسرى إلى النعمان يطلب منه أخواته . فشق ذلك على النعمان ، وكره أن يرسل إليه بأخواته^(١) .

قال النعمان لزيد بن عدى حين أبلغه الرسالة : أما للملك شغل فى نساء عنده كأنهن العين ، يعنى بقر الوحش ، عن نساء عربيات سود الحاجر ، دقاق الأسوق^(٢) . وسأل النعمان زيدا أن يحسن الرسالة ويدفع (أبرويز) عنهن . فرجع زيد ، وعلم النعمان أن عدياً هيج هذا عليه ، فأمر به من قتله فى حبسه^(٣) . فلما دخل زيد بن عدى على أبرويز ، قال : ما وراءك ؟ قال زيد : أجبني بجواب أجل الملك عنه . قال أبرويز : وما هو ؟ قال زيد : لا أطيق اللفظ به ، وأخاف إن قتلته على نفسى ، قال أبرويز : (قل) فأنت آمن على نفسك . قال زيد : إن النعمان لما بلغته رسالة الملك ، قال : أما له شغل ببنك البقر عن نساء العرب ؟ فغضب أبرويز غضباً شديداً . وكان وهو صبي صغير يُعَيَّر بأنه وجد ينكح بقرة ، فيغضب من ذلك ويشتم من قال له . فاستشاط ووجهه جيشاً فى طلب النعمان . فهرب النعمان وحمل معه امرأته المتجردة^(٤) (وجلة قومه) وخيله وإبله ،

(١) كان العرب يأنفون من تزويج بناتهم من الفرس .

(٢) الأسوق : جمع ساق .

(٣) راجع عن قتل عدى بن زيد : أسماء المقتالين ص ١٤١ .

(٤) المتجردة : زوجة النعمان ، وقد مدحها النابغة الذبياني بقصيدة وصفها بها وصفاً مكشوفاً ، عند ما كان ينادم النعمان وراها وقد سقط نصيفها فاستترت يدها . (والنصيف كل ما غطى الرأس من خمار وغيره) ومطلعها :
=

وما أمكنه من أثاثه وماله وأبنيته . فكلما صار إلى قبيلة من قبائل العرب ، أبت عليه أن تؤويه خوفاً من كسرى ، حتى صار إلى سلمى جبل طيء ، فأوته طيء^(١) .

وكانت إبله وخيله تسرح وترجع وقد تطرقت^(٢) وسُرقت . فقالت امرأته المتجردة : إن خيلك وإبلك في كل يوم تنقص ، وإن دام هذا عليك بقيت فقيراً وقتلتك طيء . ولعلها إنما تؤويك ، لمالك ، فإن ذهب مالك (ربما) تقربت بك إلى كسرى . قال النعمان لها : (فما) الرأي عندك ؟ قالت : إن كسرى بلغَّ عنك ما لم تقل . فتصير (إليه) وتعتذر وتحلف له . فقبل النعمان وجاء يريد كسرى . حتى إذا صار بوادٍ بين الكوفة والبصرة يقال له ذوقار ، خلف ابنته حُرقة وهنداً عند قبيصة بن هانيء الشيباني^(٣) ، وسيوفه ودروع وخيله ، ثم خرج يريد كسرى .

= أمن آل مية راعٍ أو مغتد عجلان ذا زاد وغير مزود
وفيه يقول :

سقط النصف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتا باليد
بمخضب رخص كأن بنانه غم ، يكاد من اللطافة يعقد

(١) جبل سلمى : كانت منازل طيء في اليمن وقد خرجوا منها بعد ميل العرم ، فنزلوا بنجد والحجاز . ثم تغلبوا على بني أسد وأجلوهم عن جبلى أجأ وسلمى في نجد ونزلوها ، فعرفا بجبلى طيء .

(٢) تطرقت الإبل : تفرقت ، أو ذهب بعضها إثر بعض .

(٣) في بعض المصادر أنه أودع ذلك عند هانيء بن مسعود الشيباني سيد بني شيان وأن هانيء هذا هو الذي نصحه بأن يصير إلى كسرى ويعتذر إليه . (مروج الذهب ١ : ٢٩٥) .

فلما بلغ كسرى مقدمه ، أمر فضرب على طريقه ألف قبة (من) ديباج^(١) ،
على باب كل قبة جارية مكحلة بالخل ، وأمرهن أن يقرن : أما فينا غنى للملك
عن البقر ؟ وظنّ النعمان أنهن كرامة هيئت له ، فقلن ما أمرن به . ولقيه زيد
ابن عدى ، فقال له : بخ نعيم^(٢) ، لقد أخيت لك أخية^(٣) لا يقلعها المهر الأرن ،
يعنى النسيط . فأمر به كسرى فطرح تحت الفيلة فداسته فقتلته^(٤) . وفيه قال
الأعشى^(٥) :

هو المدخل النعمان بيتاً سماؤه نحر الفيول بعد بيت مُسَرْدَق^(٦)

(١) لا شك أن في الخبر مبالغة . وهذا ما اعتدناه في المؤلفات القديمة وخاصة
في أخبار الفرس ، إذ أنها تبالغ في الأرقام للمباهاة ، أو لتجعل منها مدعاة
للاهتمام بالحكاية .

(٢) نعيم : تصغير النعمان ، تحقيراً له .

(٣) الأخية : عروة تربط إلى وتد وتشد فيها الدابة . وهو مثل يضرب لمن يعقد
أمراً يصعب التغلب عليه .

(٤) كان مقتل النعمان سبباً في حرب ذي قار بين العرب والفرس .
راجع تفصيلات هذه الحرب في : أيام العرب في الجاهلية ص ٦ - ٣٩ .

(٥) الأعشى : هو ميمون بن قيس بن ثعلبة . يعتبر من شعراء الطبقة الأولى في
الجاهلية ، ويعرف بأعشى قيس .

(٦) البيت المسردق : البيت الذي نصب عليه السرادق ، وهو الخيمة التي تمد
فوق صحن البيت .

البَابُ الْخَامِسُ عَشْرُ

فِي دَفْعِ مَكْرُوهِه بِقَوْلٍ

حُكِيَ أَنَّ رَجُلًا مَرَّ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِمَكَّةَ قَبْلَ هِجْرَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَغْنَى فَإِنْ خَلْفِي مِنْ يَطْلُبُ دَمِي . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اَمْضِ لَوَجْهِكَ لِأَصَدِّ الْطَلْبِ عَنْكَ . ثُمَّ قَامَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَلَسَ بَعْدَ نَفْوْذِ الرَّجُلِ ^(١) ، فَإِذَا قَوْمٌ يَتَعَادُونَ ^(٢) بِالسِّيُوفِ ، فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ ، هَلْ مَرَّ بِكَ رَجُلٌ هَارِبٌ مِنْ صِفْتِهِ كَذَا وَكَذَا ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَمَا مِنْذُ جَلَسْتُ فَلَا . فَصَدَّقَهُ الْقَوْمُ وَانصَرَفُوا فِي غَيْرِ ذَلِكَ الطَّرِيقِ .

وَحُكِيَ أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ لَمَّا حَارَبَ حَنْظَلَةَ بِأَرْضِ الْيَمَامَةِ وَقَتَلَ مَسِيلَةَ الْكَذَّابِ ^(٣) ، حَتَّى صَارَ إِلَى حَصْنِ لَبْنَى حَنْظَلَةَ . فَخَرَجَ إِلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ

(١) بَعْدَ نَفْوْذِ الرَّجُلِ : بَعْدَ جَوَازِهِ .

(٢) يَتَعَادُونَ : يَعْدُو بَعْضُهُمْ خَلْفَ بَعْضٍ لِلْقِتَالِ .

(٣) هُوَ مَسِيلَةُ بْنُ ثُمَامَةَ بْنِ وَائِلٍ ، نَشَأَ فِي الْيَمَامَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . وَعِنْدَ مَا بَلَغَهُ ظُهُورُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَدِمَ إِلَى الْمَدِينَةِ مَعَ وَفْدِ قَبِيلَتِهِ حَنْظَلَةَ فِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ لِلْهِجْرَةِ وَأَسْلَمَ ، إِلَّا أَنَّهُ عِنْدَ عَوْدَتِهِ ادَّعَى النَّبُوَّةَ فِي قَوْمِهِ ، فَسَمَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَسِيلَةَ الْكَذَّابِ . وَقَدْ تَوَفَّى الرَّسُولُ قَبْلَ أَنْ يَقْضَى عَلَى مَسِيلَةَ وَدَعْوَتِهِ ، فَتَوَلَّى ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ ، فَانْتَدَبَ إِلَيْهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَى رَأْسِ جَيْشٍ قَوِيٍّ هَاجَمَ دِيَارَ حَنْظَلَةَ وَقَاتَلَهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا قَتَلَ فِيهِ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، إِلَّا أَنَّهُ تَمَكَّنَ مِنْهُمْ وَقَتَلَ مَسِيلَةَ وَعَادَ ظَافِرًا ، فَقَضَى عَلَى حَرَكَةِ الرَّدَةِ .

الحصن فأسلم على يده ثم قال له : إن في هذا الحصن ضعفة ونساء وصبية ، فاعطهم أماناً ليخرجوا إليك ، فليس فيهم دَرِكٌ^(١) فأخذ أماناً من خالد للجميع ، ثم أخرجهم ، فخرج فيهم رجال كأنهم الأسد . فقال خالد : لم أعطك هؤلاء أماناً ، إنما أعطيتك للضعيف . قال الرجل : فهم كلهم ضعيف ، لأن الله عز وجل يقول ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾^(٢) . فكتب في ذلك إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فأجاز الأمان على خالد .

وحكى أن سابور ذا الأكتاف ، كان يكثر غزو العرب وقتلهم وطلبهم . فغزا مرة بني تميم ، وذلك في حياة عمرو بن تميم . وكان عمرو قد عُمر حتى أوفى على مائة وعشرين سنة . فلما بلغ بني تميم إقبال سابور نحوهم ، هموا بالهرب منه والتنجي عنه . فقال عمرو لبنيه وقومه : اجعلوني في زنبيل وعلقوني على شجرة وارحلوا عني ، فاعلى أ كفيكم أمره . فصيّروه على شجرة كيلا تأكله السباع ، وأعطوه قوتاً من الطعام والشراب . فلما ورد سابور منازلهم لم يرَ أحداً ، ورأى الزنبيل معلقاً فأمر به فنزل ، فإذا شيخ مثل القفة . فقال : من أنت يا شيخ ومن أين أتيت ؟ قال : أنا من الذين تطلب ، أنا عمرو بن تميم (بن مرة) بن مر بن أد بن الياس بن مضر بن نزار . فقال : إياكم أردت ، ولم تخلفت عن قومك ؟ قال : لأسألك عن قصدك للعرب وانك لا تزال تغزوهم وتطلبهم ولا ذنب لهم إليك . قال سابور : لأنه بلغني أنه يخرج منكم رجل يكون زوال ملكنا على يده . قال له عمرو : والله لئن كنت على يقين

(١) الدرك : الغلام البالغ .

(٢) سورة النساء (الآية ٢٧) .

من ذلك وكان ما أخبرت به حقاً ، إنه لينبغي لك أن تعلم أنه لو لم يبقَ من العرب إلا رجل واحد ، لما قدرت على ذلك الواحد حتى ينتهي الله فيه إلى ما تتخوف وقوعه . ولئن كان هذا شيء تظنه ظناً ، فما ينبغي لك أن تقتل على الظن قوماً براء لا ذنب لهم إليك .

فقال سابور : ويحكم ، أين كنتم عن هذا الرأي قبل اليوم ؟ فوالله لو علمت به ما غزوتكم . ثم انصرف بجيشه عنهم^(١) . وفي ذلك يقول جهم بن جندب (بن العبر) بن عمرو بن تميم يفتخر بما فعله جده على سائر بني تميم :

رددنا جمع سابور وأتم بهواة متالفها كثير^(٢)
تظل جيادنا متمطرات تدار بنا تصيح أو تغير^(٣)
فما زلنا نسل الضب منه . إلى أن عاد ليس له نكير
فهذا الحق ليس به خفاء تورثه عن الكهل الصغير

وحكى الهيثم عن مجالد عن الشعبي قال : ما رأيت أحداً قط أبسط لساناً^(٤) من صَعَصَعَةَ بن صُوحان العبدى^(٥) . فإنه قام عند المغيرة بن شعبة فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر أبا بكر

(١) وردت في « غرر السير » حكاية عن سابور وحملته هذه ولكنها تختلف عما ورد هنا ، ص : ٥٢٠ .

(٢) المهواة : ما بين الجبلين ونحو ذلك .

(٣) متمطرات : تمطرت الخيل جاءت يسبق بعضها بعضاً .

(٤) أبسط لساناً : أطلق لساناً .

(٥) من زعماء الكوفة وقد شهد صفين مع الإمام على وكان خطيباً بليغاً جريئاً .

فقال : قاتل أهل الردّة وشمّر عن ساقه وجدّ في أمر الله عز وجل ، ولم يرد الدنيا ولم ترده ، ثم مضى والأمة عنه راضون . ثم ولي عمر فقضى في الكلالة^(١) ومصرّ الأمصار وجنّد الأجناد وجبى الفىء وأدّى إلى كل ذى حقّ حقّه ، ثم مضى والأمة عنه راضون . ثم ولي عثمان بن عفان فكانت خلافته قدراً . وقتلته قدراً . فقال المغيرة : اضربوا وجهه (هذا) الفاسق . ففعلوا بضربون وجهه بالسياط ، وجعل يستر وجهه ، وقال : أمرتمونا أن نتكلم فتكلمنا ، فإن أحببتم أن نسكت سكنتنا . فقال اخرجوه إلى المصطبة^(٢) فليلعن على بن أبى طالب . فأخرج ، فقال : لعن الله من لعن الله ولعن على بن أبى طالب (فأخبر بذلك المغيرة فقال : أقسم بالله لتردّته) فردّ فقال : ألا إن الأمير أمرنى أن ألعن على بن أبى طالب فالعنوه لعنه الله . قال المغيرة : اخرجوه أخرج الله نفسه^(٣) .

حكى الأصمعى قال : كان ابن سيرين^(٤) يتقاضاه المتقاضى فيقول : أعطيك أحد اليومين إن شاء الله عز وجل . يعنى فى الدنيا أو فى الآخرة .

(١) قضاى فى الكلالة : جد فى الأمر وبذل فيه جهده حتى أعيا .

(٢) المصطبة : مكان ممد مرتفع قليلا يقعد عليه ، أو موضع يجتمع فيه الفقراء والسائلون من ذوى الحاجة ، وهو المقصود هنا .

(٣) فى ب : « أخرج الله روحه » .

(٤) هو محمد بن سيرين البصرى ، إمام وقته فى علوم الدين وأشهر فقهاء البصرة . اشتهر بالورع وتفسير الرؤيا ورواية الحديث ، توفى بالبصرة عام ١١٠ للهجرة .

وحكى الهيثم عن أسامة بن زيد^(١) عن نافع ، أن عبد الله بن رَوَاحَةَ^(٢) وقع على جارية له ، فاتهمته امرأته . قال : ما فعلت . قالت : فاقرا القرآن إذن ، فقال :

شهدت بإذن الله أن محمداً رسول الذي فوق السموات من عل
وإن أبا يحيى ويحيى كليهما له عمل في دينه مُتَقَبَّل
وإن أخا الأحقاف إذ يعدلونه يقوم بذات الله فيهم ويعدل
فقلت : أو لى لك^(٣) .

(١) أسامة بن زيد بن حارثة : صحابي كان أبوه من أوائل المسلمين ، وقد تبناه الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان الرسول يحب أسامة كثيراً . وقد هاجر أسامة معه إلى المدينة ، وأمّره قبل أن يبلغ العشرين من عمره إكراماً لأبيه زيد بن حارثة الذي كان الرسول قد تبناه وقد قتل في معركة مؤتة . وكان الرسول جهر هذه الحملة الأخيرة إنتقاماً لانكسار الجيوش الإسلامية في تلك المعركة .

(٢) عبد الله بن رَوَاحَةَ : أنصاري من الخزرج . كان من الصحابة الملازمين للنبي صلى الله عليه وسلم وشهد معه أكثر حروبه وغزواته ، واستخلفه مرة على المدينة في إحدى غزواته . ويعد من الشعراء الراجزين . استشهد في معركة مؤتة سنة (٨) للهجرة .

(٣) جاءت هذه الحكاية في « أخبار النساء » لابن قيم الجوزية بتفصيل أكثر ، كما أن الشعر الذي قاله ابن رَوَاحَةَ يختلف عما ورد هنا ، حيث قال :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الصبح ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به مؤمنات إن ما قال واقع
يبيت يحافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

حكى مجالد أبو هاشم : أن المهدي اصطاد في يوم تسعة أضب^(١) وخزراً^(٢) رمياً بيده ، فسُرَّ بذلك وانتشرت ثيابه من شدة الركض ، وقوسه موترة في ذراعه . فدنا منه رجل من خدمه ليصلح ثيابه ، فوثب بالرجل برذونه ، فتقدم وتعلق الثوب بسية القوس على نخذ المهدي فاندقت . فتطير المهدي من ذلك وشم الرجل وهمَّ به . فقال له الحسن الحاجب : تكون العين^(٣) بقوسك يا أمير المؤمنين أحبُّ إلىَّ من أن تكون بك . فعلتَ ما فعلت وتكر أن تصيب قوسك العين . فسُرِّي عنه وضحك ، ورأى أنه قد صُرف عنه بذلك مكروه .

وحدث المدائني قال : مرَّ الحسن بن أبي الحسن^(٣) برجل يقاد منه^(٤) ، وقد اجتمع الناس عليه . فقال : ما هذا ؟ قالوا : رجل يقاد منه . ففرج^(٥) الناس له حتى أتى وليَّه فقال : مَنْ المقتول ؟ قال : يا عبد الله إنك ما تدري لعل هذا القاتل قتل أخاك وهو لا يريد قتله ، وأنت تقتله متعمداً ، فانظر لنفسك . قال : قد تركته .

(١) الأضب ، جمع الضب ، والخزر : الخنزير .

(٢) العين : الإصابة بالعين .

(٣) أبو سعيد الحسن بن يسار المعروف بالحسن البصري ، تابعي وأمام أهل البصرة في الفقه والحديث . كان غاية في الجرأة والفصاحة . وكان زاهداً مهيباً لاتأخذه في الحق لومة لأثم ، وقد انتقد الخلفاء والولاة كثيراً . توفي سنة ١١٠ هـ .

(٤) يقاد منه : يقتل بالقتيل ، أي بدلا منه .

(٥) فرج الناس له : انكشفوا له عن المكان .

البَابُ السَّادِسُ عَشَرُ

فِي دَفْعِ مَكْرُوهِهِ بِمَكْرُوهِ

حُكِيَ أَنَّ فَيْرُوزَ الْفَارْسِيَّ (١) لَمَّا خَرَجَ يَرِيدُ أَهْلَ خِرَاسَانَ الْبَهْلَوِيَّةِ ، وَهُمْ أَهْلُ بَلَخٍ (٢) ، نَزَلَ بِدَسْكَرَةِ (٣) الْمَلِكِ . فَبَلَغَهُ أَنَّ بِهَا زَاجِرًا (٤) ضَرِيرًا . فَخَرَجَ فَيْرُوزٌ مُتَنَكِّرًا حَتَّى وَقَفَ بِيَابَ الزَّاجِرِ فَقَرَعَهُ ، فَقَالَ الزَّاجِرُ لِابْنِهِ : مَا تَرَى ؟ قَالَ ابْنُهُ : أَرَى عُقَابًا عَلَى نَخْلَةٍ . قَالَ : بَخِ بَخِ عَظِيمَ الطَّيْرِ عَلَى عَظِيمِ الشَّجَرِ ، الْمَلِكُ عَلَى الْبَابِ . فَخَرَجَ إِلَى الْمَلِكِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ بِتَحِيَّةِ الْمَلِكِ . فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : كَيْفَ عَلِمْتَ أَنِّي عَلَى الْبَابِ ؟ فَخَبَّرَهُ . فَقَالَ لَهُ فَيْرُوزٌ : انْظُرْ (فِي) هَذَا الَّذِي نَسِيرُ إِلَيْهِ أَيْقَتَلُنَا أَمْ نَقْتُلُهُ ؟ فَقَالَ لَهُ الزَّاجِرُ : قُلْ خَيْرًا أَيُّهَا الْمَلِكُ . فَردَّدَ الْمَلِكُ قَوْلَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، يَبْتَدِئُ بِقَتْلَانَا قَبْلَ نَقْتُلِهِ . قَالَ الزَّاجِرُ : أَنْتَ تَقُولُ أَيُّهَا الْمَلِكُ . وَمَضَى فَيْرُوزٌ نَحْوَ خِرَاسَانَ ، فَلَمَّا جَاوَزَ الرِّىَّ زَحَفَ إِلَيْهِ أَهْلُ خِرَاسَانَ ، فَبَلَغَهُمْ أَنَّهُ فِي جَيْشٍ عَظِيمٍ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِهِ . فَقَالَ لَهُمْ شَيْخٌ قَدْ كَبُرَتْ سِنُهُ : أَنَا أَبْذِلُ

(١) رَاجِعْ عَنِ تَوَلَّى فَيْرُوزَ الْعَرْشِ وَمَوْتِهِ فِي الصَّحْرَاءِ فِي أَثْنَاءِ حَرْبِهِ مَعَ الْهِيَاطَلَةِ (إِيرَانَ فِي عَهْدِ السَّاسَانِيِّينَ ، ص : ٢٧٥ - ٢٨٠) .

(٢) بَلَخٌ : مَدِينَةٌ مَشْهُورَةٌ فِي خِرَاسَانَ ، وَهِيَ الْيَوْمَ فِي أَفْغَانِسْتَانَ .

(٣) الدَّسْكَرَةُ : الْقَرْيَةُ الْكَبِيرَةُ .

(٤) الزَّاجِرُ : الْكَاهِنُ الَّذِي يَتَنَبَّأُ بِوَاسِطَةِ الطَّيْرِ . وَزَجَرَ الطَّيْرِ : أَطَارَهُ فَنَفَاهُ .

بِهِ إِنْ كَانَ عَنِ الْيَمِينِ ، وَتَطِيرُ مِنْهُ إِنْ كَانَ عَنِ الْيَسَارِ .

لكم نفسى ، فقد نلت من الدنيا منالاً جليلاً . قالوا : وما ذاك ؟ قال : تقطعون يديَّ ورجليَّ ثم تلقوننى على طريق فيروز ، ففعل هلاكه على يدي . فأبوا عليه لجلالته ، فعزم عليهم حتى فعلوا به . قال : فقطعوا يديه ورجليه ورموا به على طريق فيروز . فلما رآه فيروز سأل عنه فخبّر عنه ، وعرف جلالته فى قومه ، فسأله عن خبره . فقال الشيخ : إني أمرتهم بطاعتك وأعلمتهم أن لا طاقة لهم بك ، ففعلوا بى ما ترى . وعندى رأى تستبيحهم به وتبلغ لى منهم الشفاء . قال فيروز : ما هو ؟ قال : أخرجك فى برية حتى توافى الماء فى ثلاثة أيام ، ثم تخرج خلفهم فتسبقهم إلى بلادهم ، وتبلغ غاية مجيئك ، فإنك إذا فعلت ذلك بهم أبدتهم .

فأمر فيروز بتزود الماء لثلاثة أيام . ثم رحل آخذاً فى المفازة مع الشيخ ، فسار بهم ثلاثة أيام . فلما كانوا فى اليوم الرابع سألهم فيروز عن الماء ، فأومأ إلى جبل وقال : الماء فيه ، فسار أهل العسكر على جهد شديد . فلما كان من اليوم الخامس ، سألوا الشيخ عن الماء فقال : هل بقى منه شيء ؟ قالوا : لا ، وقد سقط أكثر الدواب والناس . قال : هذا الذى أردت بكم ، فاعلموا أن أقرب المياه هو الذى تزودتم منه . فقتله فيروز ، وطلب الماء فمات دونه ، وذهب أصحابه جميعاً .

وحكى هشام بن الكلبي^(١) عن شَرَقِي^(٢) قال : كنت مع بعض الملوك

(١) هو هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، مؤرخ وعالم بالأنساب وأخبار العرب وأيامها كأيها . وهو من أهل الكوفة وله تأليف عديدة وأكثرها فى أنساب العرب وبيوتاتها وأيامها : توفى فى مطلع القرن الثالث للهجرة .

(٢) شَرَقِي : هو الوليد بن حصين بن حبيب الكلبي ، عالم بالأدب والأنساب من أهل الكوفة : وقد أوكل المنصور إليه تدريس ابنه المهدي الأدب . وكان راوية صاحب قصص وسمر . توفى فى أواسط القرن الثانى للهجرة .

ضممت إليه . فكنت أحدثه بأحاديث العرب وأنسابها ، فلا أراه يرتاح إلى ذلك ولا تعجبه . فاحتلت له حيلةً ، فقال لى رجل من جلسائه : يا أبا المثني ، أى شىء الغرى فى كلام العرب ؟ قلت : الغرى الحسن ، تقول (العرب هذا رجل غرى أى حسن) ، وإنما سمي الغريين ^(١) لحسنهما فى ذلك الزمان . وإنما بنى الغريان على بناء غريين بناهما ملك بمصر ، وجعل عليهما حرساً فمن لم يُصلّ لهما قُتل . إلا أنه يُخَيَّر خصلتين ليس فيهما النجاة من القتل ، ولا الملك . ويُعطى ما يتمنى ثم يُقتل . فعمر بذلك دهرًا . فأقبل قصّار ^(٢) من أهل إفريقية مع حمار له كاذين ^(٣) يريد مصرًا ، فمرّ بهما فلم يُصلّ لهما . فأخذه الحرس فقال : مالى ؟ قالوا : لم تصلّ للغريين . قال : لم أعلم . فذهبوا به إلى الملك ، فقالوا : هذا لم يُصلّ للغريين . قال : ما منعك أن تصلى لهما ؟ قال : لم أعلم وأنا غريب من أهل إفريقية أحببت أن أكون جارك أغسل ثيابك وثياب خدمك وأُصيب فى كنفك خيرًا ، ولو علمت لصلّيت لهما ألف ركعة . قال له : تَمَنَّ . قال : وما أتمنى ؟ قالوا : لا تتمنى الملك ، ولا أن تنجو بنفسك من القتل . قال : فأقبل به وأدبر ، فأبى أن يفعل . (ثم) قال : فإنى أتمنى عشرة آلاف دينار . قال : على عشرة آلاف دينار . قال : بريد . فدُعِيَ له بريد ، فكتب : إذا أتيت إفريقية فسل عن منزل فلان القصّار ، فادفع هذه العشرة آلاف دينار إلى أهله .

(١) الغريان : يقال إن المذر الثالث أحد ملوك الحيرة أقام بنائين حسنين ، وجعل فى كل سنة يومين ، يوم نعيم ويوم بؤس . وأول من يطلع عليه فى يوم النعيم يعطيه مائة من الإبل ، ويأمر بقتل أول من يطلع عليه فى يوم البؤس ويطلق بدمه الغريين . راجع التفصيلات فى : تاريخنا بأسلوب قصصى ، ص : ٣٨ - ٤١ .

(٢) القصّار : مبيض الثياب ومنظفها .

(٣) الكاذين لم نجد لها فى القاموس معنى : ولعله يقصد بها التفر وهو السير

الذى يربط سرج الدابة .

فقيل : تَمَنَّ الثانية . قال : ضربُ كل واحد منكم بهذا الكاذب ثلاث ضربات : واحدة شديدة ، وأخرى متوسطة ، وأخرى دون ذلك . قال : فارتاب الملك ومكث طويلاً ، ثم قال جلسائه : ماترون ؟ قالوا : لا نرى أن تبطل سُنَّةَ سنها آباؤك . قالوا : فيمن تبدأ ؟ قال : أبدأ بالملك ابن الملك الذي سنَّ هذه السُنَّة . فنزل (الملك) من سريره ، ورفع القصار الكاذب فضرب به أصل قفاه فسقط على وجهه . فقال الملك في نفسه : ليت شعري ، أى الضربات هذه ؟ والله لئن كانت الهيئة ثم جاءت الوسطى والشديدة لأموتن ، ونظر إلى الحرس وقال : يا أولاد الزنا تزعمون أنه لم يُصلِّ ، أنا والله رأيته يصلى ، خلوا سبيله ، واهدموا الغريين . فضحك حتى جعل يفحص برجله ، وأقبل على واستحبنى^(١) ووصانى .

حكى بكَّار بن ماهويه ، أن ملكاً من ملوك الهند له وزير يعمل برأيه . وكانت البراهمة تبغض ذلك الوزير ، وتتمنى موته أو موت الملك ، ليستريحوا منه . فمات الملك وصار ابنه في مكانه ، واتخذ ذلك الوزير وزيراً كما كان لأبيه . فقتل ذلك على البراهمة فاحتالوا له . وملوك الهند لا تخالف البراهمة ، لأنهم أصحاب الدين والزهد في الدنيا . فاحتالت البراهمة بكتاب افتعلوه على لسان الملك الميت ، وشبهوه بخطه وبكلامه وخاتمه ، إلى ابنه يعلمه أنه قد صار إلى كل ما يحب وإلى كل خير ونعيم . وأنه لا يفقد شيئاً إلا وزيره ذلك . وسأله أن يُبرِّه ويؤنسه بالبعث به ، ودسُّوا الكتاب مع رجل زعموا للملك أنه كان مات ثم عاش . وأن الملك أرسله بكتابه إلى ابنه . فلما صار الكتاب إلى الملك الثانى ابن الملك الأول اغتمَّ لذلك ، ولم يشك أن الخبر حق . فدعا وزيره فدفع إليه

الكتاب ؛ فكره الوزير أن يقول له إن هذا مفتعل فلا يصدق . ولا يقدر على تكذيب البراهمة .

فقال الوزير للملك : أصاح الله الملك ، هذا خط أبيك وكلامه وخاتمه ، وأنا أرى أن يوجهني الملك إليه . فسُرَّ (الملك) بذلك ، فقال له الوزير : ما شيء آثر عندي من اللحاق بسيدى ، فابعث (بى) إليه ، وليكن على جهة الكرامة منك لى . قال : وما جهة الكرامة ؟ قال : أمضى إلى منزلى ، فأعهد إلى أهلى وولدى بما أريد ، ثم يعدنى الملك يوماً ليصير فيه إلى منزلى ، هو وجماعة أهل مملكته حتى أحرق نفسى بالنار ، وأصير إلى سيدى ، وأظهر السرور بذلك . فأجابه ابن الملك إلى ما سأل ، وقال : ذلك لك .

وكانوا لا يقتلون بالسيف إنما يحرقون بالنار . فعمد الوزير فحفر سراً^(١) فى داره إلى حجرة بعيدة منها قد أعدَّ فيها ما يكفيه من الطعام لسنين . وجعل على فُوَّهته دكاناً^(٢) هال فوقه تراباً يسيراً قدر ما إذا ضربه الضارب برجله خُسِفَ . وأمر بجمع الحطب ، فجميع قريباً من ذلك السرب . وهياً له طريقاً شبيهاً بالزقاق ، وبني حائطاً حول ذلك الموضع . وطلب رجلاً مات من يومه وأخذه فوضعه تحت الحطب .

وحضر الملك والبراهمة والناس ، وأخذ الوزير شعلة نار ليشعل بها ذلك الحطب ، والناس ينظرون إليه بعد أن ودَّعهم ، يُريهم الاستبشار بما هو فيه . فلما اشتعل الحطب وعلا الدخان وستره عنهم ، ضرب رأس النقب فصار فى ذلك السرب وتوارى شهراً ، واشتعلت النار وفاح ريح (لحم) الميت

(١) السرب : الممر تحت الأرض .

(٢) الدكان : شيء كالمصطبة يقعد عليه .

فى النار . وكان قد جعل لرأس السرب طبقةً متهدماً من حجارة فى جملة حجارة فرش بها الدكان ، فأعاده إلى مكانه ودعمه من تحته .

ولم يشك الملك والبراهمة والناس فى احتراق الوزير لما رأوا عظاماً محترقة ظنوها عظامه . وسرَّ البراهمة بذلك لهلكته . فمكت حولاً ثم أتاه بعد زمان على لسان الملك يتشكر له إرساله إليه بوزيره . ويخبره أنه قد رأى أن يؤثره به حاجته إليه ولما بلاء من نصيحته وطاعته . ويسأله أن يعينه ويؤنسه ويكرمه ، بأن يوجه أربعة آلاف من البراهمة ليسألهم عن أشياء به حاجة إلى علمها من جهتهم . فلما أتاه لم يشك أنه صادق ، وأنه قد كان احترق ومات ورجع من عند أبيه إليه . فجمع البراهمة وقد هيا لهم خطباً كثيراً وأظهر لهم ما تحمله الوزير عن أبيه إليه . فقالوا : أيها الملك ، أبوك مات وصار تراباً . فقال : قد كذبت أنفسكم بالكتاب الذى ذكرتم أنه جاء من عنده ، فأحرقهم ورجع كيدهم عليهم .

البَابُ السَّابِعُ عَشِيرٌ

فِي دَفْعِ مَكْرُوهِهِ بِلُطْفٍ

حُكِيَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَلِيٍّ لَمَّا انْهَزَمَ مِنْ نَصِيبِينَ^(١) عَنْ أَبِي مُسْلِمٍ ، صَارَ إِلَى الْبَصْرَةِ إِلَى أَخِيهِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَلِيٍّ ، فَاسْتَخْفَى عِنْدَهُ . وَكُتِبَ لِسُلَيْمَانَ إِلَى أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ يُسْأَلُهُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ أَمَانًا . فَكَتَبَ الْمَنْصُورُ لِعَبْدِ اللَّهِ أَمَانًا لَمْ يَسْتَقْصِهِ^(٢) ، فَرَدَّ الْأَمَانَ عَلَى الْمَنْصُورِ وَخَبَّرَهُ بِمَا فِيهِ . فَقَالَ : مَنْ يَفْهَمُ (مِثْلَ) هَذَا بِالْبَصْرَةِ ؟ قِيلَ لَهُ : ابْنُ الْمُقَفَّعِ . فَعَزَلَ الْمَنْصُورُ سُلَيْمَانَ بْنَ عَلِيٍّ عَنِ الْبَصْرَةِ وَوَلَّاهَا سَفِيَّانَ بْنَ مُعَاوِيَةَ بْنِ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ . ثُمَّ كُتِبَ إِلَى الْمُهَلَّبِيِّ بِأَمْرِهِ بِقَتْلِ ابْنِ الْمُقَفَّعِ . وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُقَفَّعِ كَثِيرًا مَا يَسْتَهْزِئُ بِسَفِيَّانَ بْنِ مُعَاوِيَةَ . فَخَضَرَ حِينَ وَلِيَ الْبَصْرَةَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ وَفِيهِمْ ابْنُ الْمُقَفَّعِ ، فَذَكَرَ بِمُحَضَّرَةِ سَفِيَّانَ الْوُطَيْسِ^(٣) فَلَمْ يَعْرِفْهُ ، فَسَأَلَ عَنْهُ فَضَحِكَ مِنْهُ ابْنُ الْمُقَفَّعِ .

وَكَانَ الْكِتَابُ قَدْ وَرَدَ عَلَى سَفِيَّانَ بِقَتْلِهِ . فَلَمَّا انْفَصَلَ النَّاسُ عَنْ مَجْلِسِ

(١) نَصِيبِينَ : مَدِينَةُ حَصِينَةٍ تَقَعُ فِي الْجَزِيرَةِ قَرِبَ جَزِيرَةِ ابْنِ عُمَرَ ، وَقَدْ جَرَتْ عِنْدَهَا الْمَوْقِعَةُ الَّتِي انْتَهَتْ بِهَزِيمَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ ، وَانْتَصَارَ جَيْشُ الْمَنْصُورِ بِقِيَادَةِ أَبِي مُسْلِمٍ الْخُرَاسَانِي .

(٢) اسْتَقْصَى : بَلَغَ فِي الْأَمْرِ غَايَتَهُ .

(٣) الْوُطَيْسُ : التَّنُورُ .

سفيان بن معاوية ، أمر ابن المقفع بالجلوس . حتى إذا (خلا) دعا بتنور عظيم ، ثم أمر به سفيان فسُجِرَ^(١) حتى بلغ غايته . ثم قال لابن المقفع : أتضحك مني لِمَ لا أعرف الوطيس ، أليس التنور المُسَجَّر ؟ قال : بلى . قال : فوالله لأقتلنك به . قال له ابن المقفع : لا تقتلني فإن خافي من قريش من يطلب بدمي . قال : فأمر سفيان فطُرح في التنور فاحترق ، وكنتم سفيان خبره ، وفُقد ابن المقفع ، فاتهم به سفيان .

فشخصت جماعة من قريش كان ابن المقفع أسلم على أيديهم ، إلى المنصور يتظلمون من سفيان بن معاوية ويذكرون له أنه قتل ابن المقفع . وحضر سفيان فأنكر ذلك . فتشاهدوا عليه بقتله بالظنة^(٢) . فدعا المنصور سفيان فخلاً به ، فقال : أوهم (أن) ابن المقفع عندك . ثم دعا بالقرشين فقال : شهدتم أن هذا قتل صاحبكم ، فإن ظهر حيًا فدمائكم وأموالكم رهن به إن كذبتُم في الشهادة . فظن القوم أن ابن المقفع لم يُقتل ، فاجلجوا^(٣) في الشهادة وشكوا فيها ، فدرأ^(٤) القتل عن سفيان .

وحكى أن مزدك^(٥) كان من أهل الشام ، فصار إلى ناحية فارس ، فأفسد

(١) سجر التنور : أحماه .

(٢) الظنة : الشبهة .

(٣) لجلجوا في الشهادة : ترددوا فيها .

(٤) درأ عنه : دفع عنه .

(٥) المعروف أن مزدكاً فارسي الأصل ، على أن الروايات وإن اختلفت في محل ولادته ، فليس في أحدها إشارة إلى نشأته في الشام .

أكثر أهلها ، وانقلبت معه العامة ، وكان ذلك على عهد قباد أبي أنوشروان ،
فخافه قباد على المملكة فتبعه^(١) . فأمر مزدك الناس بإباحة الفروج وأن لا يمنع
الرجل من أراد امرأته . وقال لقباد : لا دين لك أو تُخرج امرأتك في أفضل
زيها حتى ينالها كل من أراد . قال أنوشروان : كنت أطلب إلى مزدك في أمي
أن لا يبيحها وأقبل رجله ، ولا أنسى ريح جوربه و نتنه . ثم قال مزدك لقباد :
إن النار تطلب كبدا . وحفر حفيراً من ناحية حتى أخرجه تحت كرسى تحت
باب بيت النار ، وجعل تحت النار أنبوباً من حديد . وأدخل في الحفير رجلاً ،
فكلما تكلم الرجل الذى فى الحفير تحت النار ، سُمع من جوف النار . ثم قال
مزدك لقباد : أدخل بيت النار لتسمع ما تطلب النار .

فدخل قباد وابنه أنوشروان ، فسمع من جوف النار صوتاً يقول : أريد
كبدا قباد . فقال قباد : أقتل نفسى لطاعة النار . فقال له أنوشروان : إن النار
لا تتكلم وهذه مخرفة^(٢) ، فاهدم كرسى النار لتعلم الحيلة . فقال قباد : هذا
من كفرى إذ تأمرنى بهدم كرسى النار ، فاتخذ أنوشروان حديدة طويلة حادة
وهى المحشة ، ثم قال لقباد : عد إلى النار ، حتى يتضح لك الخبر . فعاد فسمعها
تطلب (كبد) قباد . فأدخل أنوشروان المحشة تحت الكرسى وغمزها غمزاً
شديداً ، فوقعت فى جنب الرجل الذى كان يتكلم تحت النار فصاح . ففهم قباد
المخرقة ، وأمسك تخوفاً من مزدك وكثرة من تبعه .

(١) فى ب « فمنعه » .

(٢) المخرقة : فساد العقل ، وخرفه نسبة إلى الخرف .

وكان لدار أنوشروان بستان واسع فحفر فيه اثني عشر ألف بئر ، ووضع مع كل بئر جصًا وجرة ماء . ثم مال إلى مزدك بالتعظيم حتى أنس به ، ثم قال له أنوشروان : احضرنى من ساعدك على دينك ليبيعوا لى بالملك بعد أبى وأكون على دينك . فأحضرهم مزدك ، فقال له أنوشروان : ليدخل علىّ منهم عشرة من وجوههم ، فإذا بايعوا دخلت عشرة من وجوههم . وهياً رجالاً معهم السيوف ورجالاً لئما أراد .

فدخل مزدك ومعه عشرة رجال ، فأمر بهم فاخْتَلِسُوا^(١) ، فَنُكِّسَ كل رجل منهم فى بئر وصب الجص والماء عليه ، فلم يبرز منه إلا رجلاه . ثم أدخل من أصحاب مزدك عشرةً عشرةً ، ففعل بهم مثل ذلك . حتى أتى على اثني عشر ألف رجل^(٢) . وقيل للباقيين انصرفوا إلى الغد ، وهم يظنون أن أصحابهم فى منازلهم .

ثم بعث إلى أبيه قباد فقال له : انظر إلى حسن بستانى . فرأى قباد أرجلا شائلة . فقال أنوشروان : هؤلاء مزدك وأصحابه . فجزع قباد . فقال له أنوشروان : أن اسكت وإلاّ لحقت بهم ، فأمسك . وأخرج أنوشروان مزدكاً فصلبه فسكن الناس^(٣) .

حكى أن مروان الحمار^(٤) ، طلب العباسيين لما ابتدأ أمرهم يزيد ،

(١) اختلس : أخذ خلسة من الآخرين .

(٢) تلاحظ المبالغة فى الأرقام .

(٣) راجع الهامش ٤ فى ص : ٧ والهامش ٤ فى ص : ١٤ .

(٤) هو مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية فى الشام . انتزع الخلافة من إبراهيم

ابن الوليد الأول . وكان مروان جلدأ صبوراً فلقب بالحمار .

ووقعت البيعة سرّاً لإبراهيم بن محمد^(١) ، فلم يجدهم . فوجه رجلاً من قواده
يقال له العكّي^(٢) في أربعة آلاف جريدة على الخيل^(٣) ، وأمره أن يأخذ
في بركة ويتبع آثار بني العباس ، وأين ساكوا ، ويقتل كل من وجد منهم .
فخرج العكّي لما أمر به . وخرجت بنو العباس هاربين إلى العراق ، وهم
إذ ذاك ومن معهم من أتباعهم ومواليهم سبعون رجلاً . فبيناهم يسرون
إذ نظروا إلى غبرة عسكر العكّي ، فتشافروا بينهم . فقال بعضهم : نقاتله ،
وقال بعضهم : نجحد أننا من بني العباس . فقال لهم عيسى بن عليّ بن
عبد الله بن العباس^(٤) : أما القتال فليس لقتال سبعين رجلاً على دواب ضعاف

(١) إبراهيم بن محمد ، ويعرف بإبراهيم الإمام ، وهو زعيم الدعوة العباسية
ومؤسسها . كان يسكن في الحميعة قرب معان . وقد أوصى له أبوه محمد بن عليّ
ابن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بالإمامة . وقد نشط في نشر الدعوة لبنيته .
واكتشف قابليات أبي مسلم الخراساني فولاه رئاسة الدعوة في خراسان . وعلم به
مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية فقبض عليه وسجنه ثم قتله في السجن .
فعهد إبراهيم بالبيعة من بعده لأخيه أبي العباس السفاح ، الذي قدر له أن يكون
أول خلفاء بني العباس .

(٢) في ١ : « العلي » .

(٣) الجريدة : وحدة من الجيش وهي أصغرها .

(٤) عيسى بن عليّ بن عبد الله بن العباس ، من علماء بني العباس ، ولد في مكة
وسكن بغداد حتى وفاته سنة ١٦٤ هـ . وهو عم السفاح والمنصور . وكان نامكاً معتزلاً
أعمال الدولة فلم يتولّى أي عمل رسمي . قال عنه الرشيد : كان عيسى بن عليّ
راهبنا وعالمنا .

وحمير لأربعة آلاف على الخيل وجه ، وأما الجحد لأنسابنا فإن هذا لا ينكتم والقتل خير منه ، ولكن دعوني وإيَّاه . قالوا : شأنك .

فحرك دابته ، فلما بلغ عسكر العكبي فسأل عنه فخبَّر به فلقيه ، فقال له : عندي نصيحة ، فأخِني . فخلا به . فقال : إن الكذب شر ما استعمل ، وهذه بنو العباس خفي ، وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم سيملكون ، فوالله لو لم يبقَ منهم إلَّا واحد للملك . ومنا قوم بالعراق وقوم بالحجاز ، فإن صفحت جزاك الله خيراً (أولاً) وجازينك بعده (ثانياً) ، وإن لم تصفح فها هم أولاء ولا يدُ بينك وبينهم إلَّا يد الله . قال العكبي : لا والله ما كنت لأخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في أهله بالقتل ، فامضِ إلى أصحابك آمناً وهم آمنون . وقال لأصحابه : إن هذا الرجل خبَّرني أن بنى العباس أخذوا في طريق غير هذا الطريق ، فامضوا بنا نعارضهم ، فصرف أعنة خيله . فلما ولى بنو العباس الأمر بلغوا بالعكبي مبلغاً جميلاً .

وحكى أن إسحاق بن إبراهيم الطاهري شكاً إلى المأمون أن قوماً من جيرته من مشايخ الحربية^(١) لا يزالون يثبون على غلمانهم وأتباعه ، فينالونهم بالشم والضرب والاستخفاف . وإنه ربما مرَّ بهم فسمع الشتم والتنقص منهم . ويسأل المأمون أن يطلق له الانتصار منهم . فقال له المأمون : هؤلاء أهل مدينة السلام وأبناء الدولة فلا تعاودني في شيء من أمرهم ، واحتمل ما يكون منهم حتى ابتدئك بالمسألة عنهم وأمرك فيهم بما يصلح أمرك .

فأمسك إسحاق ، وبعث المأمون إلى جيران إسحاق من سألهم سرّاً ، وكتب منهم كل بذيء متسرّع من مشايخ أهل خراسان . ثم بعث ثقة من

(١) الحربية : هم الجند العرب وكلهم من المشاة ، وقد نسبوا إلى محلة الحربية إحدى محلات بغداد التي سميت باسم حرب بن عبد الله البلخي أحد قواد النصور .

قَبْلَهُ عَلَى لِسَانِ إِسْحَاقَ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِصَلَةٍ وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهَا دَارَةٌ^(١) لَهُمْ فِي كُلِّ سَنَةٍ ، وَأَمْرَهُ بِكُتْمَانِ ذَلِكَ ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ خَصَّهُ بِالصَّلَةِ دُونَ سَائِرِ نَظَرَاتِهِ . فَسَكَنَ عَنْ إِسْحَاقَ تَعْنَتَ^(٢) الْقَوْمِ ، وَأَخَذُوا عَلَى أَيْدِي سَفَهَاتِهِمْ . وَبَلَغَ إِسْحَاقَ عَنْهُمْ مِنْ جَمِيلِ الذِّكْرِ ضِدَّ مَا كَانَ يُبْلِغُهُ . حَتَّى إِذَا عَلِمَ الْمَأْمُونُ أَنَّ ذَلِكَ قَدْ ظَهَرَ مِنْهُمْ لِإِسْحَاقَ قَالَ لَهُ : يَا إِسْحَاقُ ، مَا حَالُ جِيرَانِكَ ؟ قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَالُوا عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ^(٣) ، وَحَسَنُ قَوْلِهِمْ وَأَمْنَتُ عَلَى دَارِي مِنْهُمْ . قَالَ الْمَأْمُونُ : يَا إِسْحَاقُ ، هَذَا بِمَا لَمْ يُبْلِغْهُ رَأْيُكَ ، فَإِنِّي قَدْ بَعَثْتُ عَلَى لِسَانِكَ مَنْ وَصَلَهُمْ ، فَاجْعَلْ هَذِهِ الصَّلَةَ لَهُمْ فِي كُلِّ سَنَةٍ مِنْ مَالِكَ . فَإِنَّمَا أَنتُمْ بَشَرٌ ، وَإِذَا اسْتَأْثَرْتُمْ عَلَى نَظَرَاتِكُمْ أَفْسَدْتُمْ قُلُوبَهُمْ ، فَآسَوْا النَّاسَ تَصِفُ لَكُمْ نِيَاتِهِمْ .

وَحَكَى الْمَدَائِنِيُّ أَنَّ فَتْنَيْنِ كَانَا يَتَنَادِمَانِ ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا امْرَأَةٌ ، فَأَرْسَلَتْ امْرَأَةُ أَحَدَهُمَا إِلَى صَدِيقِ زَوْجِهَا تَدْعُوهُ إِلَى نَفْسِهَا ؛ فَأَبَى ذَلِكَ عَلَيْهَا بِالْحِفَافَةِ مِنْهُ عَلَى صَاحِبِهِ . فَأَلْحَتْ ؛ فَلَمَّا أَبَى ، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِ مَعَ مَوْلَاهُ : لَنْ لَمْ يَفْعَلْ وَيَجِيبُهَا إِلَى مَا دَعَتْهُ إِلَيْهِ لَتَقُولَنَّ لَزَوْجِهَا إِنَّهُ قَدْ رَاوَدَهَا عَنْ نَفْسِهَا ، وَإِنَّهَا امْتَنَعَتْ مِنْهُ . فَأَحَبَّ الرَّجُلُ أَنْ يَحْتَالَ لَهَا بِحِيلَةٍ لَا يَخُونُ صَاحِبَهُ مَعَهَا ، وَلَا يُلْجِئُ الْمَرْأَةَ إِلَى أَنْ تَتَقَوَّلَ عَلَيْهِ مَا تَهْدِدُهُ بِهِ . فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا ، إِذَا مَا أُيِّتَ^(٤) وَكَانَ هَذَا مِنْكَ الْجَدُّ ، فَأَنَا وَاللَّهِ أَعَشَقُ لَكَ مِنْكَ لِي ، وَمَا كَانَ يَمْنَعُنِي مِنْ طَلَبِكَ إِلَّا خُفَاةٌ أَنْ لَا تَجِيبَنِي ، وَأَنْ تَنْعَى عَلَيَّ عِنْدَ زَوْجِكَ . وَلَيْسَ لِي مَنْزِلٌ يَحْتَمِلُ دُخُولَكَ وَلَا أَتَقُ بِأَحَدٍ ، وَلَيْسَ مَنْزِلِي بِأَجْمَلَ لَكَ وَأَجْدَرُ أَنْ يُمْكِنَنَا الْاجْتِمَاعُ فِيهِ مِنْ

(١) دَارَةٌ : مُسْتَمَرَّةٌ .

(٢) التَعْنَتُ : الشَّدَّةُ وَالْقَسْوَةُ فِي الْعَامَلَةِ . وَفِي نَسْخَةِ ب : « تَعْيُثُ » .

(٣) حَالُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ : تَحْوِيلُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ .

(٤) فِي ١ « إِذَا كُنْتَ » .

منزلك . فالرأى أن تقولى لزوجك إنك تريدن زيارة أهلك يوم كذا ، وأقول له إن لى صديقة أحب أن أجيء بها إلى منزلك ، فإذا صرت إلى أهلك ، انسلت مع مولاتى هذه إلى منزلك وأصير أنا فيه إليك . وكأنك أنت التى أعلمته أنها تزورنى . فأجابته إلى ذلك .

فأرسل إليها إنى لست آمن أن يظهر شيء من أمرنا ، ولكنى أريد إذا بلغه شيء من هذا أن أحلف له أنك امرأة ما رأيت لك وجهاً قط ، ولا كلمتك كلمة ولا كلمتين ، فأصير إليك فى الظلمة مراراً حتى نأمن ونطمئن . فأجابته إلى ما قال ، وفعلت ما أمرها به . فلما صارت إلى منزل أهلها ورجعت إلى منزلها مع مولاتى . وقد كان قال لزوجها : إن صديقتى تلك تأتية . فلما أمسى وصارت تلك إلى منزلها ، قال : إن صديقتى قد جاءت ، وأراه أنه يدخل إليها . واندس فى موضع لم يصر إليها منه ، ولم تعلم (بمكانه) . وقد قال لزوجها : إنى قد احتات لصديقتى بحيلة لأحملك عليها ، فقلت لها لا أراك ولا ترينى ، ولتكونى فى ظلمة ، ولا تسكلمينى ولا أكلك . فلما رجع إلى زوجها قال : ما رأيت أطيب منها قط فدونك فادخل إليها . (فدخل) وهو يرى أنها صديقة صاحبه ، وهى ترى أنه صديق زوجها . وقد سأله صديقه أن يقطع من شعرها خصلة ، فلما دخل صاحبه قطع من شعرها خصلة وخرج ودفع الشعر إلى صديقه .

فلما صار فى يده ووثق بنفاذ كيدته وحيلته ، قال لمولاته تلك التى كانت الرسول بينهما : . اعلميهما أن زوجها هو الذى صار إليها ، وقد قطع من شعرها خصلة ودفعها إلى ، واخبرها كيف احتال لها . فانصرفت إلى أهلها وأرسلت إليه تحلف له أنها لا تعود لمثلها أبداً .

وحكى الهيثم بن عدى ، عن ابن عيَّاش قال : قال عبید الله بن زياد
ابن ظبيان^(١) : إنيَّكم والطمع فانه يُردى ، والله لقد هممت أن أفتك بالحجاج
وأجمعت عليه ، فإني لواقف على باب دير الجماجم ، إذ أنا بالحجاج قد خرج على
دابة ليس معه غلام ، فأجمعت على قتله ، وكأنه عرف ما في نفسي فقال : لقيت
ابن أبي مسلم^(٢) ؟ قلت : لا ، قال : فآلقه فإن عهدك معه على الرى . قال :
فكففت وأتيت يزيد بن أبي مسلم فسألته ، فقال : ما أمرنى بشىء .

(١) عبید الله بن زياد بن ظبيان البكرى ، فاتك من الشجعان وفارسی جرىء .
كان مقرباً من عبد الملك بن مروان وحارب معه ضد مصعب بن الزبير ، وهو الذى
حمل رأس مصعب عند ما قتل ، إلى عبد الملك . خرج على الحجاج وهرب إلى عمان
فمات هناك فى سنة ٧٥ هـ .

(٢) هو يزيد بن دينار ، وكنية أبيه أبو مسلم . كان من موالى ثقیف واتخذ
الحجاج كاتباً له ، فظهرت مواهبه فولاه الخراج فى العراق ، وأقره الوليد
ابن عبد الملك على ذلك . ثم ولاه سليمان بن عبد الملك ولاية إفريقية وبقى فيها حتى
اغتيل سنة ١٠٢ هـ .

البَابُ الثَّامِنُ عَشَرَ

لُطْفُ التَّدْبِيرِ فِي دَفْعِ مَكْرُوهِ^(١)

حُكِيَ أَنَّ تَأْبِطَ شَرًّا^(٢) ، وَهُوَ ثَابِتُ بْنُ جَابِرِ الْفَهْمِيِّ ، أَغَارَ هُوَ وَعَمْرُو بْنُ بَرَّاقٍ^(٣) وَمَعَهُمَا الشَّنْفَرِيُّ الْفَهْمِيُّ^(٤) ، وَهُمْ رَجَالَةٌ ، عَلَى بَحْيَلَةٍ^(٥) . فَأَقْعَدَتْ بَحْيَلَةٌ لِتَأْبِطَ شَرًّا رَجَالًا عَلَى الْمَاءِ . فَأَقْبَلَ تَأْبِطَ شَرًّا وَصَاحِبَاهُ فِي اللَّيْلِ يَرِيدُونَ الْمَاءَ . فَلَمَّا قَرَّبُوا مِنْهُ قَالَ تَأْبِطُ لِصَاحِبِيهِ : إِنْ بِالْمَاءِ رَصْدًا^(٦) وَإِنِّي لِأَسْمَعَ وَجِيبَ قُلُوبِ عَلَى الْمَاءِ^(٧) . قَالَ صَاحِبَاهُ : مَا بِالْمَاءِ أَحَدٌ ! وَمَا هَذَا (إِلَّا) وَجِيبَ قَلْبِكَ .

(١) سقط هذا العنوان في نسخة ب .

(٢) وَهُوَ مِنْ أَهْلِ تَهَامَةٍ ، فَاتَكَ جَاهِلِيٌّ مِنَ الشُّعْرَاءِ الصَّعَالِيكِ . كَانَ شَاعِرًا خَفِيًّا وَعَدَاءَ مَشْهُورًا ، يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ يَطَارِدُ الظُّبَاءَ فَلَا تَقْوَتَهُ .

(٣) وَهُوَ مِنَ الْفَتَاكِ الْعِدَائِينَ كَذَلِكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ .

(٤) هُوَ عَمْرُو بْنُ مَالِكِ الْأَزْدِيِّ مِنْ قَحْطَانَ . شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ مِنَ الْفَتَاكِ الْعِدَائِينَ . وَكَانَ خَلِيعًا تَبَرَّأَتْ مِنْهُ قَبِيلَتُهُ لِسُوءِ فِعْلَانِهِ . وَكَانَ يَضْرِبُ الْمِثْلَ فِي الْعَدُوِّ فَيُقَالُ أَعْدَى مِنَ الشَّنْفَرِيِّ . وَهُوَ صَاحِبُ قَصِيدَةِ لَامِيَةِ الْعَرَبِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي شَرَحَهَا الزَّمَخْشَرِيُّ فِي كِتَابِهِ أَعْجَبُ الْعَجَبِ .

(٥) بَحْيَلَةٌ : قَبِيلَةُ عَدْنَانِيَّةٍ ، مِنْ أَشْهَرِ بَطُونِهَا قَسْرٌ ، الَّتِي مِنْهَا خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ .

(٦) الرِّصْدُ : الْمُرَاقِبُونَ ، وَمُفْرَدُهَا الرَّاصِدُ .

(٧) وَجِيبُ الْقُلُوبِ : خَفَقَانُهَا .

قال : لا والله ما وجب قلبي قط . قال : فمضى الشنفرى فشرب ، ثم رجع فقال :
ما على الماء أحد . قال تأبط شرًّا : بلى ! ولكنهم لا يريدون غيري .

ثم مضى عمرو بن براق فشرب ، ثم رجع فقال : ليس على الماء أحد .
قال تأبط شرًّا : بلى ! ولكنهم لا يريدون غيري ، ثم قال : إني ماض إلى الماء ،
فإذا شرعت فيه فإن الرجال سيأخذونني ويكتفونني . فأما أنت يا شنفرى فاقعد
خلف تلك الصخرة ، وأوماً إلى صخرة بقرب الماء ؛ فإذا سمعتني أقول : خذوه ،
فاقبل إلى فاطلق عني وثاقي . وأما أنت يا ابن براق ، فأطعمهم في نفسك ، حتى
إذا خرجوا في إثرك فلا تبعد (عنهم حتى يبعدوا) عني ، ثم النجاء . فلما ورد
تأبط شرًّا ، واثبته^(١) الرجال وأوثقته بوتر وشدوا يديه إلى رجله . وقعد
الشنفرى عند الصخرة ، وجعل ابن براق يترأى للبعجلين . فقال لهم تأبط شرًّا :
إن صاحبي هذا قد كبرت سنه وهو موسر ، فعدوه أن تتأسروا عليه في الفداء^(٢)
حتى يتأسر فيفديني ونفسي . قالوا له : ناده أنت . فقال تأبط شرًّا : ويحك
يا ابن براق ، إن الشنفرى قد نجى بنفسه ولا قوة بك على العدو ، وقد وعدني
القوم أن يتأسروا علينا في الفداء فاقبل إلى ، فقال ابن براق : حتى أرو^(٣)
نفسى ، فعدا قبل الجبل شوطاً ، ثم رجع وقد دفع نفسه وهو يصيح ، فطمع
البعجلون فيه فخرجوا نحوه . فقال تأبط شرًّا : خذوه ، وجعل ابن براق
يطمعمهم في نفسه ، حتى إذا بعدوا حاضرهم^(٤) فلم يدركوه .

وخالفهم الشنفرى إلى تأبط شرًّا فأطلقه . فلما عاد البعجلون قال لهم

(١) واثبه : بادره وانقض عليه .

(٢) يتأسر عليه في الفداء : يأخذه أسيراً ليفتدي نفسه .

(٣) الرود : الذهاب والمجيء .

(٤) حاضرهم : عداهم

تأبط شرًّا : ما فعل ؟ قالوا : فاتنا حَضْرًا^(١) كأنه الريح . قال : فأعجبكم ذاك ؟
قالوا : نعم . قال تأبط شرًّا : فسأريكم ما هو أعجب منه ، ثم خرج هو والشنفرى
يفحصان فى الأرض^(٢) لهما حفيف كحفيف الريح ، ففاتاهم ؛ وفيها قال تأبط شرًّا :
نجوت منها نجائى من بجيلة إذ ألقيت ليلة خبت الرهط أرواقى^(٣)
وحكى أن عبد الله بن على عم المنصور لما صار إلى المنصور حبسه ، وهم
المنصور بالحج ، دعا عيسى بن موسى^(٤) وكان ولى عهد المنصور ، فقال له :
خذ إليك عبد الله بن على فإنه عمى وعم أبىك ، ولا خلافة لى ولا عهد لك
ما عاش فاقتله . فأخذ عيسى بن موسى عبد الله بن على . فلما شخص المنصور
شاور عيسى بن موسى شريكاً القاضى^(٥) فيما قال له المنصور فى عبد الله بن على .

(١) فاته حضرا : فاته عدواً .

(٢) يفحص فى الأرض : يضرب الأرض برجليه .

(٣) خبت الرهط : اسم موقع ، وألقى أرواقه : عدا فاشتد عدوه .

(٤) عيسى بن موسى بن محمد العباسى ، أمير من الولاة القادة وهو ابن أخى
السفاح والمنصور . كان يقال له « شيخ الدولة » ولاء عمه السفاح الكوفة وجعله
ولى عهد المنصور . فاستنزل المنصور عن ولاية العهد وأرضاه بمال وفير ، وجعلها
لابنه المهدي . فلما ولى المهدي الخلافة خلعه من ولاية العهد . فأقام فى الكوفة حتى
توفى سنة ١٦٧ هـ . وكان أديباً وله شعر جيد .

(٥) هو شريك بن عبد الله النخعى الكوفى ، كان فقيهاً عالماً بالحديث .
عرف بمحبة الذكاء وسرعة البديهة . وقد ولى قضاء الكوفة للمنصور ولابنه المهدي
من بعده ، واشتهر بالعدل فى قضاائه وأحكامه . وقد جاءت نفس هذه الحكاية فى :
« كتاب الوزراء والكتاب » باختلاف فى الألفاظ ، وإن الذى شاوره عيسى هو يونس
ابن أبى فروة كاتبه وليس شريكاً القاضى . كما جاءت نفس الحكاية فى : « مروج
الذهب » باختلاف فى الألفاظ أيضاً ، وأن الذى شاوره عيسى هو ابن شبرمة . =

فقال له شريك : لا تقتله ، فإن المنصور أراد أن يستريح منه على يدك ، فإذا طولب به سلمك إلى أوليائه فيستريح منك أيضاً . فأخفى عيسى بن موسى عبد الله بن عليّ .

فلما صدر المنصور من حجه ، سأل عيسى عن عبد الله ، فقال : عملت فيه بالحزم . فبلغ الخبر أخوة عبد الله بن عليّ ، وهم سليمان وإسماعيل وصالح وعبد الصمد ، بنو عليّ بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، فأتوا أبا جعفر المنصور وهم عمومته فقالوا : أعطنا أخانا . فقال : هو عند عيسى بن موسى . فقال عيسى : يا أمير المؤمنين قد علمت ما قلت لي وقلت لك فيه . قال : ادفع أخاهم إليهم . فلما سمع ذلك أخوة عبد الله وثبوا على عيسى بن موسى وهم عمومة أبيه ، يسحبونه . فلما نَحَّوْهُ عن المنصور قال لهم : على رسالكم ، إن أخاكم عندي . ثم أخرجه ، فنظر إليه أخوته فطابت أنفسهم . ثم سلمه إلى أمير المؤمنين فحبسه حتى مات عبد الله بن عليّ^(١) .

ووقع التباعد بين أمير المؤمنين المنصور وبين ابن أخيه عيسى بن موسى ، فأراد خلعه وتولية العهد ابنه محمد بن عبد الله المهدي . فامتنع عيسى بن موسى من ذلك ، فكتب رسالة كان آخرها :

= راجع : كتاب الوزراء والكتاب ص ١٣٠ .

و مروج الذهب ٢ : ٢٤٤ .

و وفيات الأعيان ٢ : ١٦٩ - ١٧١ .

(١) راجع عن موت عبد الله بن عليّ : أسماء الغتالين ، المجموعة السادسة ،

ص : ١٩٢ . ومروج الذهب ٢ : ٢١٤ .

خَيْرُتُ أَمْرَيْنِ ضَاعَ الْحَزْمُ بَيْنَهُمَا إِمَّا صَغَارٌ وَإِمَّا فِتْنَةٌ عَمٌّ^(١)
وَقَدْ هَمَمْتُ مُرَاراً أَنْ أَسَاقِيَكُمْ كَأَنَّ الْمَنِيَّةَ لَوْلَا اللَّهُ وَالرَّحْمَ
وَلَوْ فَعَلْتُ لَزَلْتُ عَنْكُمْ نِعَمٌ بِكَفَرِ أَمْثَالِهَا تُسْتَنْزَلُ النِّقَمُ

قال : فكتب المنصور إلى عيسى بن موسى رسالة كان آخرها :

وَحَدْبَاءُ لَوْ أَطْلَقْتُهَا مِنْ عَقَالِهَا لَضَاقَ عَلَيْكَ الْأَفْقُ وَالْأَفْقُ وَاسِعٌ^(٢)
وَلَكِنِّي تَحْتَاطُنِي مِنْ حَفِيزَتِي تَذَكَّرُ أُخْرَى تَمْتَطِيهَا الْوَقَائِعُ
مَخَافَةَ أَحْدَاثٍ مَتَى مَا أَصِيحُ بِهَا تَقِفُ مَوْقِفَ الْخَيْرَانِ وَالنَّقْعِ سَاطِعٌ^(٣)
فَأَبْقِ عَلَى مَا بَيْنَنَا مِنْ قَرَابَةٍ وَرَاجِعْ نَجِيرَ الْمَذْنِبِينَ الْمُرَاجِعُ^(٤)
فَإِنَّكَ إِذَا وَلَيْتَ ذِمَّةَ بَيْنَنَا شَقَاقًا تَوَلَّتْكَ السِّیُوفُ الْقَوَاطِعُ

(١) الصغار : الذلة والهوان ، والعم : ما كان عاماً يشمل الجميع

(٢) الحدباء من الأمور : أشقها وأصعبها .

(٣) النقع : الغبار .

(٤) المراجع : التائب ، العائد إلى طريق الصواب .

البَابُ التَّاسِعُ عَشْرُ

فِي مُدَارَاةِ السُّلْطَانِ

حَدَّثَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ شُعْبَةَ^(١) عَنْ قَتَادَةَ^(٢) عَنْ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ^(٣) عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ زِيَادٍ الْحَارِثِيِّ^(٤) ، قَالَ : مَا أَظُنُّ أَحَدًا خَدَعَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غَيْرِي ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَقُولَ إِنَّهَا خَدِيعَةٌ ، وَلَكِنَّهَا تَوْفِيقٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : كُنْتُ عَامِلَ أَبِي مُوسَى^(٥) عَلَى الْبَحْرَيْنِ ، فَكُتِبَ عُمَرُ إِلَى أَبِي مُوسَى : أَنْ وَافِنِي بِعَمَالِكَ إِذَا صَدَرْتَ عَنِ الْمَوْسِمِ . قَالَ : فَقَدِمْنَا مَعَ أَبِي مُوسَى ، فَلَمَّا كُنَّا بِبَصْرَةَ^(٦) سَبَقَتْ أَصْحَابِي إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَلَقِيتُ يَرْفَا حَاجِبَ

(١) هُوَ شُعْبَةُ بْنُ الْحَجَّاجِ الْعَتَكِيُّ : مِنْ أَهْلِ وَاسِطٍ وَقَدْ مَكَنَ الْبَصْرَةَ وَتَوَفَّى فِيهَا سَنَةَ ١٦٠ هـ . كَانَ عَالِمًا بِالْأَدَبِ وَالشَّعْرِ وَمِنْ أَعْلَمَةِ الْحَدِيثِ ، قَضَى حَيَاتِهِ يَفْتَشُ عَنِ الْمُحَدِّثِينَ وَيَأْخُذُ عَنِ الثَّقَاتِ مِنْهُمْ ، حَتَّى قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ عَنْهُ : لَوْلَا شُعْبَةُ مَا عُرِفَ الْحَدِيثُ بِالْعِرَاقِ .

(٢) قَتَادَةُ بْنُ دَعَامَةَ : عَالِمٌ بَصْرِيٌّ ، كَانَ أَحْفَظَ أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، وَإِمَامًا فِي الْعَرَبِيَّةِ وَمُفْرَدَاتِهَا وَأَيَّامِ الْعَرَبِ وَأَنْسَابِهَا . تَوَفَّى بِوَاسِطٍ سَنَةَ ١١٨ هـ .

(٣) جَابِرُ بْنُ زَيْدٍ : تَابِعِيٌّ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ، يُعْتَبَرُ مِنْ أَعْلَمَةِ الْفُقَهَاءِ . صَحِبَ ابْنَ عَبَّاسٍ وَأَخَذَ عَنْهُ ، وَكَانَ مِنْ بَحُورِ الْعِلْمِ . وَيُعْتَبَرُ مُؤَسِّسَ مَذْهَبِ الْأَبَاضِيَّةِ . نَفَاهُ الْحَجَّاجُ إِلَى عُمَانَ ، وَتَوَفَّى سَنَةَ ٩٣ هـ .

(٤) أَمِيرُ فَائِحٍ ، فَتَحَتْ مَسْجِدَتَانِ عَلَى يَدَيْهِ . أَدْرَكَ عَصْرَ النَّبُوَّةِ وَوَلَّى الْبَحْرَيْنِ ، وَقَدَّمَ الْمَدِينَةَ أَيَّامَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ . كَانَ شَجَاعًا تَقِيًّا .

(٥) هُوَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ .

(٦) بَصْرَةَ : وَادٍ فِي الْحِجَازِ .

عمر رضى عنه ، فقلت : يا يرفا ، سائل ومسترشد ، فأرشدنى أرشدك الله .
فقال : سل عما بدالك . فقلت : على أى حال يُحب أن يرى أمير المؤمنين
عامله ؟ قال يحب أن يراه أشعث أغبر ذميم الثياب عافى الشعر^(١) . قلت : أى
الطعام أحب إليه ؟ قال : ما جَشَبُ^(٢) و غاظ .

قال : فانطلقت إلى منزلى فتجوَّعت يوماً وليلة ، ولبست أطمارى^(٣) ،
ووافيت أصحابى بباب أمير المؤمنين عمر (يسحبون حلاهم . قال : فدُعِىَ
أبو موسى فدخل ، ثم دُعِىَ بنا) فدخلنا ، فاصطففنا بين يديه . وصعد
فينا البصر وخفضه ، فوقعت عينه علىّ . فقال : هكذا . وأشار إلىّ أن أقبل ،
فدنوت . فقال : من أنت ؟ قلت : الربيع بن زياد بن أنس بن الريّان الحارثى .
فقال بيده هكذا ، أى تنحّ ، فتنحيت . فصعد فينا البصر وخفضه ، فوقعت
عينه علىّ ، فقال بيده أن أقبل ، فدنوت ، فقال لى : ماتلى من عملنا ؟ قلت :
البحرين . فقال : يا أبا موسى ، كيف هذا ؟ قال : كالخبر^(٤) . ثم قال بيده
(أن تنحّ فتنحيت ، ثم صعد فينا البصر وخفضه ، ثم قال بيده) أن أقبل ،
فدنوت ، فقال : كم تر تزق ؟ قلت : خمسة دراهم فى كل يوم . قال : مع عطائك ؟
قلت : نعم . قال : كثير ، منذ كم وليتها ؟ ثم قال بيده ، فتنحيت . ثم صعد
فينا البصر وخفضه ، ثم قال بيده أن أدن فدنوت ، فقال : كم أنت لك ؟ قلت :
أنا فى ثلاثة وأربعين ، يعنى سنة . قال : ذاك حين استحكمت سنك . ثم قال
بيده ، فتنحيت . ثم صعد فينا البصر وخفضه ، ثم قال : اجاسوا ، فجاسنا .

(١) عافى الشعر : طويل الشعر .

(٢) جَشَبَ الطعام : خشن وغلظ .

(٣) الأطمار : مفردھا الطمر وهو الثوب الخاق والكساء البالى .

(٤) أى كما تراه ، فمظهره كمخبره .

وَدَعَا بِطَعَامِهِ ، فَأَتَى بِجَفَنَةٍ فِيهَا ثَرِيدٌ مَلَّةٌ^(١) وَلَحُومٌ إِبِلٌ ، قَالَ : فَأَمَّا أَصْحَابِي
فَعَهَّدَهُم بِالطَّعَامِ اللَّيْنِ حَدِيثٌ ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ جَائِعًا . قَالَ : فَأَقْبَلْتُ آكُلُ
وَهُوَ يَلْأَحْظُنِي ، ثُمَّ أَسْقَطْتُ^(٢) بِكَلِمَةٍ تَمْنَيْتُ أَنْ تَذْشُقَ بِي الْأَرْضُ فَأَدْخَلَ فِيهَا ،
فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَوْ كَانَ طَعَامُكَ الَّذِي تَأْكُلُ الْيَنُّ مِنْ هَذَا ؟ فَرَفَعَ رَأْسَهُ ،
فَقَالَ : هَيْهَ ، قُلْتُ : مَاذَا ؟ فَأَدْرَكْتُهَا ، فَقُلْتُ : لَوْ كُنْتُ تَعَمَّدُ إِلَى قَوْتِكَ مِنَ الْخُبْرِ
فَيَخْبِزُ لَكَ فِي السَّاعَةِ الَّتِي تَرِيدُ أَكَلَهُ فِيهَا أُتَيْتُ بِهِ لَيْنًا ، وَلَوْ نَظَرْتُ إِلَى قَوْتِكَ مِنَ
اللَّحْمِ فَطَبَخَ فِي السَّاعَةِ الَّتِي تَرِيدُ أَكَلَهُ فِيهَا ، أُتَيْتُ بِهِ غَضًّا . قَالَ : أَوَّ هُنَاكَ فَرَقَ ؟
قُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : إِنَّا وَاللَّهِ لَوْ شِئْنَا أَنْ نَمْلَأَ هَذِهِ الرَّحَابَ الَّتِي تَرَى مِنْ صَلَاتَيْ^(٣)
وَصِنَابٍ^(٤) وَكَرَاكِرٍ^(٥) وَأَسْنَمَةٍ^(٦) وَسِبَائِكَ ، يَعْنِي خُبْزَ الرِّقَاقِ ، فَعَامَنَا ،
وَلَكِنْ سَمِعْنَا اللَّهَ يَقُولُ : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ
بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ »^(٧) ، ثُمَّ التَفْتُ إِلَى أَبِي مُوسَى فَقَالَ :
يَا أَبَا مُوسَى ، إِذَا انْصَرَفْتَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَالِحًا فَاعْزِلْ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا ، وَاتْرِكْ هَذَا
عَلَى عَمَلِهِ :

(١) ثَرِيدٌ الْمَلَّةُ : ثَرِيدُ الْخُبْزِ الْمَنْضُجَةِ .

(٢) أَسْقَطْتُ : أَخْطَأْتُ .

(٣) الصَّلَاتُ : مَفْرُودُهَا الصَّلِيْقَةُ وَهِيَ اللَّحْمُ الْمَشْوِيُّ الْمَنْضُجُ .

(٤) الصِّنَابُ : إِدَامٌ يَتَّخِذُ مِنَ الْخُرْدِ وَالزَّيْتِ .

(٥) الْكَرَاكِرُ : مَفْرُودُهَا الْكَرْكِرَةُ وَهِيَ الصَّدْرُ مِنْ كُلِّ ذِي خَفٍّ ، وَزُورُ

الْبَعِيرِ الَّذِي إِذَا بَرَكَ أَصَابَ الْأَرْضَ ، وَهِيَ نَاتِيَةٌ عَنْ جِسْمِهِ كَالْقِرْصَةِ ، وَهِيَ مِنْ
أَطْيَابِ مَا يُؤْكَلُ مِنَ الْإِبِلِ .

(٦) الْأَسْنَمَةُ : جَمْعُ سَنَامٍ .

(٧) سُورَةُ الْأَحْقَافِ ، الْآيَةُ ٢٠ .

وَحَكِي الْعَبَّاسُ^(١) (عن) ابن عِيَّاش قال : حدثت أبا العباس^(٢) بحديث وأبو جعفر عنده ، فضحك منه وقال : أعدده عليَّ ففعلت . فلما استخلف أبو جعفر جئنا لنسلم عليه ، فلما انصرفنا قال لي عيسى بن روضة الحاجب : يا ابن عِيَّاش أجب أمير المؤمنين . فدخلت عليه فقال : حديث سمعتك تحدث به أبا العباس أعدده عليَّ . فقال : زعمت الأعاجم أن أول من دوّن الدواوين منهم ، ومن ثغر الثغور ، وجبى الفىء ووضع لهم الآداب ، أنوشروان . وأنه قرىء عليه ذات يوم كتاب فيه صفة ملك سليمان بن داود ، وما أعطاه الله سبحانه وسخر له من الجن والإنس والشیاطين ، وأن الريح كانت تُقَلُّه والطير تُظِلُّه ، وكان يُقَيِّلُ^(٣) باصطخر^(٤) ويبیت بالمدائن^(٥) . قال : فقام أنوشروان من مجلسه خائر النفس متغير اللون ، فأقام ثلاثة لا يأذن لأحد . ففرغت الأعاجم إلى الموبذ ، وكان قاضى القضاة عندهم ، فقالوا : أقام ثلاثة من غير عِلَّة ولا مكروه نزل به ، وهذا وهن شديد فى المملكة . قال : فدخل عليه الموبذ ، وكان لا يحجب عن الملوك عند نساءهم كانوا أو عند غيرهن ، فكلّمه فى ذلك . فقال : أو ما تدرى ما نزل بى ؟ قال : لا . قال : قرىء عليّ كتاب فيه صفة ملك سليمان بن داود ،

(١) هو العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، أخو المنصور والسفاح .
ولاه المنصور بلاد الشام ، كما أرسله لغزو الروم ، مات ببغداد سنة ١٨٦ هـ .

(٢) يقصد أبا العباس السفاح أول خلفاء بنى العباس .

(٣) يُقَيِّلُ : ينام القائلة أى نصف النهار .

(٤) إصطخر : من أقدم مدن فارس ، تقع قرب شيراز ، بناها دارا الأول واتخذها عاصمة له . وقد سماها الرومان برسيبوليس .

(٥) المدائن عاصمة الفرس فى العراق ، تقع على دجلة جنوبى بغداد . وآثارها عند سلمان باك الآن ، ومن بقاياها القائمة طاق كسرى .

وما سُخِّرَ له ، فصغر ملكي في عيني حتى صار ذبابةً . قال : وهذا صيِّرك إلى ما أرى ؟ قال : نعم . فقال : قد سُخِّرَ لك ما لم يُسَخَّرَ لسليمان بن داود . قال : وما هو ؟ قال : أهل ميسان^(١) وأهل الأنبار^(٢) . فضحك ، ثم قال : هات يدك . فخرج إلى أهل مملكته .

حُكِيَ أن ملكاً كان له وزير صالح لا يأمر إلا بالخير ، ولا يحض إلا عليه . وكان الملك يبغض النِّسَّاك ، وكان الوزير يُقبل عليهم . فحسده قرابة الملك (فأتوا الملك) فقالوا : إن هوى الوزير إنما هو يعزم أن يخرجك من ملكك . فإن أردت أن تعلم ذلك فقل له : إني قد عزممت أن أودِّع ملكي وألحق بالنِّسَّاك بالجبال . فإنك ستري من قبوله ذلك وسروره ما يدلك على ما قلنا . ففعل الملك ذلك ، فرأى ما قالوه وتبيَّن ذلك في وجه الوزير .

فانصرف الوزير كئيباً حزيناً . وكان في بعض مسيره مرّة برجل ظاهر الزمانة^(٣) ، فقال له : أيها الوزير ، ضمّني إليك فإن لك عندي خيراً . قال : وما ذاك ؟ قال : إني رجل أرتق الكلام . قال : وما رتق الكلام ؟ قال : إذا وجدت فتقاً رتقته . قال له : أنا فاعل ذلك ، وإن لم يكن عندك نفع .

(١) ميسان : كورة واسعة كانت بين البصرة وواسط وفيها قرية بها قبر العزيز .

(٢) الأنبار : مدينة على الفرات غربي بغداد . أسسها الفرس وكانوا يسمونها فيروز سابور . وقد جردها أبو العباس السفاح وبنى بها قصوراً واتخذها عاصمة له أقام فيها إلى أن مات ، ولما ولي المنصور الخلافة انتقل منها إلى الهاشمية التي أسسها السفاح وأقام فيها حتى تم بناء بغداد .

(٣) ظاهر الزمانة : ذو عاهة ، مقعد .

فذكر الوزير قوله ، فدعا به ، فقال : أما تفعل الذي وعدت ؟ قال له : قصّ عليّ قصتك وما دهاك . فقصّ عليه قصته وقصة الملك وصحبته إياه ، وما دهاه في عثرته . فقال له : حسدك قرابته فأثروه فقالوا له : إنه يريد إخراجك من ملكك ، فإن أردت أن تعلم ذلك فاستثّر ما قبّله . والحيلة في هذا أن تلبس المسوح^(١) ، وتأتى الملك في الغلس^(٢) ، فإذا علم بمكانك فدعا بك فسأل عن قصتك ، فقل له : دعاني الملك إلى أمر الموت أهون عليّ منه ، ولكني كرهت خلافه . فإنه سيتحامل ما في نفسه^(٣) . ففعل ذلك فوقع من الملك بحيث قال .

حدث هشام بن الكلبي قال : أغار امرؤ القيس بن المنذر جد النعمان على النمر بن قاسط^(٤) ، فأسر ناساً كثيراً ، وأخذ ماء السماء بنت عوف بن جشم ابن هلال بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر بن الضحيان^(٥) النمرية ، وهي امرأة أبي حوط النمرى ، وقد ولدت له جابراً . إذ كان جابر بن أبي حوط أخا المنذر ابن امرئ القيس لأمه . فورد بهم الحيرة ، فحظر^(٦) لهم حظائر وهم بأن يحرقهم . فكلّمه أبو حوط في امرأته ، فقال : نخبّها فإن اختارتك دفعتها إليك ، وإن اختارتني أمسكتها ، فقال : نعم .

(١) المسوح . الكساء من الشعر يلبس على البدن تقشفاً .

(٢) الغلس : ظلمة آخر الليل .

(٣) يتحلل ما في نفسه : ينثنى عما في نفسه .

(٤) النمر بن قاسط : من زعماء بني أسد في الجاهلية وكان له بالمدينة عقب كثير ارتد جماعة منهم أيام أبي بكر فحاربهم خالد بن الوليد . ويقصد هنا جماعة منسوبين إلى النمر بن قاسط .

(٥) في ١ : « الضحاك » .

(٦) حظر : اتخذ حظيرة ، وهي ما يحيط بالشئ من خشب أو قصب .

وبعث أبو حوط إلى امرأته : إن الملك يبعث إليك يخبرك فيّ وفي نفسه ،
وليس بتاركك ، فقلولي أختار والله الأطيب عرقاً والأسمن مرقاً . فأرسلت
إليه : إني قد وقعت في نفسه وليس بدافعي إليك ، فاستوهب منه قومك .
فبعث إليها يخبرها ، فقالت : أختار والله الأطيب عرقاً والأسمن مرقاً . فقال :
أبيت اللعن قد اختارتك ، فلا تجمع عليّ ذهاب امرأتى وتحريق قومي . قال :
هم لك . فسُمي أبو حوط الحظائر ، فقال في ذلك :

أبيت اللعن إنك خير دافع	ونحن عبادك القنّ القطين ^(١)
لقد جمع الحظائر من معدٍ	رجالاً كل شكواهم أنين
جنوا حرباً عليك وكل قوم	ولو عزوا الحربكم طحين
ولو أوعدت ذا لبدٍ شتياً	لضاق عليه بالخوف العرين ^(٢)

(١) القن : العبد مُملك هو وأبواه ، للواحد والجمع . والقطين : الإماء والخدم والأتباع .

(٢) أوعد : تهدد ، وذا لبد : كنية الأسد .

البَابُ الْعِشْرُونَ

فِي الْإِنْتِقَامِ مِنْ سَكَابِي مُلْكٍ

حُكِيَ أَنَّ مَلِكًا مِنْ مَلُوكِ الْبَلَدِ يُكْنَى بِأَبِي مَالِكٍ ، طَالَ عَمْرُهُ وَعَظُمَ شَأْنُهُ وَاتَّسَعَ سُلْطَانُهُ ، وَفِيهِ يَقُولُ الْأَعَشَى :

وَحَاتِ النَّعِيمُ أَبَا مَالِكٍ وَأَيُّ أَمْرٍ لَمْ يَخْنُهِ الزَّمَنُ
وَكَانَ لَهُ بَنُونَ ، فَرَشَحَ مِنْهُمْ ثَلَاثَةَ لِلْمَلِكِ بَعْدَهُ ، وَلَقَّبَهُمْ بِذِي رُعَيْنِ
وَذِي نُوَاسٍ وَذِي يَزَنَ . فَلَمَّا كَبُرَتْ سِنُهُ قَالَ لَوْزِيرِهِ : إِنْ سَنِي قَدْ كَبُرَتْ
وَدَنُوتِي مِنْ أَجَلِي ، وَلَسْتُ آمِنٌ مَنْ أَخْلَفَ مِنْ قَرَابَتِي ، مَعَ جَلَالَةِ أَحْوَالِهِمْ
وَكَثْرَةِ رَجَالِهِمْ فِيهِمْ ، عَلَى وَلَدِي هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ بَعْدِي ، فَمَا تَرَى ؟ قَالَ لَهُ الْوَزِيرُ :
أَرَى لِمَا يَجِبُ عَلَيَّ مِنْ نَصِيحَتِكَ أَنْ تَقْصِدَ أَوَّلَى قَرَابَتِكَ الَّذِينَ تَخَافُهُمْ عَلَى
وَلَدِكَ ، بِالْغَضِّ وَالْهَوَانِ^(١) ، وَأَنْ تَتَّبِعَ عَثَرَاتِهِمْ وَتَتَجَرَّمُ عَلَيْهِمْ^(٢) ، وَتَوَلَّى
مَنْ كَانَ ذَا مَالٍ مِنْهُمْ ، ثُمَّ تُظْهِرْ أَنَّهُ خَانَ فَتَصْطَفِي مَالَهُ^(٣) . وَتَقْطَعَ أُمُورَهُمْ لِكَيْ
تَسُوَّ أَحْوَالَهُمْ وَتَضْعِفَ أَرْكَانَهُمْ ، فَإِنْ مِنْ أَقْفَرَتْ يَدُهُ قَصُرَتْ هِمَّتُهُ وَسَقَطَتْ
نَفْسُهُ . وَأَنْ تَبْنِيَ مَدِينَةً جَدِيدَةً وَتَخْتَارَ عَشْرَةً مِنْ قَوَادِكِ مِنْ أَهْلِ الثِّقَةِ وَبُعْدِ
الذِّكْرِ ، وَتَقْسِمَ أَصْحَابَكَ أَقْسَامًا عَشَرَ ، فَتَنْضِمَ إِلَى كُلِّ قَائِدٍ مِنْهُمْ قِسْمًا . ثُمَّ تَحْوِلْ

(١) الْغَضُّ وَالْهَوَانُ : خَفْضُ الْمَرْكَزِ وَإِنْقَاصُ الْقَدْرِ وَالتَّحْقِيرُ .

(٢) يَتَجَرَّمُ عَلَيْهِ : يَدْعَى عَلَيْهِ الْجُرْمَ وَإِنْ لَمْ يَجْرَمْ ، أَيْ يَتَّهِمُهُ بِالْجُرْمَةِ .

(٣) يَصْطَفِي مَالَهُ . يَأْخُذُهُ كُلَّهُ ، يَصَادِرُهُ .

أولادك الثلاثة إلى المدينة الجديدة ، وتحوّل القواد العشرة بأصحابهم معهم . وتأخذ العهد لأولادك^(١) على الناس . وتحوّل مالك وسلاحك وذخائرك مع ولدك . فإن حدث بك حدث كنت قد أحكمت الأمر لأولادك من بعدك .

فقبل أبو مالك رأى وزيره ، وبدأ بأهل بيته فضغفهم وعضهم^(٢) . وبنى مدينة صنعاء ، وحوّل إليها أولاده وأجناده وذخائره مع عشرة من أصحابه . ثم هلك بعد أن أحكم ما أراد . فولى الملك بعده ابنه ذو رعين وهو غرّ حدث متّرف ، فمالت به لذاته عن سنن السياسة ، واستولى القواد العشرة على أكثر الأمر ، فاستبدوا به ، حتى أظهروا الاستخفاف بأمر ذي رعين . وبدأ منهم التهاون به ، فناكرهم^(٣) وتغيّر لهم وهمّ بهم . فخافوه على أنفسهم وأرادوا الفتك به ، فلم يجسروا عليه . فأتوا أخاه ذا نواس فقالوا له : إن أخاك قد أهانك واطّرحك^(٤) وضيق عليك وبلغنا أنه يريد نفسك . قال : وما عسيت أن أصنع ؟ وكيف بالوزر منه^(٥) ؟ ولا أعلم لي ذنباً إليه يوجب القتل . قالوا : لقد خانك على أمره بعده ، وأحبّ أن يصفو الأمر لولده ، وأنت بعرض هلاك وبمحل تلف . فهاؤوا قلبه (فتغيّر) لأخيه . فلما دخل على أخيه ، أنكر ذو رعين وجه ذي نواس ، فتنكر له وعبس في وجهه .

فانصرف ذو نواس وقد تقرر قول القواد عنده ، فقال إليهم مستعيناً

(١) في ١ : « لأصحابك . »

(٢) عضهم : أسلمهم لشدة الزمان .

(٣) ناكره : عاداه وناوأه .

(٤) اطّرح : أبعد وأهمل .

(٥) كيف بالوزر منه : أين يكون الملجأ منه .

بهم مما خاف . فلما علموا أن الحال بين الأخوين قد فسدت ، قالوا لذي نواس : مالنا عندك إن كفيناك ما تخاف وبلغناك ما تحب ؟ قال : ما شيء يمكنني من مجازاتكم إلاّ وهو قليل فيما أرى لكم . قالوا له : فوثّق لنا من نفسك بما نريد منك . قال : فوثّقوا منه بشرائطهم ، وطلبوا غيرةً من ذي رعين وهو منغمس في لذاته ، راسب في غفلته ، حتى خلوا به في بعض نَزَهِه فقتلوه ، وأظهروا أنه شرق بشرابه^(١) . وأخذوا ذا نواس فمقدوا التاج على رأسه . فلما ولي ذو نواس الملك ، أظهر من برّ القواد العشرة وتقديمهم وتقائدهم أموره ما استفرغ (فيه وسعه)^(٢) ، واستأسرته لذته وغمرته شهوته . فاستبدت العشرة بالأمر عليه وأبدوا الاستهانة به ، ثم تمالى ذلك بهم على ممر الأيام ، حتى أحوج ذا نواس إلى مناكرتهم وتجهمهم وإظهار الشنآن^(٣) لهم . ورام الاستبدال بهم ، وغرس صنائع يحددهم في مواضعهم . وكاتب أهل الأقاصى من ملكه بما همّ به فيهم . فظفروا بكتبه وعلموا ما في نفسه ، فدسوا له بعض ثقات خدامه وأرغبوه في المال فسّمه وقتله .

فولى ذو وزن الملك . وكان أصلاح إخوته مذهباً وأصحهم قريحة وأعزهم نفساً . وقد رأى ما نال إخوته قبله ، فأشعره ذلك حزناً^(٤) ووجلاً . فأجهد نفسه في إصلاح ماله . وخاف القواد العشرة عما جرت عليه عادتهم ، فسما لأمر

(١) شرق بشرابه : مُغصّ به .

(٢) ما استفرغ فيه وسعه : بذل كل ما يقدر عليه من جهد .

(٣) الشنآن : البغض والكراهية .

(٤) في ب : « حذراً » .

طال فسادُه وعسر دأؤه^(١) . واستظهرت عليه العشرة بكثرة العدة والعتاد والعدد والمال . فكاتب ذو وزن رجلاً من ولاته في أطراف مملكه عظيمًا قوى السلطان منيع المكان . فشكا إليه ذو وزن ما يقاسى من هؤلاء العشرة وما حلَّ بإخوته منهم ، وأنه لا يأمنهم على نفسه ، وسأله أن ينجده على صلاح مملكه . فكتب إليه عامله أن الرأى فيما يحاول ، أن ينسلَّ سرًّا حتى يصير إليه ، فيأمن على نفسه ، ثم يقع التدبير بعد ذلك .

نخرج ذو وزن وقد كتم أمره جهده . ونذرت به العشرة فاتبعته فقتلته . ثم انكفأت راجعة إلى صنعاء لتُملِّك رجلاً من أهل الملك ، فوجدت جميع (أهل) بيت الملك قد هربوا واستخفوا . فبقيت العشرة متحيرة تخاف أن يظهر ما صنعوا في النواحي ، ولم يُعدوا ملكًا فتنتقض عليهم الأمور . فقال لهم رجل منهم : هل لكم في أمر تقرب فيه محبتكم وبه سلامتكم ؟ قالوا : نعم . قال : تصيرون جميعاً إلى منزلى حتى أعرض عليكم رأياً عندي . فصاروا إلى منزله فقرب إليهم طعاماً ، ثم قال : إنكم عاهدتم الله مرةً بعد مرة ثم خنتم العهد وغدرتم بالإيمان وقتلتم الملوك وارتكبتم العظائم . والرأى عندي أن تتوبوا جميعاً عما فعلتم إلى الله عز وجل وتستغفروه ، ثم تحكموا القضاء ، فتدجوا^(٢) في الليل إلى باب المدينة ، فأول من يخرج منها ، مَنْ كان ، وليتموه الملك . فركنوا إلى قوله ، وتحالفوا عليه .

ثم خرجوا في الليل إلى باب المدينة ، فأول من خرج عليهم رجل حبشى

(١) في ب : « دأؤه » .

(٢) أدج : « سار ليلاً » .

طويل القامة منكر الصورة ، عليه مدرعة صوف وعلى عنقه رابّة^(١) وفي يده مسحاة . فقالوا له : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : رجل من الحبشة عبد لفلان . قالوا : فما أَحَلَّكَ هذا الحل ؟ قال : سوء الأدب والاستخفاف بالمذهب . فوجهوا إلى مولاه فأحضر فقالوا له : هَبْ لَنَا عَبْدَكَ هذا ، أو بعنا (إياه) . قال : هو أقل قيمة من أن أراجعكم فيه ، ولكن ما حاجتكم إليه ؟ قالوا له : إنا تعاهدنا على أن نملك أول من يخرج علينا من باب المدينة . قال : ولم لم تملكوا أحدهم ؟ قالوا : لم يسمح بعضنا لبعض بذلك . قال : فإني أحذركم هذا العبد ، فإنه أبعد خلق الله غوراً^(٢) وأشدّهم حقداً وأمرهم نفساً^(٣) وأمضاهم فتكاً . قالوا : لا بد من توليته الملك . قال : فهو حرّ .

قال : فأخذت العشرة الأسود فأخرجته مما كان فيه ، وألبسته ثياب الملك ، وحملوه على فرس من دواب الملك إلى دار المماكة ، فأجاسوه على سرير الملك ، ووضعوا التاج على رأسه ، وجمعوا الناس فبايعوه ، فقعد الحبشي في مجاسه لا يسأل عن شيء ولا يطلبه ولا يأمر به . فإن أتى بطعام أو ثياب أكل ولبس ، وإن تأخر عنه أمسك عن طلبه . وخت العشرة بالأمور وأعمال المماكة . فكث الحبشي بذلك حولاً لا يعترض في شيء . ثم حضر لهم عيد لا يجدون بداً من إخراجه ، فأخرجوه في أحسن زي وأكثر جمع . فبينما هو يسير وهم حوله ، إذ بَصُرَ برجل أسود في ناحية من الطريق ، فأحدّ النظر^(٤) إليه والتفت لا يقلع عنه . فقال له أحد العشرة : أيها الملك ، ما الذي

(١) الرابّة : العقدة المحكمة .

(٢) أبعد غوراً : الغور القعر من كل شيء ، أى أشد عمقاً .

(٣) أمرهم نفساً : أقواهم في الخصومة .

(٤) أحدّ النظر : دقق النظر فيه لتمييزه .

تنظر إليه ؟ قال : أخى . (قالوا) فهلاً أعلمنا الملك أن له أخاً فيبلغ من إكرامه ما يستحق ؟ قال لهم : لم أعلم بحضوره . فأمرُوا بأخيه فكُسى أحسن الكسوة وحمل على فرس ، وجاءوا به يسائر أخاه .

فلما رجع الملك إلى قصره ، دخل أخوه معه فجالسه وآنسه ، ثم قال له الملك : لا ترى أحداً من السود إلا ادعيت أن بيننا وبينه قرابة وأدخلته على . ففعل أخوه ذلك ، فجعل يأتى بالأسود بعد الأسود فيكسى ويُنحَل^(١) . والعشرة متهاونون بذلك ، قد حلوا بكسب الأموال ، حتى كثر السودان فى دار الملك ، ولبسوا السيوف وركبوا الخيل ، فولأهم الملك حجابته وصيرهم بالسلاح على أبوابه .

وكانت العشرة يدخلون عاياه بغير إذن ، ثم امتنع حجابته ، فصاروا لا ياقونه إلا فى وقت نشاطه لهم ، وازداد السودان كثرةً وعِزًّا . فلما علم الحبشى أن الفتك به من العشرة غير ممكن تنكّر لهم ، واعترض فى الأمور عليهم . وأمرهم أن لا ينفذوا شيئاً إلا عن رأيه . فأرادوا الفتك به ، فامتنع عليهم بسودانه وأغلظ لهم الحبشى فى لفظه . وبلغهم أنه يتوعدهم بخافوه على أنفسهم . وأجالوا الرأى بينهم ، فقال أحدهم ، وهو الذى كانوا اجتمعوا فى منزله : تصيرون إلى منزلى حتى تبرموا الرأى . فصاروا إليه فقال لهم : إنا قد اقتنينا من الأموال ما لا نخاف معه فقراً ، فنستأذن (هذا) الملك فى التفرق إلى أوطاننا وبلداننا وننحَلّيه وأمره ، ونعيش فى عافية وغبطة ببقية أعمارنا . فأجمعوا على ذلك . ثم هابوا الملك عن مواجهته بالاستئذان . فأجالوا الرأى ، فاجتمع رأيهم على أن

(١) فى ب : « وينحَلّى » .

يسألوا مولى الملك الذى أعتقه أن يستأذن لهم . فبعثوا إليه فأتاهم ، فقالوا له :
إنا أردناك لتستأذن لنا الملك فى التفرُّق إلى أوطاننا . قال لهم : ما أعجب ما سألتهم ؟
هذا ملك كنت أضربه وأقيدُه وأكُذِّه وأستخف به ، وما منأى إلا أن
ينسانى . فقالوا له : اِحتكم فى المال ، فإننا جاعلون لك منه أكثر من أمنيته ،
وطلبوا إليه وأحضروه مالا جليلاً وحملوه إليه . فاما رأى ما بذلوا له من المال
وأنه قد حصَّله ، حمل نفسه على التعرض للموت ، وأمَّل السلامة .

فخرج فوقف بباب الملك ، والملك ينظر إلى مَنْ على الباب من حيث لا يعلم
به . فلما رأى مولاه قال لحاجبه : علىَّ بذلك الرجل . فلما دخل مولاه إليه على
وجلٍ منه ، ورآه الملك رحَّب به وأدناه وأحسن مساءلته عن حاله ، ثم قال له :
يا مولاي ، كَأَنى كنت (حاضراً) مشاهداً لأمركم ، إن هؤلاء العشرة الفَدَرَة
الفَجَرَة أرادوا أن يفتكوا بى فلم يمكنهم ، وخافونى على أنفسهم ولم يجترؤا
على مساءلتى بالإذن لهم ، فسألك أن تستأذن لهم فى اللحاق بأوطانهم ، فأيت
لخوفك منى ، فأرغبوك فى المال فخاطرت بنفسك . قال له الرجل : كَأَنكَ أيها
الملك كنت عندنا . قال الملك : فأَمَّا خوفك منى فأنت منه آمن ، لأنك
لم تعاقبنى إلا بدون ما أستحق ، وأردت بى الصلاح . وأما العشرة فإنى أدعو
بهم . ثم تحوَّل إلى مجلس عامته وأمر سودانه ، فقاموا بالسيوف على رأسه .
ثم دعا بالعشرة ، فلما جلسوا بين يديه قال : أبلغنى مولاي ما أحببت من الإذن
لكم فى الرجوع إلى أوطانكم ، وأنا لست من أهل بيت المملكة ، ولكن
الله عز وجل قيَّضنى لكم نعمةً عليكم أحلَّها بكم ، لقتلكم الملوك وغدركم بالآيمان
والعهود . ثم أمر سودانه (بهم) بلسانهم ، فأخذتهم السيوف فقتلتهم . ثم قال
لمولاه : اِمض آمناً وما صار إليك من المال فهو لك .

وكان لدى يزن امرأة من بنات الملوك فحلفتها حاملاً ، فرأت في نومها كأن سيفاً خرج من قُبْلِهَا ، فولدت غلاماً فسمته سيفاً . فلم تزل الحبشة تداول الملك باليمن حتى بلغ سيف وصار (رجلاً) ، فشخص إلى ملك الروم فاستجاشه على الحبشة وسأله النصرة ، فقال ملك الروم : بلدك لا يجاور بلدى ، ودين قومك ليس على دينى ، فلا يمكننى نصرتك ، ووصله .

فخرج سيف حتى قدم على كسرى فاستنصره على الحبشة . فقال له كسرى كعالة ملك الروم ، واعتل بمخالفة الدين وبعُد البلد . فقال له سيف : (إن كنت) لا تريد خراجاً ولا تنصر (ديناً) فاغضب للطينة البيضاء وأبناء الملوك من استعباد الطينة السوداء المشوهة . فغضب كسرى وأحفظه ما قال سيف ، فوعده النصر . وأراد أن يوجه معه جيشاً ، فقليل له : إن البلد شاسع والطريق جذب ، أو فى البحر ، وفى توجيهك الرجال إخطار بهم . قال كسرى : فلا بد من نصرتي لِمَا وعدته . فقليل : إن فى سجونك^(١) إثني عشر ألفاً فأخرجهم وأمر عليهم أميراً ووجههم فى البحر ، فإن ظفروا فالظفر لك ، وإن هلكوا لم تنلم (ملكك) وجندك . ففعل ذلك كسرى ، ووجه من سجون^(٢)ه إثني عشر ألفاً فأخرجهم وأمر عليهم أميراً شيخاً يقال له وَهْرَزُ . فخرجوا باليمن وخرج إليهم ملك الحبشة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، والحبشى على فيل وعلى رأسه تاج ، فرماه وَهْرَزُ بسهم فذهب السهم فى جبهته . فانهزمت السودان وأجلوا عن اليمن ، وسلم الملك إلى سيف .

(١) فى ١ : « جيوشك » .

(٢) فى ١ : « جيوشه » . وقد صححناه على ما جاء فى الطبرى (م) ٢ : ١٤٤ .

البَابُ الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ

فِي الْخَلَاصِ مِنْ نِقْمَةِ مَنْ يُعِينُ عَلَى قَطِيعَةِ الرِّحْمِ بِالْقَتْلِ

يقال إن ربيعة بن نصر (الملك) اللخمي رأى رؤيا هالته . فبعث إلى الحزاة^(١) من أهل مملكته . فلم يدع كاهناً ولا عاتفاً^(٢) ولا منجماً إلاّ جمعه إليه ثم قال لهم : إني رأيت رؤيا هالتي فأخبروني بها وبتأويلها . فقالوا : أقصصها علينا نخبرك بتأويلها . فقال : إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ، إنه لا يعرف تأويلها إلاّ من يعرفها قبل أن أخبره بها . فقال رجل منهم : إن أراد الملك هذا فليبعث إلى سَطِيح^(٣) وشِق^(٤) فلا أحد أعلم منهما - وسَطِيح هو ربيع بن ربيعة الديبي من بني الذيب من عدى . وشِق بن الصعب ابن يشكر الأنماري - فبعث إليهما فقصا عليه . وتقدم سَطِيح فقال له : إني رأيت رؤيا هالتي فأخبرني بها ، فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها . فقال :

(١) الحزاة : مفردها الحازي وهو الذي يزجر الطير فيتفاد بها أو يتطير منها

(٢) العائف : هو المتكهن بالطير أو بغيرها .

(٣) سَطِيح : كاهن جاهلي ، وقد عمر طويلاً واشتهر باسم سَطِيح الكاهن . عرف بالحكمة والعقل ، وضرب به المثل في جودة الرأي . وكان رؤساء القبائل يحتكمون إليه ويستشيرونه فيما يعرض لهم من مشا كل وأمور ، فيجيهم على ما في أنفسهم وكان شاذ الحلقة رخو العظام .

(٤) شِق : من أشهر الكهان في الجاهلية ، وكان يعاصر سَطِيح الكاهن . وقد اشتهر بالتنبؤ وتفسير الأحلام . وقد عاش عمراً طويلاً ، ويقال إنه كان ناقص الحلقة بيد واحدة وعين واحدة .

أفعلُ ، رأيتَ جُحُومَ خرجت من ظُلمة فوقعت بأرض تَهَمَة^(١) فأكلت منها ذات جُحُومَ . فقال الملك : ما أخطأت منها يا سطيح شيئاً ، فما عندك في تأويلها ؟ فقال : أحلف بما بين الحرمين من حَنَش^(٢) ، ليهبطنَّ أرضكم الحَبَش ، فليملكنَّ ما بين أُبَين^(٣) إلى جُرَش^(٤) . فقال له الملك : وأبيك يا سطيح إن هذا لغائظ^(٥) موجه ، فمتى هو كائن ، في زمانى أو بعده ؟ قال : بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين ، يمضين من السنين . ثم يُقتلون بها أجمعين أو يخرجون هاربين . قال الملك : ومَن الذى يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟ قال : يليه إرم ذى وزن ، يخرج من عَدَن ، فلا يترك منهم أحداً باليمن . قال : أفيدوم ذلك من ساطانه أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع . قال : ومن يقطعه ؟ قال : نبي زكى ، يأتيه الوحي من قبَل العلى . قال : ومن هذا النبي ؟ قال : رجل من ولد غالب بن فهر ، بن مالك بن النضر ، يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر . قال : وهل للدهر (من) آخر يا سطيح ؟ قال : نعم ، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، ويسعد فيه الحسنون ويشقى فيه المسيئون . قال : أحقُّ ما تُنْخِر ؟ قال : نعم ، والشفق والفسق ، والقمر إذا

(١) أرض تهمة وتهامة : هى الأرض المتصوبة نحو البحر ، ولهذا سمى القسم المنحدر نحو البحر من الحجاز تهامة .

(٢) الحنَش : نوع من الحيات ، وكل ما أشبه رأسه رأس الحية من الحراش وسوام أبرص ونحوها .

(٣) أبين : مخلاف باليمن ، منه عدن ؛ وكانت تعرف بعدن أبين (ياقوت)

(٤) جرَش : من مخاليف اليمن من جهة مكة (ياقوت) .

(٥) غائظ : موجب للغضب والغضب .

اتسق^(١) ، إنَّ ما أنبأتك به حق .

فلما فرغ من حديثه دعا بشقَّ فخاطبه بمثل ما خاطب سطيحاً وكتمه ما كان من جواب سطيح ، لينظر أيتفقان أم يختلفان ، فقال : نعم ، رأيت جُمُعة خرجت من ظُلُمة فوقعت بين روضة وأكمة فأكلت منها كل ذات نسمة ، فلما رأى الملك ذلك من قولهما عرف أنهما قد اتفقا في المعنى واختلفا في بعض اللفظ . فقال : ما أخطأت يا شقٍ منها شيئاً ، فما عندك في تأويلها ؟ قال : أحلف ما بين الحرمين^(٢) من إنسان ، لينزلن أرضكم السودان ، وليغلبن على كل طَفلة البنان ، وليلكن ما بين أُبَيَّن إلى نجران^(٣) فقال الملك : وأبيك إن هذا لغائظ موجه ، فمتى هو كائن ، أفي زمانى أم بعده ؟ قال : بل بعدك بزمان ، ثم يستنقذكم منه عظيم ذو شان ، ويذيقهم أشدَّ هوان . قال : ومن هذا العظيم الشان ؟ قال : غلام ليس بذى مُدَنٍّ^(٤) يخرج من بيت ذى وزن . قال : فهل يدوم سلاطانه أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع برسول من الرسل يأتى بالحق والعدل ، من أهل الدين والفضل (يكون الملك فى قومه إلى يوم الفصل) . قال : وما يوم الفصل ؟ قال : يوم^(٥) يدعى فيه من السماء دعوات ، يسمع منها

(١) اتسق القمر كمل وصار بدرآ . وفى الطبرى « والفلق إذا اتسق » —

الجزء الثانى — م ، ص : ١١٣ .

(٢) فى الطبرى « الحرتين » .

(٣) نجران : مدينة فى اليمن قريبة من جرش السابق ذكرها .

(٤) المُدَنَّى : المقصر فى الأمر .

(٥) فى الطبرى : « يوم يحزى فيه الولاة » .

الأحياء والأموات ، ويجمع فيه الناس للميقات ، يكون لمن اتقى فيه الفوز والخيرات . قال : أحق ما تقول يا شق ؟ قال : أى ورب السماء والأرض وما بينهما من رفع وخفض ، إن ما نبأتك به لحق ، ما فيه أمض^(١) .

فلما فرغ من مساءلتها ، وقع فى نفسه أن الذى قال له كائن من أمر الحبشى . فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يصلاحهم . وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس ، يقال له : سابور بن خرزاد ، فأسكنهم الحيرة . فمن بقية ربيعة بن نصر كان النعمان ملك الحيرة ، وهو النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو ابن عدى بن ربيعة بن نصر . فلما هلك ربيعة بن نصر صار الملك إلى حسان ابن تبيان أسعد^(٢) .

وكان مما هاج أمر الحبشة وتحول الملك عن حمير ، أن حسان بن تبيان سار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب وأرض العجم ، كما كانت التبابعة قبله تفعل . فلما كان ببعض أرض العراق ، كرهت حمير وقبائل اليمن السير معه وأرادوا الرجوع إلى بلادهم وأهاليهم ، فكلّموا أخا له كان معه فى جيشه يقال له عمرو^(٣) ، وقالوا له : اقتل أخاك حساناً نملكك علينا مكانه ، وترجع بنا إلى

(١) الأمض : الشك والباطل

(٢) هو من ملوك حمير ولقبه ذو جيشان ، من أعظم تبابعة اليمن . وقد قاد جيشه ففتح بلداناً كثيرة ، وثار عليه بعض قواده فقتلوه . والتبابعة لقب عظماء ملوك اليمن ومفردها تبع .

(٣) هو عمرو بن تبيان أسعد من الحميريين . كان مع أخيه حسان فى حملته على العراق ، واتفق مع القواد الذين اغتالوا أخاه وولى ملك حمير بعد أخيه دعا بجيشه إلى بلاده فنزل بغمدان ، وقد اضطربت أموره حتى هلك .

بلادنا ، فتابعهم على ذلك ، وأجمعوا على قتل حسن ، إلا ذارعين الحميرى ، فإنه لما استشاره نهاه وقال له : إنكم أهل بيت ممالكنا ، فلا تقتل أخاك فتشئت أمر ممالكك وتوهن من عظمك بقطع رحمتك . فإن لذلك عاقبة وخيمة أصونك عن ذكرها لك ، فقال : لا بد من ذلك الآن . وكان ذو رعين شريفاً من حمير كبيراً ، فقال : الآن ولا بد ؟ فإني أودعك صحيفة أختم عليها وتحفظها لى عندك ، فإن لى بغية وحاجة فيها . ففعل ذلك وأودعه عمراً . وأمضى عمرو رأيه . فلما أيقن أخوه بالقتل قال :

يا عمرو لا تعجل على منيتى فالملك تأخذه بغير قتال^(١)

فأبى إلا قتله فقتله ، ورجع بمن معه من جنده إلى اليمن . فلما فعل تلك الفعلة بأخيه منع النوم وسلط عليه السهر . فجهده ذلك ، فسأل الأطباء والحزاة والسكهان والعرفان عن حاله . فقال له قائل منهم : إنه والله ما قتل رجل أخاه أو ذا رحم بغياً ، كما قتلت أخاك ، إلا ذهب نومه وسلط عليه السهر وانتهى به إلى ما يكون فيه العطب . فلما رأى علته فى ترايد ، جعل يقتل من كان أشار عليه بقتل أخيه حسن ، من أشرف حمير وقبائل اليمن ، حتى خلص إلى ذى رعين . فلما أراد قتله ، قال : إن لى عندك براءة مما تريد أن تصنع بى ، فإنى نهيتك عما أشار به قومك فلم تنته ، وأودعتك كتاباً إذا أخرجته عرفت منه براءتى . فأمر بإخراج الصحيفة وفضّ ختمها ، فإذا فيها بيتان من الشعر هما :

ألا مَنْ يشتري سهرأ بنويم سعيدٌ مَنْ يبيت قرير عين
فإن تك حمير غدرت وخانت فمعدرة الإله لذى رعين

(١) فى الطبرى : « بغير حشود » — الجزء الثانى (م) ص ١١٥ .

فلم اقرأ ذلك ، قال له : إني عرفت أنه يصيبك إذا قتلت ما أصابك ونهيتك
فمصيتني ، وكان حرصك على الملك يحول بينك وبين سماع قولي ، فإذا أردت
(بي) ما صنعت به من أمرك بقتل أخيك ، فإن هذا الكتاب نجاة لي عندك .
فلم يلبث عمرو إلا يسيراً حتى هلك . فخرج أمر حمير عند ذلك ، فتفرقوا ووئب
على ملكهم من لم يكن من بيوت المملكة منهم ، وكان من الحبش^(١)
ما كان ، مما ذكر في الباب السابق^(٢) .

(١) في ١ : « الجيش » .

(٢) ورد ما يماثل هذا النص في الطبري (م) ٢ : ١١٥ — ١١٧ . وفي كتاب
أسماء القتالين ، المجموعة السادسة ، ص : ١١٥ — ١١٧ ما هو قريب منه أيضاً .

البَابُ الثَّانِي وَالْعِشْرُونَ

فِي الْفَتْكِ وَالْأَمْرِ بِالْأَحْزَانِ مِنْهُ ^(١)

حُكِيَ أَنَّ الْمَأْمُونَ لَمَّا رَحَلَ ^(٢) مِنْ مَرَوْ ، يَرِيدُ مَدِينَةَ السَّلَامِ ، أَعْمَلَ
الْفِكْرَةَ فِي قَتْلِ الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ ^(٣) عَلَى تَوْقٍ ^(٤) لِذَلِكَ ، لَمَّا كَانَ أَخِيهِ الْحَسَنُ ^(٥) ،

(١) الْفَتْكُ : أَنْ يَجِيءَ رَجُلٌ آخَرٌ وَهُوَ آمِنٌ فَيَقْتُلُهُ جَهَارًا .

(٢) فِي ١ : « دَخَلَ » .

(٣) الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ : أَوَّلُ وَزَرَاءِ الْمَأْمُونِ وَهُوَ فَارِسِي الْأَصْلِ مَجُوسِي وَقَدْ أَسْلَمَ
عَلَى يَدِ الْمَأْمُونِ . وَكَانَ أَبُوهُ سَهْلٌ مِنْ رِجَالِ الْمُهْدِيِّ وَيُقَالُ إِنَّهُ أَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ . وَكَانَ الْفَضْلُ
يُدِيرُ شُؤُونَ الْمَأْمُونِ مِنْذُ كَانَ وَلِيًّا لِلْعَهْدِ ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ الْفَضْلُ فِي انْتِصَارِ الْمَأْمُونِ
عَلَى أَخِيهِ الْأَمِينِ ، إِذْ تَوَلَّى تَدْبِيرَ الْجِيُوشِ وَإِدَارَةَ دَفْعِ الْحَرْبِ إِضَافَةً إِلَى عَمَلِهِ .
وَلِذَا سَمِيَ بِذِي الرِّئَاسَتَيْنِ . وَلَاحَ الْمَأْمُونُ وَلَايَةَ الْمَشْرِقِ بِجَمِيعِ بُلْدَانِهِ . وَقَدْ اسْتَبَدَّ
بِالْأُمُورِ دُونَ الْمَأْمُونِ وَحَمَلَهُ عَلَى بَيْعَةِ عَلَى الرِّضَا بِوَلَايَةِ الْعَهْدِ بَعْدَهُ . فَتَضَاقَقَ الْمَأْمُونُ
مِنْهُ وَشَكَّ فِي إِخْلَاصِهِ لَهُ فَدَبَّرَ أَمْرَ قَتْلِهِ لِلتَّخْلِصِ مِنْهُ .

(وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ ٣ : ٢٠٩ - ٢١٢ . وَأَسْمَاءُ الْمُغْتَالِينَ ، الْمَجْمُوعَةُ السَّادِسَةُ
ص ١٩٨) .

(٤) عَلَى تَوْقٍ : عَلَى حَذَرٍ .

(٥) الْحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ : أَخُو الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ ، وَعِنْدَمَا كَانَ الْمَأْمُونُ فِي خِرَاسَانَ
وَلَاحَ عَلَى الْعِرَاقِ . وَكَانَ الْحَسَنُ مِنْ كِبَارِ قَوَادِهِ عَصَرِهِ ، وَهُوَ الَّذِي قَضَى عَلَى ثَوْرَةِ
إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُهْدِيِّ . وَلَكِنْ يَنْفِي الْمَأْمُونُ عَنْ نَفْسِهِ تَهْمَةَ اشْتِرَاكِهِ فِي قَتْلِ الْفَضْلِ
أَمْرَ بَقْتُلِ جَمِيعِ الْمُتَهَمِينَ بِقَتْلِهِ وَبَعَثَ بِرُؤُوسِهِمْ إِلَى الْحَسَنِ وَعِزَّاهُ بِمَقْتُلِ أَخِيهِ ،

وكثرة من معه من الرجال . فأفشى سره إلى خادم له يقال (له) سراج وشاوره ، فقال سراج : إن الفضل قد ضرب غالباً خالك مائتي مفرقة وهو حنق عليه ، وله فتك وإقدام ، وإن جسر عليه أحد فهو . قال المأمون لسراج : فناظره في ذلك ، فناظر سراج غالباً خال المأمون في قتل الفضل ابن سهل ، وأعلمه أن ذلك عن رأى المأمون . وفارقه على الفتك به والهرب من عسكر المأمون ، وضمن له عن المأمون كل ما أراد .

فالتمس غالب الغيرة من الفضل ، حتى إذا بلغوا سرخس^(١) دخل الفضل حماماً (بها) في خلوة من غلمانه . ووجد غالب الفرصة ، فدخل عليه وهو على كرسى في الحمام ، ومعه السيف وقد وكل بغلامين له على الباب من منعها من الإنذار . فلما نظر إليه الفضل قال : يا غالب ، اصفح عني وخذ على العهد بكل ما تريد . فضربه غالب على عاتقه ، وقال له : سأوشحك بالسيف مكان لبوسك السنين ، وضربه على عاتقه الآخر ضربة أخرى فقتله . وخرج عنه فقتل غلاميه اللذين كانا في الحمام معه . ثم ركب هو ومن ساعدوه دوابهم وكانوا أربعة رجال . ومروا خارجين من عسكر المأمون فساروا خمسة فراسخ ، فلما رأهم نعيم^(٢) قد تنكبوا الطريق ، أنكر أمرهم ، فبعث خلفهم من أتاه بهم . فعرف غالباً ، فقال له : أين أردت ؟ قال (غالب) : أرسلني

= وصيّره وزيراً له مكان أخيه . وقد تزوج المأمون من بوران بنت الحسن ، وكانت حفلة زفافها من أشهر الحفلات في التاريخ الإسلامي لما صرف فيها من الأموال . راجع وصف حفلة الزفاف هذه في : تاريخ التمدن الإسلامي ٥ : ١٤٣ — ١٤٤ .

(١) سرخس : مدينة قديمة من مدن خراسان تقع بين مرو ونيسابور .

(٢) هو نعيم بن خازم ، أحد قواد المأمون .

أمير المؤمنين في أمر مهم . قال نعيم : فلم تنكبت الطريق وأنت رسول
أمير المؤمنين ؟ لا بد لي من ردك إليه . فردّه نعيم إلى المأمون من غد اليوم
الذي قُتل فيه الفضل .

وقد جحد المأمون أن يكون علم بشيء من أمره ، وقتل به جماعة من
القواد وغيرهم ، كيلاً يفسد الحسن بن سهل ومن معه عليه . فلما قيل للمأمون :
إن غالباً قد رُدَّ ، أمر مَنْ تقدم إليه في الجحد ، فلما قُدِّم إليه جحد . فقال
أبو الفضل بن سهل : هو قتل الفضل . فخبر نعيم بمواطاة من المأمون له ،
إن غالباً عنده منذ أيام ، فدفع القتل عنه . وبلغ الحسن بن سهل ، أن سراجاً
كان اشترك في دمه ، فكتب إلى المأمون يسأله أن يوجه إليه سراجاً ، فوصل
الكتاب إلى المأمون وسراج قد مات ، فبعث إليه برأس سراج ، وكتب
إليه : إن سراجاً مات قبل ورود كتابك ، ولو ظننت أن عضواً مني اشترك
في دمه لقطعته .

وقدم المأمون مدينة السلام ، وقدمات على بن موسى بطوس^(١) فتحمل
للحسن بن سهل قليلاً ثم غصَّ^(٢) منه ، حيث ظفر بإبراهيم بن المهدي ، وأسقطه
وحجبه ، وعزله عما كان في يده^(٣) .

(١) طوس : مدينة بخراسان فتحت في أيام عثمان بن عفان ، دفن فيها
الإمام علي الرضا ، والخليفة هارون الرشيد .

(٢) في ١ : « عضه » .

(٣) لم يعرف أن المأمون تغير على الحسن بن سهل ، بل بقي مقرباً إليه .
غير أن الحسن كان قد أصيب بمرض عقلي قَيد بسببه بالحديد ، ثم شفى منه قبل
زواج ابنته بوران من الخليفة المأمون . ولعل ما يقصده المؤلف هو احتجاج
الحسن بن سهل عن خدمة المأمون لعوارض علته المذكورة . راجع : وفيات الأعيان ،

وحكى أن بابك ، كان يُموّه على أصحابه ليوهمهم أنه يعلم ضمائرهم .
 فيتقدم إلى بعضهم في أن يابس أحسن السلاح ويخرج من ليلته فيصير في بعض
 الكهوف والخرابات على ما يحدد له ؛ ويقول له : إني مبكر عليك في أصحابي ،
 فإذا حاذيتُ موضعك فاخرج (شاداً على كَأَنكَ تريدني ، لأعلم أيَّ أصحابي
 أشدُّ نُصرةً لي ، فإنهم إذا ابتدروك نهيتهم . فيمضي الرجل في سلاحه من
 ليله إلى حيث أمره بابك ، فإذا أصبح دعا أصحابه فقال : إن فيكم اليوم من
 يهيم الفتك بي ، وقد علمت ذاك وهو فلان ، فاخرجوا بنا إلى الصيد ، وجعل
 طريقه على الموضع الذي وعد الرجل فيه . فإذا جاء خرج الرجل كما أمره)
 فيبتدره الرجال بالسيوف ، ويبادره بابك معهم فيقتلونهم ، فيظن أصحابه أنه
 يعلم ضمائرهم .

وحكى أن رجلاً من الأهواز من غير العرب ، صار مع قَطْرَى بن الفُجاءة
 الشاربي^(١) ، وكان مبرزاً في الشجاعة والديانة ، وكان في عسكر قَطْرَى امرأة
 من العرب ، فخطبها الأهوازي إلى قَطْرَى ، فلم يتمكن قَطْرَى ردّه ، لأن
 دياتهم أن الناس كلهم أكفاء بعضهم لبعض ، فزوَّجه على كره . فلما صافَّ^(٢)

(١) قَطْرَى بن الفُجاءة : وكنيته أبو نعامه ، من رؤساء الخوارج الأزارقة
 وأبطالهم . كان خطيباً وشاعراً حماسياً وفارساً شجاعاً وأصله من « قطر » قرب
 البحرين . استعمل أمره في عهد الحجاج ومصعب بن الزبير حينما ولي الكوفة لأخيه
 عبد الله . واستمر قَطْرَى يقاتل جيوش الدولة الأموية قرابة عشرين سنة . وقد قتل
 في إحدى حروبه في سنة ٧٨ هـ . وهو صاحب القصيدة الحماسية المشهورة التي مطلعها :
 أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لن تراعى

(وفيات الأعيان ٣ : ٢٥٥ — ٢٥٧) .

(٢) صافَّ القوم في القتال : وقفوا مصطفين متأهبين للقتال .

قَطْرِي المَهْلَب في بعض حروبهما ، خرج قَطْرِي فدعا إلى المبارزة ، فأخرج المَهْلَب إليه رجلاً من أصحابه (فقال قَطْرِي : لا أبارز إلا يزيد بن المهلب) ؛ فخرج إليه يزيد بن المهلب . فلما دنا منه قال قَطْرِي : يا يزيد ، على رَسْلِكَ ، إنما أردتكَ لأمر ألقيه إليك ، فطاردني قليلاً حتى نبعد عن أصحابنا . فتطاردا حتى بَعُدا ، ثم قال له قَطْرِي : إن رجلاً من الخوز خطب إلى امرأة من العرب فلم يمكن ردّه للمقالة التي نحن عليها ، تخوفاً من انتقاض أصحابي على فزوجته . فهل فيكم رجل من بني تميم له عُدَّة وفتك ، يصير إلى مستأمناً كأنه رغب في مذهبنا ، على أن أنزله بهذه المرأة ، فيفتك بالخوزي ثم يهرب ، وأنا أرفع عنه الطلب ؟ فقال له يزيد : نعم . فتصاولا ساعة ثم افترقا .

وخبّر يزيد أباه المهلب ، فبعث رجلاً من أصحابه من بني تميم ، وأطلعه على الخبر ، إلى قَطْرِي مستأمناً . فلما دخل الرجل إلى قَطْرِي ، أكرمه وأظهر السرور به ، ثم قال للخوزي : هذا رجل من بني تميم نحذه إليك فإنه صهر لي ، فسُرَّ الخوزي بذلك وأخذه إليه . فلما كان في الليل ، وثب التميمي على الخوزي فقتله وخرج هارباً ، فأمسكت المرأة فلم تصح فرحاً بقتل زوجها . وفُطن بالرجل فخرجت الخيل خلفه ، فخرج قَطْرِي أول الخيل وهو يقول لأصحابه كالتمهف : دعوني والرجل فإنني أحرصكم على قتله . فلما قرب منه قَطْرِي قال له : النجاء ، حتى أبعدَ خلفه ، ثم رجع فقال : فاتني فلم ألحقه .

وحُكي أن البرّاض الكفاني^(١) وعروة الرّحال القيسي^(٢) ، من قيس

(١) هو البراض بن قيس ، من كنانة ، كان خليعاً فاسقاً عرف بالغدر وشدة الفتك ، حتى ضرب المثل بفتكه ، وهو جاهلي .

(٢) هو عروة بن عتبة بن جعفر من بني عامر من قيس ، عرف بالرحال لكثرة رحلاته إلى الملوك ، وهو جاهلي كان معروفاً بالعقل والشجاعة .

عيلان ، وفدا على الأسود بن المنذر عمرو أخى النعمان بن المنذر ، وهو ملك الحيرة . وحضرت أيام عكاظ بالموسم ، وكانت أياماً تجلب فيها التجارات من كل بلد إلى عكاظ ، وهى أيام منى فى الحج . فيامن الناس ولا يتعرض أحد لأحد من طالب وتر ولا غيره . فقال الأسود : من يخفر لنا لطيمة^(١) ننفذها إلى عكاظ لتباع ، ويشتري بثمنها حوائج ثم يخفرها لنا راجعة ؟ قال البرّاض الكنانى : أنا أخفرها . قال له عروة الرّحال : أنت تخفرها وأنت خليع^(٢) قد خلعت قومك من سيادتهم ؟ قال البرّاض لعروة : أفتخفرها أنت ؟ قال : نعم ، أخفرها لك على أهل الشّيح والقيصوم^(٣) من نجد وتهامة . قال : فشأنك . وانصرف البرّاض ، وجّهز الأسود لطيمة ، فخرج عروة يخفرها . فعارضه البرّاض فى جماعة من قومه ، وأقبل يستقسم الأزلام^(٤) . فقال له عروة : ما تصنع ؟ قال : أستشير القداح^(٥) فى قتلك . فقال : إستك أضيق من ذاك . فاخترط سيفه ، فتهارب منه عضاريط^(٦) الركاب والعبدان ، وشدّ البرّاض

(١) اللطيمة : القافلة التى تحمل الطيب والبضائع التجارية .

(٢) الخليع : كان فى الجاهلية إذا قال قائل : هذا إبنى قد خلعتك ، كان لا يؤخذ بحريته ، أى يكون قد تبرأ منه ، فهو خليع .

(٣) الشّيح والقيصوم ، نباتان صحراويان ، ويقصد هنا أنه يختار بالقافلة عبر القبائل البدوية .

(٤) إستقسام الأزلام : الأزلام السهام ومفردتها الزلم ، وهى التى كانوا يستقسمون فيها فى الجاهلية ، أى يستطلعون الغيب بواسطتها .

(٥) القداح : مفردتها القدح وهو السهم قبل أن يراش

(٦) العضاريط : مفردتها العضرط ، وهو اللّثم الخسيس . والعضاريط هنا الخدم القائمون على خدمة الإبل .

على عروة فقتله^(١) . وأخذ الركاب بما عليها . وهاجت الحرب بين قيس
وكنانة في الأشهر الحرم ، فسميت حرب الفجار . وكانت ثلاث حروب^(٢) ،
منها اثنتان على كنانة وقريش ، وحضر الرسول صلى الله عليه وسلم الحرب
الثالثة^(٣) ، قبل مبعثه فكانت على قيس .

ثم افترقت قيس تطلب الغيرة من البرّاض لتقتله . فمضى ثلاثة رجال
من قيس في طلب البرّاض ، فلقوه ولا يعرفونه ، فقالوا له : أتعرف البرّاض ؟
قال : نعم . قالوا : فأين هو ؟ فأومأ لهم إلى خربة عظيمة وقال : هو في تلك
الخربة ، ولا أحسب لكم به طاقة . قالوا : أرنا إياه وأنت برىء . فسار
معه إلى الخربة ، ثم قال لهم : إني أحب من قتله مثل ما تحبون ، وانتمي
لهم إلى قبيل من قيس ، فأنسوا به . فلما بلغوا الخربة قال لهم : انتحوا ها هنا
وليدخل معي رجل منكم حتى أريه البرّاض وأعينه عليه . فدخل معه رجل
من الثلاثة ، فلما صار في الخربة قال البرّاض له : إنك وارد على البرّاض
وهو من عرفت في فتكه ، فسيفك جيداً أو أعطيك سيفي ؟ قال الرجل :
بل سيفي جيد . قال : فسُله وأرنيه . ففعل الرجل . فلما دفع سيفه إليه ضربه
البرّاض فقتله .

(١) راجع عن قتل عروة الرجال : كتاب المغتالين ، المجموعة السادسة ،

ص : ١٤١ — ١٤٢ .

(٢) المعروف أنها حربان لا ثلاثة .

(٣) كذا في الأصل ، والأصح الثانية ، لأنها حربان فقط . وكان النبي صلى الله
عليه وسلم قد حضر وهو صغير اليوم المعروف منها يوم عكاظ ، وقد انتصرت فيه
كنانة وقريش على قبيلة هوازن .

راجع : أيام العرب في الجاهلية ، ص : ٣٢٦ — ٣٤١ .

ثم رجع إلى صاحبيه فقال لهما : إني أريت صاحبكما البرّاض ، فلما نظر إليه لم يجسر عليه ، وقال : ادع لي أحد صاحبي ليعينني عليه . فدخل أحد الرجاءين معه ، ففعل به مثما فعل بصاحبه فقتله . ثم خرج إلى الثالث فقال له : إن صاحبك لم يقدم على البرّاض ، وقال لك : خلّ الركاب فلا بأس عليها ، وادخل لنكتفه^(١) بسيوفنا . فدخل الثالث معه . ففعل به كما فعل بصاحبيه فقتله . وأخذ البرّاض أسلابهم وركابهم ، وبفتكه ضرب المثل ، فقليل : أفتك من البرّاض . وقال أبو تمام الطائي^(٢) :

والفتى من تعرّفه الليالى والفيافي كالحية النضاض^(٣)
كل يوم له بصرف الليالى فتكة مثل فتكة البرّاض
وقال لبید في الجاهلية يذكره^(٤) :

ولا الأحوصين في ليالي تتابعا ولا صاحب البراض غير المغمّر^(٥)

(١) في ب : « لتكتيفه » ولعلها لتكيفه بسيوفنا ، أى لنقطعه بها .

(٢) راجع شرح ديوان أبي تمام ، ص : ٣٠٨ — ٣١٦ .

(٣) الحية النضاض : التي إذا نهشت قتلت .

(٤) هو لبید بن ربيعة بن مالك العامري ، أحد الشعراء الفرسان في الجاهلية . أدرك الإسلام ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم ، ويعتبر من الصحابة ، وقد عمر طويلاً ، وهو أحد أصحاب المعلقات .

(٥) يقصد بالأحوصين ، الأحوص بن ربيعة بن جعفر بن كلاب سيد بني عامر وسمى الأحوص لأن عينه كانت كأنها مخيطة ، وابنه عمر بن الأحوص الذي قتله بنو تميم . وغير المغمّر أى غير المحرب .

ومن ذلك قولهم : أفنك من الحارث بن ظالم^(١) . فانه التقى مع خالد ابن جعفر^(٢) عند الأسود بن المنذر أخى النعمان بن المنذر وهو ملك العرب^(٣) فقال خالد بن جعفر للأسود : أبيت اللعن من هذا ؟ قال : هذا الحارث ابن ظالم سيد قومه ، فأنشأ خالد يقول : **أَوَّلُ صَوِّكَ وَبَوِّكَ^(٤)** ، يعنى أول شيء ، يا حارثاً ، أراى عندك **إِلَّا حَسَنَ الْبَلَاءِ** أما تشكرنى ؟ قال الحارث : وما بلاؤك ؟ قال : قتلت عنك أشرف قومك زهير بن جذيمة^(٥) ، وتركتك سيدهم . فقال له الحارث : **سَأَشْكُمُكَ^(٦)** ببلائك شكهم ذلك .

وكان الأسود قد دعا لها بتمر ، فحىء به على نطع^(٧) ، وجعل الحارث

(١) الحارث بن ظالم بن غيظ المرى ، أشهر فتاك العرب فى الجاهلية . قُتِلَ أبوه وهو صغير ، وآلت إليه سيادة غطفان بعد مقتل زهير بن جذيمة ووفد على الأسود المنذر فى الحيرة فالتقى بقاتل أبيه خالد بن جعفر ، فتنازعا ثم قتله ، كما جاء فى هذه القصة .

(٢) خالد بن جعفر بن كلاب بن ربيعة العامرى من هوازن وانتهت إليه رئاستها . كان شاعراً من فرسان الجاهلية ، وهو الذى قتل زهير بن جذيمة كما سبق أن قتل أبا الحارث بن ظالم ، فقتله الحارث كما جاء هنا . وكان قتله فى مكان يسمى (بطن عاقل) على طريق الحاج من البصرة .

(٣) تتفق هذه الرواية مع ما جاء فى « العقد الفريد ٣ : ٣٠٥ » ، وكتاب « أسماء المعتالين » ص : ١٣٤ . إلا أن فى الكامل لابن الأثير أنهما التقيا عند النعمان بن المنذر نفسه . (الكامل ١ : ٣٣٨) .

(٤) أول صوك بوك : الصوك الأول ، وهو مَثَلٌ معناه لقيته أولاً . راجع الأمثال للميدانى ٢ : ٢١٠ .

(٥) هو زهير بن جذيمة بن رواحة العبسى ، أمير عبس وأحد سادات العرب المدودين فى الجاهلية .

(٦) شكهم : شكر وجازى .

(٧) النطع : بساط من الأديم .

يردد يده في التمر ينبشه^(١) لا يعقل أيتهن يريد . فقال له خالد : مالك تنبت التمر لا تعقل أيتهن تريد ؟ قال : بل على أيتهن تخشاني أن آكلها حتى أدعها لك . قال : وجعل خالد إذا أكل التمر وضع النوى تحت النطع بين يدي الحارث ، حتى كوّم بين يدي الحارث كومة ، والحارث لا يشعر بصنع خالد ذلك . فلما أمر الأسود برفع النطع فرفع ، قال خالد : أيت اللعن ، ألا ترى إلى ما بين يدي الحارث ؟ لقد أكل وحده مثل ما أكل جميع القوم . قال الحارث : أفألقيت نوى ما أكلت وما أكلت أنت مع النوى ؟ قال : وقام الحارث بن ظالم . فلما خرج قال الأسود (لخالد) : ما أردت أن تحرش^(٢) هذا الكلب وهو ضيف لي . قال خالد : إنما هو عبد من عبيدي لو كنت نائماً ما أيقظني .

قال : فلما أمسى بعث الأسود إلى الحارث بعس^(٣) من شراب خمر عظيم مع قينة له ، فأتته به إرادة أن تشغله ، فوجدته يكدم^(٤) واسطة رحله ، فقالت له : يقول لك الملك : اشرب هذا . فأخذه كأنه يهوى به إلى فيه ، فجعله في جيب^(٥) قميصه وبين جبته ، قال : ومع الحارث بن ظالم تبيع له من بني محارب ابن حصفة بن قيس بن عيلان يقال له حراش ، فلما رأى صنيع الحارث ذلك قال : إنك لتهم بأمر إني لأعرف فيه البلاء .

-
- (١) يذبت التمر : يستثيره ويكشف ما تحته .
 (٢) يحرش بين القوم : يغري بعضهم ببعض ، وكذلك بين الكلاب وماشاكلها .
 (٣) العس : القدح أو الإناء الكبير .
 (٤) يكدم الدابة : يسمها .
 (٥) جيب القميص : طوقه .

ورجع خالد إلى رحله ، فلامه عروة بن عتبة (بن جعفر)^(١) في تعرضه للحارث بن ظالم . قال : ثم ناما وأشرجت القبة^(٢) عايمهما . فلما هدأت عيون القوم ، أخرج الحارث ناقته ، وقال لحراش : كن لي بمكان كذا وكذا ، ودفع راحلته إليه وقال : إن طامع كوكب الصبح ولم آتكَ ، فانظر أحبَّ البلاد إليك فاعمد له . قال : ثم انطلق الحارث يتوثب حتى أتى قبة خالد ، فوجد على الباب الحرس ، فأتاها من خلفها فهتك شَرَجها^(٣) ثم ولجها ، وخالد نائم ، فكَيَّف^(٤) رأسه بالسيف . وتكلم عروة فقال : اسكت فلا بأس عليك . قال الحارث : وخفت أن لا أكون قد أتيت عليه^(٥) ، فرجعت أدراجي فوضعت ظَبَّة السيف^(٦) في بطنه ، ثم غمزته حتى نجم من الجانب الآخر .

وحكى أن رجلاً من أصحاب الحجاج بن يوسف قال : أردت الفتك بالحجاج فمكثت نحواً من سنة أطلب غِرَّةً منه وفرصةً ، حتى بلغني أنه يريد الخروج من باب له خاص ، فأتيت الباب فوقفت عليه . فخرج علىَّ وحده ، فلما نظر إليَّ ، وبينى وبينه قيد ومحين ، عرف الشرفي وجهي ، فتبسم في وجهي

(١) هو عروة الرحال .

(٢) أشرجت القبة : شدت عراها ، والقبة الخيمة .

(٣) شَرَج الخيمة : عراها .

(٤) كَيَّف رأسه : قطعه .

(٥) في ١ : « ذاقته عليه » وهو خطأ في النسخ .

(٦) ظَبَّة السيف : حده .

وقال لي : أَلَقِيتَ كَاتِبَنَا مِنْذَ الْيَوْمِ ؟ قَات : لا . قال : فآلَقِه فَإِنْ عَهْدَكَ مَعَهُ عَلَى الرِّى . فِدَعَوْتُ لَهُ وَانصَرَفْتُ أُرِيدُ الْكَاتِبَ ، فَلَمْ أَبْأْغِهِ حَتَّى لَحَقَنِي مِنْ أَخَذَنِي ، فَوَضَعْتُ فِي الْحَبْسِ^(١) .

(١) تقدمت هذه الحكاية فى آخر الباب السابع بشكل يختلف قليلا عما جاءت به هنا وقد ذكرت هناك كمثال على دفع المكروه بلطف ، أما هنا فقد رويت كمثال على الإحتراز من الفتك .

الباب الثالث والعشرون

في جزالة الرأي

ذُكر أن أبا العباس أمير المؤمنين السفاح ، هلك^(١) وأبو جعفر المنصور راجع من حجه ، وقد تقدمه أبو مسلم ، فبلغه الخبر بموت أبي العباس . وكان أبو جعفر ولي عهده . فخاف أبو جعفر ، للبعادة بينه وبين أبي مسلم ، أن يسبقه أبو مسلم إلى الأنبار ، وكان عسكر أبي العباس بها وبها توفي . فدعا أبو جعفر إسحق بن مسلم العقيلي فقال : ما ترى فيما نحن فيه ؟ قال إسحق : أنت بين أمرين مخوفين . قال أبو جعفر : وما هما ؟ قال إسحق : إن سبقك أبو مسلم إلى الأنبار مع التباعد بينكما ، عقد الأمر لغيرك . قال أبو جعفر : فإن سلمنا من ذلك ؟ (قال) : يعارضك عمك عبد الله بن علي ، وهو في مثل النحل من الرجال ، فيأخذك ويعقد الأمر لنفسه ولا منعة لك . قال : فإن سلمنا من ذلك ؟ قال إسحق : فإن سلمت (من ذلك) فالسلام عليك يا أمير المؤمنين . قال أبو جعفر : فما الرأي عندك يا إسحق ؟ قال الرأي (عندي) أن تكتب كتاباً على لسان أخويك العباس ويحيي ، كأنه وارد من الأنبار إليك ، يخبران فيه أن الخلافة (عُقدت) لك ، وأن عمومك وسائر أهلك والقواد قد بايعوك . وتنفذه مع رسول حصيف^(٢) حتى يمرَّ بمعسكر أبي مسلم ، فيخبر أنه ورد

(١) توفي أبو العباس السفاح في مدينة الأنبار سنة ١٣٦ هـ على أثر إصابته بالجدرى . وفي ١ : « أمير المؤمنين القائم » .

(٢) الحصيف : من استحكم عقله .

من ناحية الأنبار ، فإن سئل خبرَ بمثل ما في الكتاب . فإن أبا مسلم سيسأله عن الخبر ويقرأ الكتاب . فإذا علم أن أهلك قد عقدوا لك الأمر يؤس من نقضه ، ولم يدخل الأنبار وحاد عنها .

فإذا علمت أن أبا مسلم قد علم ذلك ، انسلت مخفياً من عسكري وركبت قعوداً فارهاً^(١) ، فبادرت الأنبار حيث لا يعلم بك ، وأخذت على الطريق المختصرة^(٢) . ففعل أبو جعفر ذلك ، وكتب الكتاب . فلما قرأه أبو مسلم وهو بقرب الكوفة ، حاد عن طريق الأنبار . ومضى أبو جعفر حتى دخل الأنبار ، فعقد الأمر لنفسه ، ووجد عيسى بن علي عمه قد أمسك الأمر عليه^(٣) .

وحكى أن الفرس لما غلبت بعد الحبشة على أرض اليمن ، وجهت إلى كسرى بهدية على غير ، فمرّت الهدية ببلاد اليمامة ، فأنفذها هوزة بن علي^(٤) . ومرت ببلاد بني تميم فأغار عليها ، ففعل لكسرى في ذلك . فأراد أن يوجه جيشاً ، ففعل له : إن الجيش لا يمكنه طلب هؤلاء الأعراب ، لأن شربهم من آبار مثل عيون الديكة ، وربما طرحوا فيها السموم فيهلك الجيش ، ولكن يكتب الملك إلى صاحب البحرين يأمره أن يضع عطاء للعرب وفرضاً ، ويندب تميماً لذلك ، فمن صار إليه منهم استأسره . ففعل كسرى ذلك ، وكتب إلى عامله على البحرين ، فوضع العطاء للعرب .

(١) القعود من الإبل : ما انتخب منها ، والفاره : الفتي .

(٢) في ب : « الطرق المختصرة » .

(٣) أمسك الأمر عليه : حبسه عليه .

(٤) هوزة بن علي بن ثمامة ، من بني حنيفة ، صاحب اليمامة وشاعر حنيفة وخطيبها قبيل الإسلام ، وفي عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان ممن يوفد إلى كسرى في المهمات ، أدرك الإسلام ولم يسلم . وفي ١ : « هوزة بن خليفة » .

وجاءت بنو تميم لقبض العطاء في حصن بالبحرين يُقال له المُشَقَّر^(١) على البحر . فجعل صاحب كسرى يُدخل رجلاً رجلاً ، وكلما دخل رجل كُتِفَ حتى دخل أكثرهم . ثم دخل رجل يُقال له عوذ بن غالب ، فلما دخل من باب القصر أغلق من خلفه بسلسلة ، ونظر إلى أصحابه أسارى ، فشدَّ على حَقَظَةِ الباب فتفرقوا عنه ، ورجع إلى الباب فضرب السلسلة فقطعها بسيفه ، وخرج فأنذر قومه ، فخرجوا هاربين ، فأنشأ يقول^(٢) :

ألا فاذا كرنُ فـمـلى ولا تنسينه
عشية قادوني الحصن المشـقـر
ضربت رتاج الباب بالسيف ضربة
تفرج منها كل باب مُسَمَّر^(٣)

(١) المُشَقَّر : حصن بناه الفرس في البحرين مقابل حصن آخر اسمه الصفا .

(٢) وردت هذه الحكاية بشكل آخر في العقد الفريد (٣ : ١٤٥) وفيها أن الذي هاجم باب الحصن وقطع السلسلة هو خيرى بن عبادة . أما في الطبرى م (٢ : ١٣٣) فإن الذى قطع السلسلة رجل من تميم اسمه عبيد بن وهب الذى قال بعد أن قطعها :

تذكرت هنداً لات حين تذكر تذكرتها ودونها مير أشهر
حجازية علوية حل أهلها مصاب الحزين بين زور ومنور
ألا هـلْ أتى قومى على النأى إنى حميت ذمارى يوم باب المشقـر
ضربت رتاج الباب بالسيف ضربة تفرج منها كل باب مضـر

ولزيادة التفصيلات عن يوم المشقر راجع : أيام العرب في الجاهلية ، ص ٢ - ٥

(٣) رتاج الباب : الرتاج الباب العظيم وفيه باب صغير يفتح عند الحاجة . المرتاج ما يغلق به الباب .

وقلت ولم أملك أعـوذ بن غالب
لقد كنتَ عن هذا المكان بمُعَمَّر^(١)
بأرض فلاة لا يُسَدُّ وصيدُها
علىٍّ ومعروفى بها غـير مُنكَر^(٢)

فقتل صاحب المشقر الرجال وحمل من استأسر من الصبيان إلى كسرى
فقتل . وقلّت بنو تميم فطمعت العرب فيها ؛ فشاورت أكتم بن صيفى^(٣)
وكان حكيم بنى تميم ، فألقى ثوبه عن بدنه ، ثم قال : كيف ترون بدنى ؟ قالوا :
قد نحل وكَلَّ ، قال : فإن قلبى بضعة من بدنى ، وقد كَلَّ وضعف رأبى ،
ولكن أجيلوا الرأى بينكم ، فإن الصواب إذا مرّ بى عرفته . فأشار عليه
بعضهم ، بأن يجتمعوا على ماء يقال له الكلاب ، لأن المفاوز محيطة به ، وهو
ماء غزير ، فقال أكتم : هذا الرأى : وغزتهم اليمين من بنى الحارث بن كعب
فظفرت بهم بنو تميم ، وكان يوم الكلاب الأصفر^(٤) .

(١) المَعَمَّر : المنزل الكثير الناس والكلأ .

(٢) لايسد وصيدها : الوصيد : العتبة ، أى لايسد بابها .

(٣) أكتم بن صيفى التميمى : حكيم العرب فى الجاهلية وأحد المعمرين . أدرك
الإسلام وقصد المدينة مع وجوه قومه فمات فى الطريق ، فلم ير النبى صلى الله
عليه وسلم . كثير من كلامه اتخذ أمثالا لما ينطوى عليه من حكمة وبعد نظر .

(٤) يوم الكلاب الأصفر : من أيام العرب المشهورة فى الجاهلية . قامت بين
تميم من جهة ومذحج وقضاعة من القبائل اليمانية من جهة أخرى ، انتهت
بانتصار تميم .

راجع عن تفصيلات هذا اليوم : أيام العرب فى الجاهلية ، ص : ١٢٤ - ١٣١ .

وَحُكِيَ أَنَّ الْمَأْمُون وَجَّهَ رَجُلًا مِنْ دُعَاتِهِ إِلَى مَدِينَةِ السَّلَام ، وَأَمْرَهُ بِإِقَاءِ
عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ صَالِحِ الْعَبَّاسِيِّ ، وَقَالَ لَهُ الْمَأْمُون : إِنَّكَ سَتَلْقَى مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ رَجُلًا
بَعِيدَ الْغُور ، دَقِيقَ الْفُطْنَةِ ، سَدِيدَ الْحُكْمِ ، رَقِيقَ اللِّسَانِ ، حَسَنَ التَّنَاقُصِ ،
فَاحْذَرِهِ . فَإِنَّهُ يُكَثِّرُ الْمُبَاحَثَةَ وَيَحْسِنُ الْمَسَاءَلَةَ ، وَيَحْتَالُ لِاسْتِخْرَاجِ مَا فِي ضَمِيرِكَ ،
وَيَعْتَبِرُ عَلَيْكَ بِاخْتِلَافِ أَلْفَاظِكَ . فَلَا تُتْرِكْهُ إِلَّا سَرَسًا لِيَتَهَمَكَ ، وَلَا الْإِحْتِرَاسَ
مِنْهُ فَيَحْذَرِكَ . وَعَلَيْكَ بِاسْتِعْمَالِ الْغَفْلَةِ إِلَى اتِّهَازِ الْفُرْصَةِ . فَبَاحَثُهُ مَبَاحَثَةُ الْأَمْنِ ،
وَإِحْتِرَاسُ مَنْهُ إِحْتِرَاسُ الْخَائِفِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْبَحْثَ الْخَفِيَّ يَجْلُو الْأَمْرَ ، وَالتَّعْبِيرَ
يَكْشِفُ مَا فِي الضَّمِيرِ . وَاحْذَرِ مَنْ تَعَرَّفَ ، وَلَا تَصْحَبِ مَنْ لَا تَعَرَّفَ .

وَحُكِيَ أَنَّ رَجُلًا وَلِيَ الْيَمِينَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ . فَأَقَامَ بِهَا مَدَّةً وَبَلَغَ مِنْهَا
مَا أَرَادَ . ثُمَّ وَرَدَ عَلَيْهِ كِتَابُ وَكِيَاةٍ مِنْ بَابِ السُّلْطَانِ يُعَلِّمُهُ أَنَّهُ قَدْ عُزِّلَ عَنْ
الْبَلَدِ ، وَأَنَّ السُّكُتَ بِذَلِكَ قَدْ أَنْشَأَتْ إِلَيْهِ . وَكَانَ مِنْ (سُنَّةِ) أَهْلِ الْيَمَنِ ، إِذَا
عُزِّلَ عَنْهُمْ وَالِ اتَّهَبُوا مَالَهُ ، فَإِنْ مَانَعَهُمْ قَتَلُوهُ . فَلَمَّا بَلَغَ الْهَاشِمِيُّ عِزْلَهُ ، كَتَبَ
كِتَابًا عَلَى لِسَانِ السُّلْطَانِ إِلَيْهِ بِأَمْرِهِ بِاسْتِئْثَافِ سُنَّتِهِ وَيَحْمَدُ مَذْهَبَهُ ، ثُمَّ دَسَّهَ
حَتَّى أَتَاهُ رَاكِبٌ كَأَنَّهُ وَرَدَ مِنْ بَابِ السُّلْطَانِ . فَجَمَعَ أَهْلَ الْبَلَدِ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ .

ثُمَّ خَرَجَ يَوْمًا إِلَى الصَّيْدِ ، فَأَبْطَأَ إِلَى الظَّهْرِ ثُمَّ رَجَعَ ، وَجَعَلَ يَخْفَى مَالَهُ
وَيُودِعُ ذَخَائِرَهُ . ثُمَّ خَرَجَ يَوْمًا ثَانِيًا إِلَى الصَّيْدِ ، فَأَبْطَأَ إِلَى اللَّيْلِ ثُمَّ رَجَعَ ، حَتَّى
أَحْكَمَ أَمْرَهُ . ثُمَّ خَرَجَ فِي اللَّيْلِ إِلَى الصَّيْدِ ، وَخَرَجَ بِحَرَمِهِ ^(١) مَعَهُ ، ثُمَّ جَعَلَهُ
وَجْهَهُ . فَلَمْ يُنْكِرْ أَهْلُ الْبَلَدِ إِبْطَاءَهُ حَتَّى بَاتَ لَيْلَتَهُ . فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ فَاتَّقَدَّوهُ ،
خَرَجُوا فِي طَلَبِهِ فَلَقِيَهُمْ مَنْ خَبَّرَهُمْ أَنَّهُ رَأَاهُ هَارِبًا فَانْصَرَفُوا .

(١) فِي ب : « وَخَرَجَ بِخَدْمِهِ » .

البَابُ الرَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ

فِي إِظْهَارِ أَمْرِ وَإِخْفَائِهِ^(١)

حُكِيَ أَنَّ هَرِثْمَةَ^(٢) لَمَّا تَوَجَّهَ إِلَى أَبِي السَّرَايَا^(٣) ، فَعَبَّرَ نَهْرَ صَرْصَرٍ ،
فَتَصَافَّ الْخِيَلَانُ ، نَظَرَ هَرِثْمَةُ فَرَأَى نَهْرَ صَرْصَرٍ خَافَهُ ، وَهُوَ وَادٍ عَظِيمٌ الْأَجْرَافُ
لَا يُدْرِكُ قَعْرَهُ ، وَعَنْ يَمِينِهِ غِيضَةٌ وَحَلَةٌ ، وَعَنْ يَسَارِهِ حَيْطَانٌ . فَعَلِمَ هَرِثْمَةُ أَنَّهُ
قَدْ أَخْطَأَ عَلَى نَفْسِهِ . فَأَمَرَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ أَنْ يَأْتِيَهُ بِكِتَابٍ يَدْفَعُهُ إِلَيْهِ ، فَفَعَلَ
الرَّجُلُ ذَلِكَ . فَأَخَذَ هَرِثْمَةُ الْكِتَابَ فَقَرَأَهُ ، ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ ، وَأَلْقَى
قَلَنْسُوتَهُ عَنْ رَأْسِهِ ، وَأَبُو السَّرَايَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ . ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِ هَرِثْمَةُ : أَنَّ الْكِتَابَ
وَرَدَ عَلَيَّ بِأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَأْمُونِ رَحِمَهُ اللَّهُ مَضَى لِسَبِيلِهِ ، وَأَنَّ النَّاسَ بَايَعُوا
ابْنَهُ الْعَبَّاسَ ، وَإِنَّمَا كُنَّا نَقَاتِلُكُمْ لِلْبَيْعَةِ الَّتِي فِي أَعْنَاقِنَا ، وَقَدْ مَضَتْ الْبَيْعَةُ

(١) سقط هذا العنوان في نسخة ١ .

(٢) هُوَ هَرِثْمَةُ بْنُ أَعْيَنَ .

(٣) أَبُو السَّرَايَا ، السَّرِيُّ بْنُ مَنْصُورِ الشَّيْبَانِيِّ . عَصَامِيُّ شَجَاعٌ ، تَزَعَّمُ لِأَوَّلِ
أَمْرِهِ عَصَابَةً ، وَقَوِيَّتُ حَالُهُ فَالتَّحَقَّقَ بِبُرْزِدِ بْنِ مُزَيْدِ الشَّيْبَانِيِّ فِي أَرْمِينِيَّةٍ فَعَيْنُهُ قَائِدًا .
وَلَمَّا نَشِبَ الْقِتَالُ بَيْنَ الْأَمِينِ وَالْمَأْمُونِ ، انْضَمَّ إِلَى جَيْشِ هَرِثْمَةَ قَائِدُ جِيُوشِ
الْمَأْمُونِ . ثُمَّ خَرَجَ عَلَى هَرِثْمَةَ بَعْدَ مَقْتَلِ الْأَمِينِ وَاسْتَوْلَى عَلَى بَعْضِ الْمَدَنِ . ثُمَّ التَّحَقَّقَ
بِمُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْعُلُوِيٍّ عِنْدَ خُرُوجِهِ عَلَى عَهْدِ الْمَأْمُونِ ، وَتَوَلَّى قِيَادَةَ جُنْدِهِ وَاسْتَوْلَى
عَلَى الْكُوفَةِ ، وَسَيَّرَ جِيُوشَهُ إِلَى الْبَصْرَةِ وَبَغْدَادَ . وَلَمَّا اسْتَفْجَلَ أَمْرُهُ تَوَالَتْ عَلَيْهِ
جِيُوشُ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ حَتَّى اسْتَعْنَاعَ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ التَّغْلِبِيِّ عَلَيْهِ قَتْلُهُ سَنَةَ ٢٠٠ هـ
وَبَعَثَ بِرَأْسِهِ إِلَى الْمَأْمُونِ .

وبرئنا منها ، وأحسب أن من تدعون إليه من آل أبي طالب أمس برسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً ، فأخّر الحرب اليوم نلتق ونتناظر . فأجابه أبو السرايا إلى ذلك ، وفرح بما ذكره هرثمة وطمع في ممالأته .

فانصرف أبو السرايا ، وأقام هرثمة في جماعة من أنجاد أصحابه ، وأمر أهل عسكره بالرجوع فعبروا جسر نهر صرصر ، حتى إذا تناثروا راجعين ، عبر هرثمة ثم ارتفع على نهر صرصر فراسخ . ثم عقد جسراً في ليلته ، وعبر في السحر إلى صحراء واسعة جافة ، يمكن فيها مجال الخيل . ثم بعث إلى أبي السرايا أن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه لم يمت ، وقد عبرنا لمحاربتك . فتواقعوا فانهزم أبو السرايا خمسة وعشرين فرسخاً حتى دخل الكوفة .

وحكى أن أبا جعفر المنصور ، أخذ البيعة لابنه على جميع بني هاشم والقواد ، إلا عيسى بن موسى ، فإنه امتنع من ذلك . فلما حج المنصور حجته التي توفي فيها ، حج معه عيسى بن موسى ومحمد بن إبراهيم الإمام ، والعباس ابن محمد ، ومحمد وجعفر ابنا سليمان بن علي . فلما توفي أبو جعفر بمكة ، كتم الربيع^(١) مولاه موته . ثم بعث فأحضر الهاشميين وسائر القواد فقعدوا في مراتبهم . ثم خلا بعيسى بن موسى ، حيث ينظر الناس إليهما ولا يسمعون كلامهما . ثم قال له الربيع : إن أمير المؤمنين أيده الله ، أمرني أن أخطب إليك ابنتك فلانة على ابنه محمد المهدي ، وأن أبذل لك من الصداق ألف ألف درهم . قال (عيسى) : الأمر في ذلك إلى أمير المؤمنين . فدخل الربيع كأنه يؤامر ، ثم خرج ومعه المال فدفعه إلى عيسى ، ومسح عيسى على يد الربيع

(١) هو الربيع بن يونس بن محمد بن أبي فروة ، من موالى بني العباس . كان حازماً ذا رأي وتدير . اتخذ المنصور حاجباً سم استوزره وكان يعتمد عليه كثيراً .

عقدة النكاح ، والناس ينظرون إليهما ، ثم حمل المال إلى منزل عيسى بن موسى ، وأدخله حجرة فخبسه فيها . وقال لجميع من حضر : إن عيسى بن موسى قد بايع للأمير المهدي ابن أمير المؤمنين المنصور ، وأخذ صلته على البيعة . ودخل على أمير المؤمنين وخرج وقال : أمرني أمير المؤمنين بتجديد البيعة عليكم لابنه المهدي . فأحضرت الأموال ، فبايع الناس للمهدي بولاية العهد للمنصور . ثم دخلوا وقد سُنِد المنصور ، فسلموا من بعيد وقبضوا صلاتهم وانصرفوا . ثم أظهر موت المنصور من الغد ، فخرج عيسى بن موسى فجحد البيعة ، فوثب عليه محمد بن سليمان فأكذبه وتهدده وهمَّ به ، فأمسك وباع . فشكر له المهدي ، فزوجه ابنته العباسة^(١) ، فتزوج ولم يعقب .

(١) جاء في كتاب المعارف (ص : ٣٨٠) أن هرون الرشيد هو الذي زوج أخته العباسة ابنة المهدي إلى محمد بن سليمان ، ولما مات عنها تزوجها إبراهيم بن صالح ابن علي .

البَابُ الْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ

فِرَاطُ لَاحِ عَلَى مَكُونِهِ

حُكِيَ أَنَّ مَعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سَفْيَانَ قَالَ لَجُلَسَائِهِ بَعْدَ الْحَكُومَةِ^(١) : كَيْفَ لَنَا أَنْ نَعْلَمَ مَا تَوَوَّلَ إِلَيْهِ الْعَاقِبَةُ فِي أَمْرِنَا ؟ قَالَ جُلَسَاؤُهُ : مَا نَعْلَمُ لَذَلِكَ وَجْهًا . قَالَ : فَأَنَا اسْتَخْرَجَ عِلْمَ ذَلِكَ مِنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَإِنَّهُ لَا يَقُولُ الْبَاطِلَ . فَدَعَا ثَلَاثَةَ رِجَالٍ مِنْ ثِقَاتِهِ ، فَقَالَ لَهُمْ : امْضُوا حَتَّى تَصِيرُوا جَمِيعًا مِنَ الْكُوفَةِ عَلَى مَرَحَلَةٍ ، ثُمَّ تَوَاطَّأُوا عَلَى أَنْ تَنْعُونِي بِالْكَوْفَةِ ، وَلِيَكُنْ حَدِيثُكُمْ وَاحِدًا . فِي ذِكْرِ الْعِلَّةِ وَالْيَوْمِ وَالْوَقْتِ وَالْقَبْرِ ، وَمَنْ تَوَلَّى الصَّلَاةَ عَلَىٍّ وَغَيْرَ ذَلِكَ ، حَتَّى لَا تَخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ . ثُمَّ لِيَدْخُلَ أَحَدُكُمْ وَلِيُخْبِرَ بِوَفَاتِي ، (فَإِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ) فَلِيَدْخُلِ الثَّانِي فَيُخْبِرَ بِمِثْلِ خَبَرِ صَاحِبِهِ ، ثُمَّ لِيَدْخُلِ الثَّالِثُ (فَيُخْبِرَ بِمِثْلِ خَبَرِ صَاحِبِهِ) وَانْظُرْ مَا يَقُولُ عَلِيٌّ فَعَجَّلُوهُ عَلَيَّ .

فَخَرَجُوا كَمَا أَمَرَهُمْ مَعَاوِيَةُ . ثُمَّ دَخَلَ أَحَدُهُمْ وَهُوَ رَاكِبٌ مُغْدًى شَاكِبٌ^(٢) ، فَقَالَ لَهُ النَّاسُ بِالْكَوْفَةِ : مَنْ أَيْنَ بِكَ ؟ فَقَالَ : مِنَ الشَّامِ . فَقِيلَ لَهُ : مَا الْخَبَرُ ؟ قَالَ : مَاتَ مَعَاوِيَةُ . فَأَتَوْا عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالُوا : رَجُلٌ رَاكِبٌ مِنَ الشَّامِ يُخْبِرُ بِمَوْتِ مَعَاوِيَةَ . فَلَمْ يُحْفَلْ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَلِكَ . ثُمَّ دَخَلَ آخَرُ مِنَ الْغَدِ وَهُوَ مُغْدًى ، فَقَالَ لَهُ النَّاسُ : مَا الْخَبَرُ ؟ فَقَالَ : مَاتَ مَعَاوِيَةُ ، وَخَبَّرَ بِمِثْلِ خَبَرِ

(١) أَيُّ بَعْدَ التَّحْكِيمِ .

(٢) الْمَغْدُ : الْمَسْرَعُ فِي سِيرِهِ ، وَالشَّاكِبُ : الْمَهْزِيلُ مِنْ جُوعٍ أَوْ سَفَرٍ

صاحبه . فأتوا عليّاً كرم الله وجهه ، فقالوا : راكب آخر يخبر بموت معاوية بمثل ما خبر به صاحبه ، ولم يختلف كلامهما . فأمسك عليّ رضي الله عنه .

ثم دخل الآخر في اليوم الثالث ، فقال الناس : ما وراءك ؟ قال : مات معاوية . فسألوه عما شاهد ، فلم يخالف قول صاحبيه ، فأتوا عليّاً رحمه الله فقالوا : يا أمير المؤمنين ، صحّ الخبر ، هذا راكب ثالث قد خبر بمثل خبر صاحبيه . فلما أكثروا عليه ، قال : كلا (والله) أو تخضب هذه من هذه ، يعنى لحيته من هامته ، ويتلاعب بها ابن لائكة الأكباد^(١) . فرجع الخبر بذلك إلى معاوية .

وحكى أن المنصور جلس في إحدى قباب مدينته ، فرأى رجلاً ملهوفاً مهموماً يحول في الطرقات ، فأرسل مَنْ أتاه (به) فسأله عن حاله ، فأخبره الرجل أنه خرج في تجارة فأفاد مالاً ، وأنه رجع بالمال إلى منزله فدفعه إلى أهله ، فذكرت امرأته أن المال سُرق من بيتها ، ولم يَرَ أثر ثقب ولا تسلُّق . فقال له المنصور : مذكم تزوجتها ؟ قال : منذ سنة . قال : أفبكر تزوجتها ؟ قال : لا . قال : فلها ولد من سواك ؟ قال : لا . قال : فشابة هي أم مُسنّة ؟ قال : بل هي حديثة . فدعا له المنصور بقارورة طيب كان يتخذها له حاد الرائحة غريب النوع ، فدفعها إليه وقال له : تطيّب من هذا الطيب فإنه يذهب همومك .

(١) لائكة الأكباد : هي هند زوجة أبي سفيان وأم معاوية . وقد خرجت مع زوجها في معركة أحد ، وكانت نذرت أن تشرب من دم حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم وتأكل كبده . وذلك انتقاماً لأبيها عتبة بن ربيعة الذي قتله حمزة في معركة بدر . ولما قتل وحشي حمزة غيلة ، عمدت إلى بطن حمزة فبعضتها واستخرجت كبده فلا كتته ، ولهذا سميت لائكة الأكباد ، أو آكلة الأكباد .

فلما خرج من عند المنصور ، قال المنصور لأربعة من ثقاته : ليقعد على كل باب من أبواب المدينة واحد منكم ، فمن مرَّ به أحدُ فشمَّ منه رائحة هذا الطيب ، وأشمَّهم منه ، فليأتني به . وخرج الرجل بالطيب فدفعه إلى امرأته وقال لها : وهبه لي أمير المؤمنين . فلما شمته بعثت به إلى رجل كانت تحبه ، وقد كانت دفعت المال إليه ، فقالت له : تطيب من هذا الطيب فإن أمير المؤمنين وهبه لزوجي . فتطيب منه الرجل ومرَّ مجتازاً ببعض أبواب المدينة ، فشمَّ الموكل بالباب رائحة الطيب منه ، فأخذه وأتى به إلى المنصور . فقال له المنصور : من أين استنفذت^(١) هذا الطيب ، فإن رائحته غريبة معجبة ؟ قال له الرجل : اشتريته . قال له المنصور : فأخبرنا ممن اشتريته ؟ فلجلج الرجل واختلط كلامه . فدعا المنصور بصاحب شرطته فقال له : خذ هذا الرجل إليك ، فإن أحضر كذا وكذا من الدنانير نخله يذهب حيث شاء ، وإن امتنع فاضربه ألف سوط من غير مؤامرة . فلما خرجا من عنده دعا صاحب شرطته وقال له : هوّل عليه وجرده ولا تقدم بضربٍ حتى تؤامرني .

فخرج به صاحب الشرطة . فلما جرّده وسحبه ، أذعن برد الدنانير وأحضرها كهيئتها ، فأعلم المنصور ذلك . فدعا بصاحب الدنانير وقال له : أرأيتك إن رددت عليك الدنانير بأعيانها تحمّني في امرأتك ؟ قال : نعم . قال : فهذه دنانيرك ، وطلق المرأة ، وخبره خبرها .

وحكى أن العباس بن المأمون^(٢) ، دبّ في الفساد على المعتصم بالله ،

(١) من أين استنفذت هذا : من أين حصلت عليه .

(٢) كان العباس بن المأمون قد تآمر مع بعض القواد على اغتيال عمه المعتصم ، بينما كان هذا مشغولاً في حرب الروم ، إلا أن المعتصم اكتشف مؤامرتهم فقتل المشتركين فيها ، ومنهم القائد عفيف بن عنبسة ، عدا العباس فقد حبسه حتى مات في حبسه .

راجع : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ٣ : ٢٧٥ .

وساعده على ذلك جماعة كثيرة ، فيهم عَجَبُ بن عنبسة ، وأحمد بن الخليل ابن هشام ، وعمر الفرغانى وغيرهم . وكان فيمن بايع العباس رجل من أهل خراسان ضعيف العقيدة . فتخلف عن نوبته فُبِعْث إليه حُبْس . فظن الرجل أنه حُبْس بسبب العباس ، فصاح فى الحبس : عندى نصيحة ، فرُفِع خبره إلى المعتصم ، فأمر بمساءلته عن نصيحته . فطلب الأمان على ذلك ، فأعطى أماناً . فخبَّر بقصة العباس ومن بايعه ، فأمر به المعتصم فحُجِب عن الناس ، ودعا ابن أبى دؤاد فشاوره وقال : إني لست آمن أن يشيع ما ذكر هذا الرجل ، فيستوحش الناس ونحن فى بلاد العدو فما ترى ؟ قال ابن أبى دؤاد : أرى أن تبعث قبل أن ينتشر الخبر ، إلى العباس وجميع من قُرِن معه ، وإلى نفر من غيرهم تخططهم بهم ، فتخلع عليهم وتحبسهم بلا سلاح عندك للفداء والشراب . وتُظهر فى العسكر أنهم قد قُيِّدوا . فإن كل من عنده نصيحة فيهم ، إذا علم أنهم قُيِّدوا أظهر نصيحته ، فإن كان هذا الأمر حقاً توثقت منهم ، وإن كان الأمر باطلاً ، لم تعجل بقول لا يدري أصدق أم كذب ، ولعله أراد التشفى من بعضهم . ففعل المعتصم بالله ما أشار به ابن أبى دؤاد . فلما ظهر فى العسكر أن العباس ومن بايعه^(١) قد قُيِّدوا ، جاءت النصائح فيهم ، فاتضح الخبر .

وحكى أن دارا ملك الفرس ، لما انهزم من الإسكندر ، تواطأ عليه حاجبه وصاحب شرطته ليتقربا به إلى الإسكندر . فشدا على دارا وضرباه بسيفيهما حتى سقط . فمرَّ عليه الإسكندر ، وهو صريع ، فعرفه فوقف عليه ونزل إليه فوضع رأسه فى حجره ومسح وجهه بكفه ، ثم قال له الإسكندر : لئن سلمت من جراحك لأخائنك ملكك وأكون لك عوناً وصديقاً

(١) فى ١ : « ومن تابعه » .

ما حيت . ونظر إلى الأطباء فنظروا إليه فرأوه مأیوساً منه ، فقال دارا للإسكندر : قد كرمتم في الظفر ، قال الإسكندر : فأوصني بحوائجك لأبلغ منها ما تحب ، قال له دارا : لا تُكْرِه قومي على تغيير دينهم ، وتزوج ابني وَشْكَاد^(١) - وهي بالعربية رشيق - فلا أعلم لها كفوّاً غيرك ، وتقتل قاتلي ، قال الإسكندر : أفعل .

فأعطى الإسكندر الفرس الأمان ، حتى اجتمع إلى دارا أختانه^(٢) وخدمه (وحرمه) قبل موته . فلما مات دارا ، كفنه الإسكندر بأحسن الكفن ، ومشى مع جنازته إلى قبره . فلما جلس على القبر قال : إن الذي قتل دارا عظيم الفعال ، ولو ظهر لجازيناه بما يستحق ، ورفعناه على الناس . فلما بلغ هذا القول قاتلي دارا ، ظهرا نخبراً أنهما قتلاه ، فقال الإسكندر : أما مجازاتكما بما تستحقان ، فما يستحق مَنْ قَتَلَ سيده ومن رفع قدره وغدر به ، إلا القتل ، وأما رفعكما على الناس ، فإنني سأصابكما على أطول خشب يمكني ، ففعل ذلك بهما .

فلما دخل فارس زُفَّت إليه بنت الملك دارا ، وكانت أحسن أهل زمانها . فأعرض عنها لما دخلت عليه وتشاغل ، فقبل له : أعرضت عن أحسن خلق الله عز وجل ؟ فقال : ما أقبح بمن غلب مثل دارا بالسيف أن تغلبه ابنته بعينها . فلما مات الإسكندر قالت بنت دارا : ما كنت أظن أن غالب دارا يموت .

(١) في ب : « ردشناد » وورد اسمها في بعض المصادر « روشنك » - البدء والتاريخ ٤ : ١٥٣ . راجع عن مقتل دارا ووصيته : غرر السير ص ٤١٧ .
(٢) في ١ : « خزانه » .

وحكى أن ملكاً كانت أسرارها وأخبارها تظهر كثيراً إلى عدوه ،
 فيبطل تدبيره على عدوه . فبلغ ذلك منه ، فشكاه إلى أحد نصحائه وقال له :
 إن جماعة يطلعون على أسرارى ، ولا بد لى من إظهارها لهم ، ولست أدرى
 أيهم يظهرها ، وأكره أن أنال من البرىء منهم بما يستحق الخائن . فدعا
 بكتاب فكتب فيه أخباراً من أخبار الملك وجعلها كذباً كلها ، ثم دعا برجل
 رجل منهم ، كل واحد دون أصحابه ، ممن كان يُفشى الملك إليه خبره ، فقال
 للملك : خبر كل واحد منهم بخبر على حدة لا تظهر عليه سائر أصحابه ، ومُر
 كل واحد منهم بستر ما أُسِرَّ إليه ، واكتب على كل خبر اسم صاحبه .
 فلم يلبث أن أظهر الخونة ما أُفشى إليهم ، وانكتمت أخبار الناصحين وما أُفشى
 إليهم . فعرف الملك من يُفشى سرّه فحذره .

وحكى أن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن^(١) ، لما خرج على أمير المؤمنين
 المنصور بالبصرة ، اتهم المنصور جماعة من أهل الكوفة بالفساد عليه وخافهم .
 فكتب كتباً إليهم على لسان إبراهيم بن عبد الله ، يخبر فيها بأنه يثق بهم
 ويعتمد عليهم ويأمرهم بالوثوب على أبي جعفر . ثم أخذ فيجاً^(٢) فدفع الكتب
 إليه وهي مفضوضة وقال له : انطلق بها إلى من هى (إليهم) ، واعلمهم أن
 إبراهيم وجّهك بها ، وأنى ظفرت بك ففضضتها . فلما وصلت الكتب إلى

(١) إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب ، كان شاعراً عالماً
 بأخبار العرب وأيامها . خرج بالبصرة على أبى جعفر المنصور ودعا إلى مبايعة أخيه
 محمد النفس الزكية الذى ثار فى المدينة وطرده عامل بنى العباس منها . وقد التفت حول
 إبراهيم عدة آلاف من المقاتلين ، فاستولى على البصرة والأهواز وواسط ، وهاجم
 الكوفة . فاضطرب المنصور كثيراً ، فوجه إليه الجيوش فاصطدمت معه بعدة معارك
 آخرها كانت قرب الكوفة ، قتل فيها إبراهيم سنة ١٤٥ هـ ، وجىء برأسه إلى المنصور .
 (٢) الفيح : رسول السلطان ، أو الذى يحمل الكتب (فارسى معرب) .

أربابها ، هرب من كان مريباً فتشردوا في البلاد . وأخذ الكتاب من كان بريئاً فجاء به إلى المنصور وحلف على براءته ، فقبل المنصور منه ذلك .

وحكى أن إبراهيم بن السندی بن شاهك قال : بينا خالد بن برمك^(١) مع قحطبة^(٢) في غرفة تشرف على صحراء ، وقد نزل تلك الساعة وترك الجند حوله ، فمن رجل ينصب خيمته وآخر يقود دابته ، ومن رجل يبسط سفرته وآخر ينزع ثوبه ، ودعا قحطبة بالغداء . إذ نظر خالد نظرة فقال : ناد في الخيل فقد سرى إليك الخيل ، وبالحرى أن لا يستوى الناس على ظهور الدواب حتى يهجموا عليك ، قال : وما ذاك يا أبا العباس ؟ فوالله ما أرى شيئاً ولا أسمع صوتاً ؟ . قال : اركب أخبرك ، فإن الأمر أسرع مما تحسب ، قال : فركب قحطبة ونودي في الناس فركبوا ، قال : فما استووا على ظهور دوابهم حتى لاحت الغبرة وطلع عليهم سرعان الخيل ، ودهمهم العدو ، فصادفوا من العسكر يقظة فواقعوهم ودافعوهم . فعجب قحطبة فقال : كيف علمت ؟ قال : أما رأيت أيها الأمير الوحش مقبلة ؟ قال : بلى ، وما في وحش لاحت في صحراء ؟ قال : إن من شأن الوحش الهرب منا لا إلينا ، فلما رأيتها مقبلة إليك ، علمت أنها لم تدع شأنها وعادتها ، إلا لأنها قد ضاقت بها الصحراء من الخيل التي هجمت عليها فهربت منها ، قال إبراهيم : فلولا خالد لاصطلموا^(٣) ذلك اليوم .

(١) خالد بن برمك : أول من وزر من آل برمك في الدولة العباسية . وكان أبوه برمك من مجوس بلخ يخدم النوبهار ، وهو معبد للمجوس في بلخ توقد فيه النيران . واشتهر هو وبنوه بسدائنه . تولى خالد الوزارة للسفاح بعد أبي سلمة الخلال . وبقي خالد في منصبه حتى توفي السفاح فأقره المنصور على وزارته حتى استبدل به أبا أيوب المورياني . ولم يبلغ مبلغ خالد أحد من ولده في علمه وجودة رأيه وقوة بأسه . (وفيات الأعيان ١ : ٢٩٥ — ٢٩٦) .

(٢) هو قحطبة بن شبيب . (٣) لاصطلموا : هلكوا واستأصلوا .

راجع نص هذه الحكاية في : وفيات الأعيان ١ : ٢٦٥ .

البَابُ السَّادِسُ وَالْعِشْرُونَ

فِي ذِكْرِ ثَارٍ وَطَائِلَةٍ

ذُكِرَ أَنَّ الْوَضَّاحَ جَذِيمَةَ^(١) ، كَانَ مَلِكاً عَلَى الْحِيرَةِ وَمَا وَالَاهَا مِنَ السَّوَادِ . وَكَانَتْ الزَّبَاءُ^(٢) مَلِكَةً عَلَى نَاحِيَةِ قَرْقِيسِيَاءَ وَهَيْتَ وَدِيَارَ رَبِيعَةَ . فَبَنَتْ قَصْرِينَ عَلَى شَاطِئِ الْفَرَاتِ لَهَا وَلِأَخْتِهَا . فَخَطَبَ الْوَضَّاحُ إِلَى الزَّبَاءِ نَفْسَهَا ، فَأَطْمَعْتَهُ فِي ذَلِكَ ، وَبَعَثَتْ إِلَيْهِ : إِنِّي أَزُوجُكَ نَفْسِي عَلَى أَنْ تُصِيرَ إِلَيَّ وَتَقِيمَ عِنْدِي ، ثُمَّ أَصِيرَ مَعَكَ إِلَى بَلَدِكَ . فَطَمَعَ الْوَضَّاحُ فِي أَنْ يَجْتَمَعَ لَهُ الْمُلْكُ ، فَتَزَوَّجَهَا عَلَى ذَلِكَ ، وَأَرَادَ الْمَضَى إِلَيْهَا . فَقَالَ لَهُ وَزِيرُهُ لَهُ يَقَالُ قَصِيرٌ^(٣) : لَا تَمْضِ أَيُّهَا الْمَلِكُ إِلَى هَذِهِ الْمَرْأَةِ ، فَإِنَّ النِّسَاءَ يُهْدِينَ إِلَى الرِّجَالِ ،

(١) هُوَ جَذِيمَةُ الْأَبْرَشِ بْنِ مَالِكٍ مِنْ مَلُوكِ الْحِيرَةِ التَّنُوحِيِّينَ وَاسْمُهُ بِالْوَضَّاحِ وَالْأَبْرَشُ لَبْرَصٌ كَانَ فِيهِ . كَانَ ذَا مَطَامِعٍ تَوْسَعِيَّةٍ ، فَهَاجَمَ مَشَارِفَ الشَّامِ وَحَارَبَ مَلِكَ الْجَزِيرَةِ عَمْرُو بْنَ الظَّرْبِ فَقَتَلَهُ وَنَهَبَ بِلَادَهُ .

(٢) الزَّبَاءُ : بِنْتُ عَمْرُو بْنِ الظَّرْبِ ، خَلَفَتْ أَبَاهَا فِي حُكْمِ الْجَزِيرَةِ ، وَكَانَتْ عَلَى جَانِبِ كَبِيرٍ مِنَ الدِّهَاءِ ، فَصَمَّمَتْ عَلَى الْأَخْذِ بِثَارٍ أَبِيهَا ، وَاسْتَطَاعَتْ أَنْ تَدْبِرَ لِلْجَذِيمَةِ (قَاتِلِ أَبِيهَا) مَكِيدَةً فَقَتَلَتْهُ .

رَاجِعْ : أَعْلَامُ النِّسَاءِ ، الْجُزْءُ الثَّانِي ، ص : ٦ — ١٥ .

(٣) هُوَ قَصِيرُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عَمْرِ ، كَانَ أَرِيئاً حَازِماً أَثِيراً عِنْدَ جَذِيمَةِ الْأَبْرَشِ نَاصِحاً لَهُ . وَقَدْ نَصَحَهُ بِعَدَمِ الْمَضَى إِلَى الزَّبَاءِ وَحَذَرَهُ مِنْ غَدْرِهَا . فَلَمَّا قَتَلَ جَذِيمَةَ وَخَلَفَهُ ابْنُ أَخْتِهِ عَمْرُو بْنُ عَدَى عَلَى الْحِيرَةِ ، شَجَعَهُ قَصِيرٌ عَلَى الثَّارِ لِحَالِهِ ، وَقَامَ هُوَ بِالدَّورِ الرَّئِيسِيِّ فِي ذَلِكَ .

ولست آمنها عليك . فأبى عليه الوضّاح (ولجّ ، فقال قصير : لا يطاع لقصير أمر ، فذهبت مثلاً . ومضى الوضّاح) إلى الزبّاء مخففاً^(١) من أصحابه .

فلما دخل عليها وجدّها على سرير لها ، فأمرت جواريتها فأمسكن يديه وأخذن سيفه ، ثم كشفت له عن عاتقها ، فإذا شعرها قد طال حتى عقدته في ظهرها ، وقالت : أهينة ذات عرس ترى ؟ قال^(٢) : لا ، ولكن هينة قدرة . قالت : أما والله ما بنا عجز مواسٍ ولا قلة أواسٍ ، ولكن شيمة من أناس . ثم قالت له : أى قتلة تحب أن أقتلك ؟ قال : إن (كنت) لا بد قاتلتى فاقتلنى قتلة كريمة . فأمرت جواريتها فقالت : اعجنّ لمولا كن لباب البرّ بالسمن والعسل ، فعملن الفالودج^(٣) . فأطعمته حتى شبع ، ثم سقته الخمر حتى ثمل ، ثم أقعدته في نِطع وفصدت شريانه ، وأمرت جواريتها فأخذن بأطراف النِطع ودمه يسيل في النِطع . فلما غلبه النزف ، مال على إحدى جنبيه ، فخرج الدم من النِطع . فقالت : أى وضّاح ، إحفظ دمك . قال : وما عليك من دم أضاعه أهله ، فذهب مثلاً . فنزف حتى مات .

وبلغ الخبر قصيراً وزيره فجذّع أنفه^(٤) ، ودسّ إليها أنه جذّع لأنه أشار على مولاه بقصد الزبّاء . ثم راسلها يطعمها في مُلك وضّاح . فركنت إليه ، وصار إليها بأمان . وأخبرها بسعة التجارات بالسواد وانشراحها^(٥) .

(١) في ب « متخفياً من أصحابه » .

(٢) وفي كتاب أسماء المغتالين ، ص ١١٤ ، قال : بلغ المدى وجف الثرى

وأمر غدر أرى .

(٣) الفالودج : نوع من الحلوى .

(٤) وقيل : لأمر ما جذّع قصير أنفه ، فذهبت مثلاً .

(٥) انشراح التجارة : توسعها .

فدفعت إليه مالا يسيراً لمتحنه ، فأتاها بربح عظيم فسرّها . ثم زادته في المال ، فأتى إليها بربح عظيم ، فأعطته مالا كثيراً وأنست به . وكانت تحادثه ، فقالت له فيما خبرته : إني حفرت من قصرى إلى قصر آخر على الفرات من الجانب الآخر سرباً تحت الماء ، وجعلت (باب) السرب تحت سريرى ومخرجه تحت سرير آخر ، فإن راعنى أمر خرجت إلى جانب الفرات الآخر ، فحفظه عاينها قصير .

ثم مضى بالمال ، فهياً ألفى رجل فى ألفى صندوق على ألف جعل بختى^(١) ، وعلى الرجال الدروع ومعهم السيوف ، ثم أقبل بهم . ووجه إليها : إني قد أقبلت إليك^(٢) بتجارة لم يدرك الناس مثلها ، فلما قرب منها صعدت على سور مدينتها تنظر إلى العير فرأتها مقبلة^(٣) فقالت :

ما للجمال مشيها وثيدا أجندلاً يحملن أم حديدا
أم عرّفاناً باردًا شديدا أم الرجال رُبّضاً قعوداً^(٤)

وجاء قصير بالعر فأدخاها المدينة ، فأناخ الجمال ، وثار الرجال من الصناديق بالسيوف يضربون مَنْ أدركوا . وعلمت الخبر فدخلت السرب الذى ذكرت لتخرج من جانب الفرات الآخر ، وبادرها قصير فوقف على باب السرب . فلما رأتة والسيف معه ، علمت أنه قاتلها ، فصّت سماً كان

(١) الجمل البختى : الجمل الخراسانى .

(٢) فى ب : « قد جئتك » .

(٣) فى ب : « مثقلة » .

(٤) الصرّفان : النحاس والرصاص ، أو الموت .

تحت خاتمها وقالت : بيدي لا بيد غيري فماتت . وفي رواية ، بيدي لا بيد عمرو^(١) ، فأرسلتها مثلاً .

وقيل كتب كسرى إلى عامله ، أن يبعث إليه بكر بن وائل^(٢) وتميم ابن مر^(٣) . قال : وكان بكر أعور ، فتوجهوا إلى كسرى ، فلما دنوا منه ، أراد بكر أن يمكر بتميم ، فتغفله فسرق ثيابه وركب راحلته ومضى حتى أتى باب الملك ، ولبس ثياب تميم ، وبقي تميم ليس معه ثياب . فأذن كسرى لبكر ، فلما دخل قال له : أين صاحبك ؟ قال : تخاف يتصيد ويحني الكمأة ، وبادرت أنا إلى الملك بالسمع والطاعة . فأعجب ذلك الملك وقال له : ما تحب أن أصنع بك ؟ قال : لا تصنع بتميم شيئاً إلا صنعت بي مثله . قال : فذاك لك .

وقدم تميم بعد يوم أو يومين ، فسأله الملك عن سبب إبطائه وتخلفه عن صاحبه ، وأعلمه أن قد جعل له أن يصنع به مثل ما يصنع بتميم . فأخبره تميم بقصته ومكره به ، وقال : إن حاجتي إلى الملك أن يفقأ عيني ويفعل مثل ذلك بيكر كما وعده . قال لك ذلك . فدعا بيكر ، وأمر بتميم ففقتت عينه فصار أعور ، وفقتت عين بكر فصار أعمى ، فخرج يتلمس الجدار وهو يقول :

(١) في بعض الروايات : أن الزباء أقبلت تريد النفق لتدخل ، فأبصرت قصيراً عند بابه مصلتا سيفه ، فانصرفت راجعة فتلقاها عمرو بن عدى ليضربها ، فمست خاتمها وكان فيه سم ، وقالت بيدي لا بيد عمرو .

(٢) بكر بن وائل بن قاسط : من زعماء بني ربيعة ومن وجوه الجاهلية ، له عدة أولاد وأحفاد تنتسب إليهم بعض فروع ربيعة .

(٣) تميم بن مر : من زعماء العرب في الجاهلية وإليه تنتسب بطون قبيلة تميم وهي من أكبر القبائل العربية . وكان ممن أوفدوا إلى كسرى في بعض المهام .

لا بصر يهديني ولا قائد يقودني ، فتصدقوا على الزَّمن^(١) رحمكم الله . قال : فكان بكر أول السائلين .

قال : كان الوضَّاح بن إسماعيل بن داود^(٢) أتى إلى الشام ، فكان من أجمل الناس وأفصحهم ، فرأته امرأة في زمن عبد الملك فعشقتة ، فكان يدخل إليها ، وكانت تجعله في صندوق . فإذا لم تكن ليأتها من زوجها ، ظهر معها يحدثها ، فإذا خافت شيئاً أدخلته الصندوق . فبعث إليها زوجها بجوهر مع خصيٍّ له ، فدخل فجأة وهو معها ، فلما أحسَّ به دخل الصندوق . ودفع الخصيَّ إليها الجوهر ، فطلب منها فصّاً كان في الجوهر ، فلم تعطه إياه . فأتى مولاه فأخبره بالأمر ، ووصف له الصندوق الذي دخل فيه الوضَّاح . فأتاها زوجها فقال يا فلانة ، هي لي بعض هذه الصناديق . قالت : أيتها شئت ؟ قال : هذا . قالت : خذ غيره . قال : لا أبغى غيره . قالت : خذه . قال : احفروا ، فحفروا حتى أمعنوا . ثم قال : دلوهُ فدلّوه ، وأعاد التراب عليه ، وقال : إن كان حقاً أو باطلاً فقد فرغنا^(٣) (منه) . فما رأت ذلك في وجهه حتى مات^(٤) .

(١) الزمن : ذو العاهة .

(٢) المعروف بوضاح اليمن ، أحد أبناء الفرس الذين قدموا في الحملة الفارسية التي طردت الأقباش . وكان شاعراً ظريفاً .

(٣) وفي كتاب أسماء المغتالين ص ٢٧٣ : قال : يا هذا ، قد بلغنا عنك شيء ، فإن كان حقاً أو باطلاً فسنقطع أثرك .

(٤) وردت هذه الجملة الأخيرة في أسماء المغتالين كما يلي : « فلم تتبين في وجه الوليد إلى أن مات شيئاً يذكر » . وفيه : إن التي عشقت الوضاح هي أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان زوجة الوليد بن عبد الملك ، وهو الذي أخذ الصندوق ودفنه .

البَابُ السَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ

فِي فُسْخِ الْعَرَاثِ

قيل لما قدم الوفد إلى سليمان برأس قتيبة ، كتب لوكيع بن أبي سود^(١) عهده على خراسان ، فقال يزيد بن المهلب لعبد الله بن الأَهم ، ولم يزل مائلاً إلى آل المهلب : إن أنت فتأت^(٢) أمير المؤمنين عن رأيهِ في وكيع وصرفته عن توليته خراسان إلى توليتي ، فلك مائة ألف (درهم) أعجلها لك بالشام ، ولك أمر خراسان ، قال : فقام عبد الله بن الأَهم فتكلم عند سليمان كلاماً يفرق الناس عن استبراعه^(٣) واستحسانه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إن وكيعاً أدرك لي بثأري ، وبالغ في طاعة أمير المؤمنين فجزاه الله خيراً ، غير أني والله لو خفت من إحدى يديّ خلافاً على أمير المؤمنين ، لأحببت إباتها^(٤) من صاحبها . إن وكيعاً لا يملك مائتي عنان قط فيُحدث نفسه بالطاعة لأحد إذا غضب ، فلا تأخذنا بحدث كان منه عند معصيته ، قال سليمان : يا ابن الأَهم ، فمن

(١) هو وكيع بن قيس بن حسان بن أبي سود التيمي . تولى قيادة الثورة على قتيبة ابن مسلم في خراسان حينما خرج قتيبة على سليمان بن عبد الملك . واستطاع وكيع أن يقتل قتيبة ، فبعث برأسه إلى سليمان . للتفصيلات راجع : وفيات الأعيان ، ٥ :

(٢) فتأت : عدلت به وصرفته .

(٣) في ب : « استبراعه » والبزاعة ما يحمى به الإنسان .

(٤) إباتها : فصلها .

لخراسان ؟ قال : العبد في الطاعة والأخ في النصيحة ، قال : يزيد بن المهلب ؟
 ويزيد إلى جنب سليمان قاعد ، وقد كان سليمان يستعمل يزيد على حرب العراق
 وصلاته إلا خراسان وحدها ، فاستعمل صالح بن عبد الرحمن الكاتب مولى
 بني تميم على الخراج . فلما قال عبد الله ذلك ، قال سليمان : صدقت . وأقبل
 على يزيد فقال : استخلف على أعمالك في العراق ، وسر إلى خراسان فأحكم
 أمرها ، ولا تقدم على وكيع بضرب ولا عذاب ، وخذ ما سرق من مال الله منه
 إن كان فعل ، بغير عذاب ولا ضرب^(١) .

ومثله ما قيل في حكومة أبي بردة بن أبي موسى^(٢) . وذلك أنه ولي بعد
 الشعبي قضاء الكوفة . فكان يحكم بأن رجلاً لو قال للمملوك الذي لا يملكه ،
 أنت حر ، إنه يعتق ويؤخذ المعتق بضمنه ، قال : فعشق رجل من بني عبس
 جارية لجار له فجئن بها وجنت به . فكان يشكو ذلك إليها ، فلقبها يوماً فقال
 (لها) : أشكو إلى الله أنه لا حيلة لي فيك ، قالت : بلى والله ، إن لك حيلة
 ولكنك عاجز ، هذا أبو بردة يقضى بالعتق بما قد علمت ، فقال لها : إنك
 لصديقة . ثم قدم بها إلى مجلس للنخعي^(٣) فيه قوم يعدلون . فقال : هذه جارية
 آل فلان أشهدكم أنها حرة ، فألقت ملفحتها^(٤) على رأسها . وبلغ ذلك

(١) لم يلتزم يزيد بهذه الوصية إذ حبس وكيع بن أبي سود وناله بكل مكروه

راجع : كتاب البلدان ، ص ٣٠٠ .

(٢) أبو بردة : هو عامر بن أبي موسى الأشعري ، ولاء الحجاج قضاء الكوفة .
 وكان يقال ثلاثة قضاة في نسق : كان بلال بن أبي بردة قاضياً على البصرة ، وكان أبوه
 أبو بردة بن أبي موسى قاضياً على الكوفة ، وأبوه أبو موسى الأشعري قاضياً لعمر .

(٣) هو إبراهيم النخعي ، وهو تابعي من فقهاء الكوفة المشهورين . توفي سنة
 ٩٥ هـ . وكان من أصدق الناس رواية وحفظاً .

(٤) اللحفة : اللباس الذي يلبس فوق سائر الملابس من آثار البرد ونحوه ،
 ويقصد هنا إنها تسترت لأنها أصبحت حرة .

مواليها ، فجاءوا فقدموه إلى أبي بردة ، وقدموا صاحب الجارية ، فأنفذ عتقها وألزم الرجل ثمنها . فلما أمر به إلى السجن ، خاف إذا ملكته أمرها (أن تصير) إلى أول من يطلبها ، وأن يخيب هو فيما سعى إليه من أمرها ، فقال : أصاح الله القاضى لا بد من حبسى ؟ قال : أو تعطيهم ثمنها ؟ . قال : فليس مثلى يُحبس فى شيء يسير ، أشهدكم إني قد أعتقت كل مملوك لآل أبي موسى ، وكل مملوك للأشعرين ، وكل مملوك لمذحج^(١) . فحلى سبيله ، ورجع عن ذلك القضاء فلم يحكم به .

ومثله لما خرج الأحنف مع مصعب بن الزبير ، أرسل إليه بمائة ألف درهم ، ولم يرسل إلى زبراء جاريته بشيء . فجاءت حتى قعدت بين يديه ثم أرسلت عينيها^(٢) فقال لها : ما يكيك ؟ قالت : مالى لا أبكى عليك إذا لم تبك على نفسك ، أبعدنهاوند ويوم مرو الروذ ، صرت إلى أن تجمع بين عارين من المسلمين . فقال : نصحتنى والله فى دينى إذ لم أنتبه لذلك . ثم أمر بفسطاطه^(٣) أن يقوَّض . فبلغ مصعباً ذلك ، فقال : ويحكم من دهانى فى الأحنف ؟ فقبل له : زبراء . فبعث إليها بثلاثين ألفاً ، فجاءت حتى (وقفت بين يديه وأرسلت) عينيها ، فقال مالك يا زبراء ؟ قالت : جئت بإخوانك من أهل البصرة تزفهم كما تزف العروس ، حتى إذا صيرتهم فى نحور أعدائهم أردت أن تفت فى أعضادهم . قال : صدقت والله ، يا غلام (دعها) فاضطرب العسكر ، وقيل : هاجت زبراء ، فذهبت مثلاً^(٤) .

(١) يريد أنه أعتق جميع ممالك أسرة القاضى وقبيلته .

(٢) أرسلت عينيها : أخذت فى البكاء .

(٣) الفسطاط : البيت من الشعر .

(٤) وردت هذه القصة فى الباب التاسع بتغيير بسيط كمثل على تسكين شغب وإصلاح ذات بين ، وجاءت هنا مثلاً على فسخ العزائم . وقد جاءت العبارة الأخيرة هنا مشوشة فصححناها على الشكل الذى جاءت به هناك .

ومثله حديث سلمان الفارسي^(١)، لما خطب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ابنته فلم يستجز رده ، فأنعم له وشق ذلك عليه وعلى ابنه عبد الله بن عمر . فشكا ذلك عبد الله إلى عمرو بن العاص ، فقال : أفتحب أن أصرف سلمان عنكم ؟ فقال له : هو سلمان وحاله في الإسلام حاله . قال : أحتال له حتى يكون هو التارك لهذا الأمر والكاره له ، قال : وددنا أنك فعلت ذلك . فمرَّ عمرو بن العاص بسلمان في طريق ، فضرب بيده على منكبه وقال : هنيئاً لك يا أبا عبد الله ، قال له : وما ذاك ؟ قال : هذا عمر يريد أن يتواضع بك فيزوجك قال : وإنما يريد أن يزوجني ليتواضع بي ؟ قال نعم : قال : لا جرم ، والله لا أخطب إليه (أبداً) .

(وكتب معاوية إلى عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة أن يقدم عليه ، فقدم عمرو من مصر والمغيرة من الكوفة ، فقال عمرو للمغيرة . ما جمعنا إلا ليعزلنا ، فإذا دخلت عليه فأشهر الضعف واستأذنه أن تأتي الطائف أو المدينة ، فإني إذا دخلت عليه سألته ذلك . فإنه يظن أننا نريد أن نفسد عليه ، فدخل المغيرة ، فسأله أن يعفيه ويأذن له . ودخل عمرو فسأل مثل ذلك . فقال معاوية : لقد تواطأتما على أمرٍ وإنكما لتريدان شراً ، إرجعا إلى عملكما^(٢) .

(١) سلمان الفارسي : صحابي ومن أوائل المسلمين ، كان قوى الجسم صحيح الرأي ، عالماً بالشرائع ، زاهداً . وقد لزم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي أشار عليه بحفر الخندق حول المدينة في غزوة الأحزاب . تولى إمارة المدائن وبقى فيها حتى توفي سنة ٣٦ هـ .

(٢) هذه القصة كلها من نسخة ب ، ويظهر أنها سقطت في النسخ في نسخة ١ .

البَابُ الثَّامِنُ وَالْعِشْرُونَ

فِي أَنْهَا خَبْرُ بِلَاتَصْرِحٍ

قِيلَ لَمَّا حَارَبَ أَهْلَ حِمصَ مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ وَعَلَيْهِمُ السَّمَطُ ، وَكَانَ مَعَاوِيَةُ السَّكْسَكِيُّ فَارِسَ أَهْلِ الشَّامِ مَعَهُ ، فَأَسْرَ مَرْوَانَ مَعَاوِيَةُ السَّكْسَكِيُّ ، فَقَالَ : دَعْنِي أَكَلِمَ أَهْلَ حِمصَ وَأَدْعُوهُمْ إِلَى طَاعَتِكَ . فَأَرْسَلَهُ مَرْوَانُ وَوَكَلَ بِهِ مِنْ يَحْفَظُهُ ، فَأَتَاهُمْ فَكَلَّمَهُمْ فَشَتَمُوهُ مِنْ فَوْقِ السُّورِ وَشَتَمُوا مَرْوَانَ ، فَقَالَ لَهُمْ : أَمَّا إِذَا أُبَيِّتُمْ ، فَأَرْسَلُوا إِلَى غَلَامِي مَيْسِرَةَ الْأَسْوَدِ ، وَلِتَكُنْ مَعَهُ ثِيَابِي كُلَّهَا . وَرَجِعَ إِلَى مَرْوَانَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : مَاذَا قَالَ لَهُمْ ؟ فَأَخْبَرُوهُ ، فَقَالَ مَرْوَانُ : أَتَدْرُونَ مَا أَرَادَ ؟ قَالُوا : لَا ، قَالَ : أَمْرُهُمْ (أَنْ) يَبَيِّتُونَا ، وَقَالَ لَهُمْ : إِذَا أُمْسَيْتُمْ فَالْبَسُوا سِلَاحَكُمْ وَاحْمِلُوا عَلَى الْمَيْسِرَةِ . فَأَمَرَ مَعَاوِيَةَ فَقَطَّعَتْ يَدَاهُ وَرَجَلَاهُ . وَلَمَّا أُمْسُوا صَيَّرُوا الْفَرَسَانَ وَأَهْلَ النَّجْدَةِ فِي الْمَيْسِرَةِ ، فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ بَيَّتَهُمْ أَهْلُ حِمصَ فَلَمْ يَقْدِرُوا (مِنْهُمْ) عَلَى شَيْءٍ .

وَقِيلَ إِنَّ مُخَارِقَ بْنَ عَفَّارٍ وَمَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ فِي فُؤَارِسَ ، لَقِيَا رَجُلًا مِنْ بَعْضِ بِلَادِ الشَّرْكِ وَمَعَهُ جَارِيَةٌ لَمْ يَرِ بِهَا مِثْلُهَا شَبَابًا وَجَمَالًا ، فَصَاحُوا بِهِ أَنْ خَلَّ عَنْهَا ، وَمَعَهُ قَوْسٌ لَهُ فَرَمَى بِمَعْضَمِ فُجْرَحِهِ ، وَهَابُوا الْإِقْدَامَ عَلَيْهِ . ثُمَّ عَادَ لِيَرْمِيَ فَانْقَطَعَ وَتَرَهُ ، فَأَسْلَمَ الْجَارِيَةَ وَاشْتَدَّ فِي جَبَلٍ كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ . فَابْتَدَرُوا الْجَارِيَةَ وَفِي أُذُنِهَا قَرِطٌ فِيهِ دُرَّةٌ ، فَانْتَزَعَهُ بَعْضُهُمْ مِنْ أُذُنِهَا ، فَقَالَتِ الْجَارِيَةُ : وَمَا قَدَرُ هَذَا لَوْ رَأَيْتُمْ دَرَتَيْنِ مَعَهُ فِي قَانَسُوتِهِ ، فَاتَّبِعُوهُ ، فَقَالَ : مَا لَكُمْ ، أَلَمْ أَدْعُ لَكُمْ

بغيتكم؟ قالوا: ألق ما في قانسوتك. فرفع قانسوته فإذا فيها وتر للقوس قد كان أعده فأنساه الدهش، فلما رآه عقده في قوسه فولّى القوم ليست لهم همة إلا أن ينجوا بأنفسهم وخلّوا الجارية.

وحكى أن عرباً من بني أسد، أسروا غلاماً من طيء، فلاحقه أبوه ليفديه، فاشتط الأسديون على الطائي في الفدية، فطلبوا منه مائة ناقة، فقال الطائي: والله لا أفديه بمائة، مادام الفرقدان على طيء، وابنه يسمع، ففهم عن أبيه أن الطريق إلى جبلى طيء على الفرقدين. فطلب غيرةً من القوم، ثم ركب جملاً ذلولاً من إبلهم، وأخذ على سمت الفرقدين حتى رجع إلى قومه.

وحكى أن المأمون كان قد رفع بمرّو الفضل بن سهل، وبلغ من الغلبة عليه الغاية، حتى لا يصل إلى المأمون من أخبار ملكه وأموره، وخاصة أصحابه إلا من أذن له الفضل. ثم حمّله على البيعة لعلي بن موسى الرضا. قال سعيد ابن مسلم: دعاني الفضل بن سهل ليلة فسمعت عنده حتى نوّم الناس، ثم قال لي: أين فعلى حين ظفر أمير المؤمنين بأخيه من فعل أبي مسلم في نقل الدولة إلى بني العباس عن بني أمية؟ قلت له: لا، سوى أنت نقلت الدولة من أخ إلى أخ والأمراثبات لأهله، وقد كانت البيعة لصاحبها في أعناق الناس، وأبو مسلم خرج بغاية الضعف، فنقل دولة من قبيل إلى قبيل من غير بيعة متقدمة، قال سعيد: فأمسك الفضل على قولى.

ثم دبّ في البيعة لعلي بن موسى، فلما بايع له دعاني على خلوة في مثل ذلك الوقت بعد حوّل. فعلمت أنه يريد بي بمثل ما كان دعاني إليه، فقال لي: يا سعيد، أين فعلى في البيعة للطالبي من فعل أبي مسلم؟ نفخت أن أقول دون فعل أبي مسلم، لأن البيعة لم تخرج عن بني هاشم، فيحمله أن يحتال لبيعة

أعجبي ، وكان يغلب المأمون كيف شاء ، فقلت له : لا ، بل فعلك أكبر من فعل أبي مسلم ، فسرّه ذلك .

ولما بلغ العباسيين بمدينة السلام وقوع البيعة لعلی بن موسی ، بايعوا لإبراهيم بن المهدي^(١) ، وخرجوا معه فهزموا الحسن بن سهل من المدائن إلى الصّلع^(٢) نحو أربعين فرسخاً ، وكانت بنت موسى الهادي^(٣) تحت المأمون وهي مقيمة بمدينة السلام ، فأحبت أن يعلم المأمون الخبر وبيعة أهله لإبراهيم عمه . وعلمت أن كتبها لا تصل إلى المأمون حتى يقرأها الفضل ، وخافت أن توجه امرأة بالخبر فتفرّر أو تُرَغَّب فتخبر بما أودعت . فهيأت خلعاً من وشى فائق وخزّ حسن ، وبطّنت الخلع ببطائن خَلِقة وسخة ، وكتبت على البطائن ما أرادت مما يلي الظهائر كتاباً غير ظاهر . ثم وجهت بها إلى المأمون مع هدايا كثيرة ، فاعترضها الفضل بن سهل فلم يفهم ، فأوصلها إلى المأمون فأعجب بها .

(١) إبراهيم بن المهدي: هو أخو هارون الرشيد وأمه جارية سوداء ، فكان لونه أسود حال كآ . وقد عرف بفصاحة اللسان وسعة الصدر وسخاء الكف ، كما كان ماهراً في الغناء . وقد عمل للرشيد والياً على الشام . ولما ولي المأمون الخلافة اغتتم إبراهيم فرصة الاضطرابات التي نشأت عن الخلاف بين الأمين والمأمون ، فدعا إلى نفسه ي بغداد عندما كان المأمون لا يزال في خراسان . فبايعه كثيرون ومنهم عدد من أهل البيت العباسي ، ولقب بالمبارك . ودامت خلافته قرابة الستين . إلا أن جيوش المأمون انتصرت عليه ، فهرب واختفى مدة ست سنوات ظهر بعدها واستسلم للمأمون معتذراً عن خروجه فعفا عنه .

(٢) الصّلع : كورة كانت فوق واسط لها نهر يستمد ماءه من الجانب الشرقي من دجلة يسمى قم الصّلع . وكانت بهذه الكورة منازل الحسن بن سهل وقصوره . (معجم البلدان ٥ : ٣٧٩) .

(٣) هي أم حبيب .

ثم أراد لبس بعضها ، فلما نظر إلى بطائنها أنكر ذلك وراعه ، وقال : كيف يبطن ثوب يساوى عشرة آلاف درهم ببطانة تساوى عشرين درهماً ؟ إن لهذا لشأناً ، وإن لأحسب أمراً قد حدث في ناحية بغداد ينبغي أن يُغيّر . ثم أمر بفتقها ، ففتقت ، فإذا في داخلها في كل بطانة نسخة الخبر .

فدعا المأمون بالفضل بن سهل ، فقال له : كتمتني خروج عمي على وهزيمته لأخيك ؟ قال الفضل : لم يكن ذلك كما بلغ أمير المؤمنين ، فأخرج له المأمون بطانة فقرأ ما عليها ، فقال له : أردت أن أذكرك هذا الخطب ثم تعلمه . فأمر المأمون من ساعته بالرحيل إلى العراق ، وتمكّر للفضل بن سهل ^(١) .

(١) وقد مر خبر قتله في -مرخس بتدبير من المأمون- ، في الباب الثالث والعشرين

الباب التاسع والعشرون

في مخاطرة الملوك بأنفسهم

حكى أن ملكة كانت قد جمعت ملك اليمن ، لما بلغها مخرج الإسكندر وما فعل بملك الفرس وملك الهند . وجَّهت إليه مصوراً حاذقاً فصوره وصور رؤساء عسكره . وقد كان ابنها عند ملك الهند ، أخذته امرأته بنت ملك الهند . فلما ظفر الإسكندر ببلاد الهند ، أحسن إلى ابن ملكة اليمن وحمله إلى أمه ومعه امرأته . فلما شخص الإسكندر في البحر فعمد^(١) إلى ناحية اليمن ، خرج إلى الملكة كعادته أنه رسول . فلما بلغها أن رسول الإسكندر قدم عليها جلست له . فدخل إليها وهي محتفية^(٢) في أصحابها وجمعها . فأبلغها الرسالة ، فعرفته وأمرت به فأنزل في منزل واسع . فلما كان العشي ، بعثت إليه فحضرها فأدخل إليها ولا سلاح معه . وهي في مجلس مفصص بأنواع الحجارة العجيبة ، وجواربها معها على سريرها . فأتى به ، فقالت له : يا إسكندر ، لا تحتشم فإنك تستأهل أن تُكرَّم . قال الإسكندر : أنشدك الله أيتها الملكة أن تدعوني باسم سيدي ومليكي . قالت له إجلس حيث أجاسك ، ثم أخرجت له صورته . فلما علم أنها عرفته جعل يعض يده ، فقالت له : ما هذا التلهف ؟ قال : آسف ألا يكون معي سيفي . فرمت في الأرض بقضيب كان في يدها ، فخرج من خلف ستورها

(١) في ب : « فعب » ولم يعرف تاريخياً أن الإسكندر غزا بلاد اليمن .

(٢) محتفية : حفي به أو احتفى به ، بالغ في إكرامه ، والاحتفاء المبالغة في الإكرام وإظهار السرور . وفي ب : « محلقة » .

رجال في الدروع ومعهم السيوف . ثم أوامات إليهم ، فرجعوا إلى مواضعهم .
ثم قالت له : لا تُرْعَ ، فإن لك عندى بدءاً أنا مجازيتك بها . فردته إلى عسكره
بعد أن عاهدته على أن ينصرف عنها ، فانصرف .

وحكى أن أبا مسلم قبل استحكام أمره وهو يتنقل بكور خراسان ، يدعو
إلى بيعة إبراهيم الإمام ، نزل ببعض الكور على رجل من عظماء خراسان . فهم
الرجل على أبي مسلم بأخذه والتقرب به إلى ولاية بني أمية . ففطن لذلك رجل
من أهل الكورة ، وكان مائلاً إلى بني هاشم ، فاستأذن الرجل الذي هم
بأبي مسلم في الدخول عليه فأذن له ، ووجه معه أميناً له تخوفاً من أن ينذر
أبا مسلم . فلما مضى نحوه والأمين معه ، بدأ في قراءة القرآن في سورة القصص .
فلما دخل على أبي مسلم مرّ في قراءته على الآية ﴿ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ
لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنْ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ^(١) ﴾ ونظر إلى أبي مسلم نظرة منكرة ،
ففهم أبو مسلم عنه ما أراد ، وسأله الرجل عن حاله وانصرف . فرجع إلى موضع
نزيل أبي مسلم ، فسأل أمينه : هل دار بينهما شيء أنكره ، قال : لا ، ولقد
كان يقرأ القرآن أكثر جلوسه عنده . وهرب أبو مسلم من تحت ليلته .

وحكى أن أبا العباس السفاح ، أنكر طاعة أبي مسلم بخراسان ، فوجه
أخاه أبا جعفر ، إلى خراسان ، وكتب معه كتباً إلى أبي مسلم ، بتسليم عمل
خراسان إلى أبي جعفر ، وكتب مع أبي جعفر كتباً بخطه إلى ولاية كور خراسان
في السمع لأبي جعفر ، وحسن معاونته على أبي مسلم . فقال أبو العباس
لأبي جعفر : إذا وصلت إلى أبي مسلم ، فتعرّف طاعته بما يظهر من تعظيمك ،
فإن رأيت معظماً لك مكرماً ، فأوصل إليه كتاب عزله وتسلم العمل منه . وإن
انكرته فأعلمه أنك أتيت زائراً ، ثم أوصل الكتب إلى ولاية الكور في
السمع والطاعة ، ليثبوا على أبي مسلم فيساموه إليك .

(١) سورة القصص ، الآية (٢٠) .

فلما ورد أبو جعفر على أبي مسلم لم يتلقه ، ولما دخل عليه لم بكرمه ولم يقيم إليه ، ولم يأمر له بمنزل ينزله ، ولا أقام له نزلاً . فلما انصرف أبو جعفر إلى مضر به ، قال مالك بن الهيثم الخزاعي^(١) ومعاذ بن مسلم العقيلي لأبي مسلم : أصلح الله الأمير ، ورد عليك أخو إبراهيم الإمام وأخو أمير المؤمنين فلم تلقه ولم تقم إليه ، وعبست في وجهه ولم تقم له نزلاً ولا منزلاً . فقال لها : أمسكا عني ، فوالله لو تلقيته بالإكرام لأخرج كتاب العزل من كمي .

فلما كان في الليل ، صار مالك بن الهيثم إلى باب مضرب أبي جعفر متكرراً في زى العامة ، فقال لحاجب أبي جعفر : اعلمه أن هذا (الفاسق) يعني أبا مسلم (عزم) على أن يطرقكم^(٢) في الليل فيفتش الرحالات^(٣) ، فإن وجد (عندكم) كتباً بما يفكره ، قتل كل من وجد منكم . فأبلغ الحاجب أبا جعفر ذلك ، فخافه أبو جعفر على نفسه فأحرق ، الكتب التي كانت معه إلى ولاية الكور كلها . ولم يطرقه أحد ، ثم انصرف أبو جعفر (خائباً ، وكان ذلك سبب المباحدة بين أبي جعفر وبين أبي مسلم) .

وحكى أن ذا القرنين ، وهو الإسكندر ، لما قدم أرض العراق لقتال

(١) مالك بن الهيثم الخزاعي : من نقباء الدعوة العباسية في خراسان . وقد أعلن الثورة على الأمويين فقبض عليه وحبس . ثم أطلق سراحه ، فصار إلى أبي مسلم الخراساني وقاتل تحت لوائه .

(٢) يطرقكم في الليل : يركب إليكم ليهاجمكم ليلاً .

(٣) الرحالات : جمع رحال وهي سروج الإبل ، أو ما يستصحبه المسافر من الأثاث والأمتعة .

دارا ملك الفرس ، خرج إليه دارا إلى طسوج مَسْكِن^(١) ، فمسكر بموضع يقال له حربى^(٢) . فصار إليه الإسكندر على أنه رسول . فلما أدخل إليه ، أعجب دارا هيئته وبلاغته ، فأمر بإحضار مجلس شرابه . فكان الإسكندر كلما أعطى شراباً فى آنية ، صبَّ الشراب فى جيبه ، ووضع منه على رأسه وأخذ الآنية فوضعهما فى كفه ، فقبل للملك فى ذلك ، فقال دارا : ما الذى تفعل ؟ قال الإسكندر : أمرنى ملكى ، أن لا أشرب خمرأً حتى أعود إليه ، فأكره أن أرد شراب الملك فأصبه بين ثوبى وجلدى وأضع منه على رأسى ، وأما أخذ الآنية ، فإن سنتنا فى مملكتنا ، أن كل من سقى فى آنية فهى له ، فإن أمرنى الملك أن أعصى ملكى وأشرب وأرُدَّ الآنية فعلت ، قال له دارا : لا تعص ملكك ولا تردَّ الآنية .

ودخل الموبذ على دارا فنظر إلى الإسكندر ، فقال للملك : أحسب هذا هو الإسكندر ، فإنى قد وجهت من صورّه . فبعث إلى الصورة ليؤتى بها ، ففطن الإسكندر ، فانسَلَّ كأنه قام لحاجة ، فركب فرساً له على الباب لا يدرك . وطُلب فلم يلحق ، حتى صار إلى طلائعه .

فلما كان من الغد وتراحف الخيلان^(٣) ، وتوافقت الصفوف ، خرج

(١) مَسْكِن : مرتفع على نهر دجيل ، عنده كانت الواقعة بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير ، حيث قتل مصعب ، وقبره هناك . وتسمى اليوم الإبراهيمية وكانت دجيل سابقاً .

(٢) حربى : موقع كان جنوبى سامراء ، بينها وبين مسكن .

(٣) تراحف الخيلان : مشى بعضها إلى بعض بثقل وتؤدة . وفى ١ : « تراحف

الخيلان » .

الإسكندر من صف أصحابه ، فأمر من ينادى : يا معشر الفرس ، قد علمتم ما كتبنا لكم من الأمانات ، فمن كان منكم على الوفاء لنا فليعتزل عن سائر العسكر ، فله عندنا الوفاء بما ضمنّا له . فاتهمت الفرس بعضها بعضاً ، وولت منهزمة .

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وجّه عمرو بن العاص حيث فتح قيسارية^(١) إلى مصر ، فسار عمرو حتى نزل على غزة ، فبعث إلى عابجها^(٢) ، فأرسل إليه أن أرسل إلى رجلاً من أصحابك أكله . فنظر عمرو فقال : ما أرى لهذا أحداً غيرى ، فخرج فدخل على العليج ، فكلمه فسمع كلاماً لم يسمع بمثله قال : حدّثنى هل فى أصحابك مثلك ؟ فقال : لا تسأل عن هوانى عليهم ، لأنهم بعثونى إليك ، وعرضونى لا يدرون ما تصنع بى ، فأمر له بجائزة وكسوة . وبعث إلى البواب : إذا مرّ بك فاضرب عنقه وخذ ما معه .

فخرج من عنده ومرّ برجل من نصارى العرب من غسان فعرفه ، فقال له : يا عمرو ، إنك قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج . فرجع ، فقال له الملك : ما ردّك ؟ قال : نظرت فيما أعطيتنى فلم أجده يسمع بنى عمى ، فأردت أن أجيئك بعشرة منهم تعطيهم مثل هذه العطية ، وتكسوهم مثل هذه الكسوة ، فيكون معروفك عند عشرة خير من أن يكون عند واحد ، قال : صدقت فأعجبهم . وبعث إلى البواب أن خلّ سبيله ؛ فخرج عمرو وهو يتلفّت ، حتى

(١) قيسارية : كانت من أمهات المدن فى فلسطين وتقع على ساحل البحر المتوسط .

(٢) العليج : الرجل من كفار الأعاجم ، ويقصد هنا صاحب المدينة من الروم .

إذا أمن قال : لا أعود لمثلها أبداً . فما فارقه عمرو حتى صالحه ، فلما أتى العليج قال : أنت هو ؟ قال عمرو : نعم ، على ما كان من غدرك^(١) .

(١) جاء في (فتوح البلدان) : إن عمرو بن العاص وقع أسيراً مع ثلاثة من أتباعه في حصن الاسكندرية عندما هاجمه العرب عند فتحهم مصر ، إذ كان الجيش العربي قد اقتحم الحصن وقاتل الروم داخله ، إلا أن الروم حملوا على العرب بشدة ، فأخرجوهم إلا بضعة نفر منهم ، بينهم عمرو بن العاص ، وكانت عدم معرفة الروم بعمره سبب نجاته . (فتوح البلدان ص : ٢٢١ — ٢٢٥) .

وجاء في الطبري ما يدل على أن هذه القصة وقعت لعمره بن العاص عندما توجه لفتح أجنادين ، وأن ما وقع له من الأسر والتخلص منه ، كان مع قائدها المسمى الأرطبون . (الطبري — م ، ٣ : ٦٠٥ — ٦٠٦) .

البَابُ الثَّلَاثُونَ

فِي اللَّطْفِ فِي حَطِّ مَنْزِلَةٍ

حُكِيَ أَنَّ أَبَا عُبَيْدِ اللَّهِ وَاسْمَهُ مَعَاوِيَةَ^(١)، كَانَ وَزِيرًا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُهْدِيِّ .
وَكَانَ الْمُهْدِيُّ شَدِيدَ التَّبَعِ لِلزَّنَادِقَةِ ، فَظَهَرَ عَلَى أَنَّ ابْنًا لِأَبِي عُبَيْدِ اللَّهِ عَلَى الزَّنَادِقَةِ .
فَدَعَا بِهِ فَامْتَحَنَهُ فَوَجَدَهُ زَنْدِيقًا ، فَقَتَلَهُ بِمَحْضَرِ أَبِيهِ صَبْرًا بِالسَّيْفِ^(٢) . وَكَانَ بَيْنَ
أَبِي عُبَيْدِ اللَّهِ وَبَيْنَ الرَّبِيعِ الْحَاجِبِ^(٣) مَبَاعَدَةٌ ، وَكَانَ يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدَ^(٤) كَاتِبًا
لِأَبِي عُبَيْدِ اللَّهِ قَرِيبًا مِنْ قَلْبِ الْمُهْدِيِّ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِثْلُ قَدْرِ أَبِي عُبَيْدِ اللَّهِ وَتَمَكُّنِهِ
مِنَ الْخُلَيفَةِ . (فَقَالَ الرَّبِيعُ لِيَعْقُوبَ بْنِ دَاوُدَ : مَا لِي عَلَيْكَ إِنْ كَفَيْتَكَ أَمْرًا

(١) هُوَ مَعَاوِيَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَسَارٍ مِنْ وَزَرَاءِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، أَصْلُهُ مِنْ طَبَرِيَّةَ ، اسْتَكْبَهَ الْمُهْدِيُّ قَبْلَ تَوَلِيهِ الْخُلَافَةَ ، وَلَمَّا صَارَ خُلَيفَةً اسْتَوْزَرَهُ ، وَكَانَ يَحْتَرِمُهُ وَيَسْتَشِيرُهُ فِي أُمُورِهِ ، وَكَانَ مَدِيرًا كَفَوًا ، وَاسْتَمَرَ فِي عَمَلِهِ لِلْمُهْدِيِّ حَتَّى تَوَلَّى الرَّبِيعُ بْنُ يُونُسَ حِجَابَةَ الْمُهْدِيِّ فَأَفْسَدَ ثِقَتَهُ بِمَعَاوِيَةَ فَعَزَلَهُ .

(٢) رَاجِعٌ عَنْ قَتْلِ ابْنِ أَبِي عُبَيْدِ اللَّهِ أَمَامَ أَبِيهِ : مُحَاضِرَاتُ تَارِيخِ الْأُمَمِ الْإِسْلَامِيَّةِ

٣ : ١٠١ .

(٣) هُوَ الرَّبِيعُ بْنُ يُونُسَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ أَبِي فَرُوقَةَ وَزِيرَ الْمَنْصُورِ ، وَقَدْ حَظَى عِنْدَ ابْنِهِ الْمُهْدِيِّ فَوَلَاهُ حِجَابَتَهُ .

(٤) يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدَ بْنِ عَمْرِو السَّامِيِّ ، كَانَ كَاتِبًا لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحُسَيْنِ الَّذِي خَرَجَ عَلَى الْمَنْصُورِ بِالْبَصْرَةِ ، وَقَدْ حَبَسَهُ الْمَنْصُورُ عِنْدَ مَا ظَفَرَ بِإِبْرَاهِيمَ ، وَأَطْلَقَ سَرَاحَهُ بَعْدَ وَفَاةِ الْمَنْصُورِ ، تَقَرَّبَ مِنَ الْمُهْدِيِّ وَعَلَتْ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَهُ بِمَعَاوِنَةِ الرَّبِيعِ الْحَاجِبِ الْخُلَيفَةِ ، فَاسْتَوْزَرَهُ .

أبى عبيد الله ؟ قال يعقوب بن داود : احكم . فدخل أبو عبيد الله يوماً على المهدي ليعرض أموراً من أسرار الخلافة ، فأوماً المهدي إلى جميع مَنْ بحضرته بالتنحي ، فتنحوا إلا الربيع فإنه لم يُزل ، فقال له المهدي : تنح ، فخطا خطوة ثم وقف ، فقال المهدي : ألم تؤمر بالتنحي ؟ قال الربيع : كيف أتنحى عنك وأدعك متفضلاً سلاح عليك ، مع رجل عليه سيفه قد قتلت ابنه أمس بالسيف صبراً وهو ينظر إليه ؟ .

فقال (المهدي) لأبى عبيد الله : اعرض ما جئت له فليس الربيع بمتهم . فلما خرج أبو عبيد الله من عند المهدي ، قال المهدي للربيع : احجب عني أبا عبيد الله ، فإني أستحي منه لقتلي ابنه . فسقطت حال أبى عبيد الله ، وارتفع يعقوب بن داود^(١) ، وأخذ الربيع جُعله منه .

(١) عند ما استوزر المهدي يعقوب بن داود ، قلده أمور الدولة كلها فاستبد بها دون الخليفة ، حتى قال فيه بشار بن برد :

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ولم يخل ابن داود من الحساد لمركزه الذي صار إليه . فتتابعت عليه الوشايات حتى نفر منه المهدي فعزله وحبسه . وبقي في السجن حتى أطلقه الرشيد ، وكان قد ذهب بصره . فسكن مكة حتى مات فيها (راجع وفيات الأعيان ٦ : ١٩ — ٢٥) .

البَابُ الْحَادِي وَالثَّلَاثُونَ

فِي دَفْعِ الْفِيلَةِ

حُكِيَ أَنَّ الإسْكَندَرَ لَمَّا شَخَصَ عَنْ أَرْضِ فَارَسٍ إِلَى أَرْضِ الْهِنْدِ ، تَلَقَّاهُ
مَلِكُ الْهِنْدِ فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ وَمَعَهُ أَلْفُ فِيلٍ مَجْفُفَةٌ بِالسَّلَاحِ ، عَلَيْهَا الرِّجَالُ ، وَفِي
خِرَاطِيمِهَا السِّیُوفُ ، فَالْتَقَوْا . فَكَانَتِ الدَّبْرَةُ عَلَى الْإِسْكَندَرِ ، وَلَمْ تَقِفْ دَوَابُّ
جُنْدِهِ لِلْفِيلَةِ وَوَلَّتْ مِنْهَا هَارِبَةً . فَرَجَعَ الْإِسْكَندَرُ إِلَى مَأْمَنِهِ ، ثُمَّ أَمَرَ صُنَّاعَهُ
فَاتَّخَذُوا لَهُ تَمَائِيلَ لِلْفِيلَةِ ، وَجَعَلَ مَرَابِطَ خَيْلِهِ فِي تِلْكَ التَّمَائِيلِ حَتَّى أُلْقَتْهَا الْخَيْلُ . ثُمَّ
أَمَرَ بِاتِّخَاذِ أَلْفِ تَمَثَالٍ رَجُلٍ عَلَى أَلْفِ فَرَسٍ مِنْ نَحَاسٍ مَجْوُفَةٍ . ثُمَّ أَلْبَسَهَا الدَّرُوعَ
وَمَلَأَ أَجْوَافَهَا بِالنَّفْطِ وَالْكَبْرِيتِ ، وَجُرَّتْ عَلَى الْعَجَلِ فَوَقَفَتْ فِي مَوَاضِعِ
الْوُقْعَةِ ، وَبَيْنَ كُلِّ تَمَثَالَيْنِ مِنْهَا جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ . فَلَمَّا نَشَبَتِ الْحَرْبُ وَاشْتَدَّتْ ،
أَمَرَ بِإِشْعَالِ النَّارِ فِي تِلْكَ التَّمَائِيلِ فَحُمِيتْ ، وَانْكَشَفَ أَصْحَابُهَا عَنْهَا . وَغَشِيَتْ
الْفِيلَةُ التَّمَائِيلَ فَضَرَبَتْهَا بِخِرَاطِيمِهَا فَتَشَيَّطَتْ خِرَاطِيمُهَا وَاحْتَرَقَتْ . فَوَلَّتْ الْفِيلَةُ
رَاجِعَةً ، وَكَانَتِ الدَّبْرَةُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَلَى مَلِكِ الْهِنْدِ ^(١) .

وَحُكِيَ أَنَّ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ ، لَمَّا حَارَبَ رِيسَ بَالْقَادِسيَّةِ ، لَمْ يَكُنْ
شَيْءٌ أَشَدَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْفِيلَةِ ، لِنَفَارِ ^(٢) دَوَابِهِمْ مِنْهَا وَشِدَّةِ نَكَائِثِهَا . فَأَتَى

(١) سبق أن وردت هذه الحكاية بنصها هذا في الباب الثاني كمثل على لطف
التدبير في الحروب . وقد سقطت في نسخة ب ، في الباب المذكور

(٢) نفار الدواب : جزعها وتباعدها .

سعداً رجل من أهل السواد ، فقال له : أتعطيني الأمان على نفسي ومالي
وقرابتى وعيالى ، على أن أدلك على أمر يكفيك هذه الفيلة ؟ فأعطاه سعد
ما طلب ، فقال له السوادى : اطلب خنزيراً من الأوالف ، فإذا وافقكم الفيلة ،
فاضربوا الخنزير حتى يصيح ، فإن الفيلة إذا سمعت صوته مضروباً ولّت هاربة .
ففعل ذلك فولّت هاربة فردّها ساستها ، فلما سمعت صوت الخنزير أيضاً
هربت ولم تقف .

البَابُ الثَّانِي والثَّلَاثُونَ

فِي دَفْعِ ظَنَّةٍ

قِيلَ أَصَابَ رَجُلٌ مِنَ الضَّبَابِ^(١) نَاقَةً ضَالَّةً فَنَحَرَهَا ، ثُمَّ مَرَّ بِهِ بَعِيرٌ
فَنَحَرَهُ ، ثُمَّ قَدَّدَ لَحُومَهُمَا . فَلَمْ يَلْبِثْ أَنْ أَتَاهُ صَاحِبُ النَّاقَةِ ، فَلَمَّا رَأَى اللَّحْمَ
وَأَثَرَ النَّحْرِ لَمْ يَشْكُ أَنْ نَاقَتَهُ عِنْدَهُ . فَأَطْعَمَهُ وَقَالَ لَهُ : مَا حَاجَتُكَ ؟ قَالَ :
نَاقَةٌ أَضَلَّتْهَا ، فَأَخْرَجَ إِلَيْهِ ثِيْلَ^(٢) الْبَعِيرِ . فَلَمَّا رَأَى الثَّيْلَ يَثْسُ مِنْ نَاقَتِهِ ،
وَقَالَ الضَّبَابِيُّ : هَذَا بَعِيرٌ لَنَا اانْكَسِرْ ، فَمَضَى الرَّجُلُ .

وَجَاءَ صَاحِبُ الْبَعِيرِ ، فَلَمَّا رَأَى اللَّحْمَ لَمْ يَشْكُ أَنْ بَعِيرَهُ عِنْدَهُ . فَأَطْعَمَهُ
وَقَالَ لَهُ : مَا حَاجَتُكَ ؟ قَالَ بَعِيرٌ أَضَلَّتْهُ . فَأَخْرَجَ إِلَيْهِ ضَرْعَ النَّاقَةِ ، ثُمَّ قَالَ :
هَذِهِ نَاقَةٌ لَنَا عَيِيت . فَاَنْطَلَقَ الرَّجُلُ فِي طَلَبِ بَعِيرِهِ . فَقَالَ الضَّبَابِيُّ :

وَمَلْتَمَسَ بَعِيرًا ظِلًّا يُشَوِّى لَهُ مِنْهُ وَيَتَّبِعُهُ قَدِيرٌ^(٣)
فَلَمَّا أَنْ رَأَى ضَرْعًا صَحِيحًا تَبَيَّنَ أَنَّهُ حَرْفٌ دُرُورٌ^(٤)
فَلَمَّا أَنْ تَرَوَّحَ جَاءَ بَاغٍ أَضَلَّتْهُ عَمَلَةٌ عَيْسَجُورٌ^(٥)
فَرَأَى فِتْوَاهُ مِنْهَا قَدِيدٌ عَلَى الْأَطْنَابِ مَصْفُوفٌ شَرِيرٌ^(٦)

(١) الضَّبَابُ أَوْ الضَّيْبَةُ : إِحْدَى بَطُونِ قَبِيلَةِ الرَّبَابِ .

(٢) الثَّيْلُ : وَعَاءٌ قَضِيبُ الْبَعِيرِ وَالثَّوْرُ ، وَقِيلَ هُوَ الْقَضِيبُ نَفْسَهُ . وَفِي ١ :

« ذَيْلُ الْبَعِيرِ » .

(٣) الْقَدِيرُ : اللَّحْمُ الْمَطْبُوخُ فِي الْقَدْرِ .

(٤) الْحَرْفُ مِنَ الْإِبِلِ : النَجِيَّةُ الَّتِي أَضَلَّتْهَا الْأَسْفَارُ ، وَشَبَّهَتْ بِحَرْفِ الْجِبَلِ

لَشِدَّتِهَا وَصَلَابَتِهَا ، وَالدُرُورُ : النَّاقَةُ الْكَثِيرَةُ اللَّابِنِ .

(٥) تَرَوَّحَ : ذَهَبَ فِي الْعَشِيِّ . وَالْعَمَلَةُ : النَّاقَةُ الْمَشْرُوفَةُ الْجَسِيمَةِ وَجَمْعُهَا عَلَوَاتُ .

(٦) الشَّرِيرُ : مَا وَضَعَ فِي الشَّمْسِ أَوْ عَرَّضَ لِلْهَوَاءِ لِيَجْفَ .

فقلت انزل تراك اليوم رهن تضمنه لنا فحل كسير
فقال طلبتها أدماء جَلَسًا سما من فوقها قَرَدٌ وثير^(١)
فأذهب شكه ثيل فأمسى يظن بأنها فحل كبير^(٢)
وقيل تلقى عبد الله بن صفوان^(٣) معاوية حين قدم المدينة ، وعليه إزار
ورداء خِفٌ^(٤) وعمامة ، حتى دخل بينه وبين يزيد ، فالتفت إليه معاوية
فقال : كيف أنت يا أبا صفوان ؟ قال : كالخير لمن أراد الخير ، وكالشر لمن
أراد الشر . فلما صار معاوية إلى منزله جمع القواد الذين ظنّ ، أنهم سمعوا ذلك
الكلام ، فقال : يا أهل الشام ، إن أبا صفوان تعتريه ريح ومرار ،
فادعوا الله له بالعافية . فجعل أولئك بغفلتهم يرفعون أيديهم ويدعون الله له .
وقيل لما هرب عمر بن هبيرة^(٥) من سجن خالد^(٦) ، وأتى هشاماً فأمنه

(١) أدماء : سمراء اللون ، والجَلَسُ : الغليظ من الأرض ، وناقّة جَلَسٌ
أو جلساء : أى وثيقة تشبه الصخرة والتقرّد : الوبر .

(٢) سقط البيتان الأخيران من نسخة ١ .

(٣) عبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف الجمحي ، من رؤساء مكة . كان شهيداً
شجاعاً . انضم إلى عبد الله بن الزبير وحارب إلى جانبه ضد الحجاج ، وقتل معه .

(٤) رداء خف : أى خفيف

(٥) عمر بن هبيرة بن سعد الغزاري : من القادة الشجعان الدهاة . قاتل في
جيش الحجاج . وولى الجزيرة لعمر بن عبد العزيز ، ثم ولى العراق وخراسان
ليزيد بن عبد الملك ، ثم عزله هشام بن عبد الملك وأسلمه إلى خالد بن عبد الله القسري ،
فحبسه هذا في سجن واسط ، إلا أنه استطاع أن يهرب من السجن بواسطة نفق حفره
أتباعه . فذهب إلى الشام والتجأ إلى مسلمة بن عبد الملك الذي استرضى هشاماً عنه
فعفى عنه وأمنه .

(٦) هو خالد بن عبد الله بن يزيد القسري . ولى العراق لهشام بن عبد الملك ،
وأقام فيها حتى عزله وولى مكانه يوسف بن عمر ، وأمره أن يحاسبه ، فسجنه يوسف
وعذبه حتى مات في السجن . وكان خالد من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة
والبلاغة ، كما اشتهر بالكرم .

وقال له : أمّا المال فأدّه فليس منه بُدٌّ . قال : ليس عندي ، ولكن أسأل قومي إذا خرج عطاؤهم . فقال لقومه : إن أمير المؤمنين قد حبسني بكذا وكذا فأدوني . فجعل الرجل يحیی بعطائه فينثره بين يديه ، فيقول : ليس هذا أردنا ، دون هذا يكفيننا . وإنما أراد بذلك أن يسمع هشام ، فيعلم أنه ليس عنده مال ، قال : وجعل كلما أخذ من رجل شيئاً كتب عليه اسمه . قال : فلما أمسى ردّها عليهم ، وأصبح فأدّى إلى هشام من ماله .

وحكى أن أمير المؤمنين المعتصم بالله ، غضب على بعض خدمه فحبسه في داره في بيت وأغلق عليه باباً . وأن رفيقاً له من غلمان المعتصم كان يقف بالباب ، فيناجي المحبوس ويخبره بأخبار السلطان ، ويكتب بها إليه الرقاع ، فاتهمها المعتصم بالله بما كانا يفعلان . فدعا بالغلام المطلق ، فسأله عما قُرِفَ^(١) به من مكاتبة صاحبه ، فأنكر ذلك . فأمره فكتب بيده في رقعة مثل رقعه ، وجعل في الرقعة وقية في المعتصم بالله ، ثم قال له : خذ الرقعة ودواة وأدخلهما من تحت باب البيت ولا تتكلم بشيء حتى أنظر بما يجيبك به المحبوس .

نحاف الغلام أن يجيبه رفيقه المحبوس بحسب ما كان يدور بينهما . فأدخل الدواة والرقعة من تحت الباب ، وقلب الدواة ، وجعل صدر الرقعة مما يلي المحبوس وآخرها مما يلي الباب ، وتنحى عن الباب . فلما رأى المحبوس الدواة مقلوبة والرقعة مقلوبة ، أنكر ذلك وخاف أن تكون حيلة للتكشيف^(٢) . فكتب جواب الرقعة بإنكار ما كان فيها واستعظامه له ، وقال في رقعته : متى كانت بيني وبينك مراسلة ومكاتبة حتى تكتب إليّ بمثل هذا ؟ ثم لفّ الجواب فطرحه . فلما قرأ المعتصم بالله الجواب برثا عنده من المراسلة .

(١) قُرِفَ به : أنهم به .

(٢) التكشيف : الكشف والإظهار .

بَابُ يُخْتَرَبُ الْكِتَابُ
(١) يَجْمَعُ ضُرُوبًا مُخْتَلِفَةً فِي لُطْفِ النَّذِيرِ

قيل إن رجلاً أتى الأحنف بن قيس فطمه ، فقال له : لِمَ لطمتني ؟
فقال : جُعِلَ لي على أن أطم سيد بني تميم . قال : ما صنعت شيئاً ، عليك
بجارية بن قدامة فإنه سيدهم . فانطلق فطم جارية بن قدامة ، فأخذه فقطع يده ،
وإنما أراد الأحنف ذلك به (٢) .

وفي مثل ذلك قال قوم من قريش : ما نظن أن معاوية أغضبه شيء
قط (٣) . قال بعضهم : بلى ، إن ذُكرت أمه غضب . قال مالك بن أسماء المنى
القرشي ، وهي أمه ، وإنما قيل لها أسماء المنى من جمالها : والله لأغضبه إن
جعلتم لي جُعلاً . (فجعلوا له جُعلاً) فأتاه ، وقد حضر معاوية (ذلك) العام
الموسم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما أشبه عينيك بعيني أملك ؟ قال : تلك
عينان طالما أعجبتا أبا سفيان يا ابن أخي ، أنظر إلى ما أعطيت من الجُعْل فخذ
ولا تتخذنا متجراً . ثم دعا معاوية مولاه سعداً ، فقال : له اعدد لأسماء المنى
دية ابنها ، فإنني قد قتلته وهو لا يدري .

ورجع الغلام فأخذ جُعله . (فقال له رجل : إن أنت أتيت عمرو بن

(١) في ب : باب يجمع ضروباً مختلفة في الحروب وغيرها .

(٢) في ب ، إضافة : « وهي تعد من سقطاته »

(٣) عرف معاوية بالحلم وسعة الصدر ، وقد أغلظ له مرة رجل في الكلام
فقيل له : أتحلم عن مثل هذا ؟ فقال : إني لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا
بيننا وبين مملكتنا . وهو صاحب القول المشهور : « لو كانت بيني وبين الناس شعرة
ما تركتها تنقطع ، فإن شدوا أرخيت ، وإن أرخوا شددت » .

الزبير^(١) فقلت له : يا ابن الزبير ، ما أشبه وجهك بوجه أمك ، لك مثل هذا الجعل ، فأتاه فقال له (فأمر به فضرب حتى مات . فبعث معاوية إلى أمه بديته وقال :

ألا قل لأسماء النى أم مالك فإني لعمر الله أقتلت مالكا
ومثله قول عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير^(٢) لما هاجى فروة بن خبيصة
الأسدي^(٣) ، ولفروة سبع عشرة سنة ، وعماراة قد جاوز الستين . فقال
في عماراة قصيدة منها :

وابن المراغة جاحر من خوفنا بالوشم منزلة الذليل الصاغر^(٤)
يخشى الرياح بأن تكون طليعة أو أن تحل به عقوبة نادر
وليت ظهرك واتقيت بنسوة سود المعاصم والوجوه حواسر
ورجوت بالهرب البقاء وقد ترى سبب المنية قد بدا للنظار

(١) هو عمرو بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي ، أخو عبد الله بن الزبير ،
وكان مع بني أمية على أخيه ، وقد قاد جيشاً أموياً إلى مكة لمحاربة أخيه ، إلا أنه أسر
فقتله أخوه عبد الله .

(٢) من أحفاد جرير الشاعر . وهو شاعر فصيح من أهل البصرة ، كان يتردد
على خلفاء بني العباس فيجزلون صلته . عاش حتى أيام الوراق .

(٣) في ب : « فروة بن حمضة » .

(٤) ابن المراغة : كنية جرير الشاعر ، كناه بها الفرزدق حين هجاه في قصيدته
التي أولها :

دعاني جريرُ بن المراغة بعدما كعبنَ بنجدٍ والملاكلَ ملعبِ
وجاحر : متخلف . والملا : المتسع من الأرض . راجع ديوان الفرزدق
القسم الأول ، ص : ٣٧ .

فقال عمارة في نقيض هذه القصيدة ما أوله :

لمن الديار كأنها بالحاجر وحى تبين في كتاب داثر^(١)
وفيه يقول :

وأحال شكركم الوعيد وربما تبع الضغينة عند غير الشاكر
ما في السوية أن تجر عليهم وتكون يوم الروع أول صادر
فلما سمع فروة هذا البيت الأخير ، استفزّه وكان صبياً لم يجرب حرباً .
فحمله هذا البيت على أن صبر في حرب بعد أصحابه وقاتل وحده ، فقتل بيده
ثلاثة من بني حنظلة ، وقُتِل^(٢) . فحكى عن الفضل بن الحُباب : أنه سمع
عمارة وقد قيل له : قُتِلَ فروة ، فقال : ما قتلتها ولكن أقتلتها ، أى
عرضته للقتل .

وقيل إن كسرى قال له منجموه : إنك تقتل . قال : لأقتلنّ الذى
يقتلنى . فأمر بسُمٍّ فخلط في أدوية ثم كتب عليه : « دواء للجماع مُجَرَّب ،
من أخذ منه وزن كذا جامع كذا وكذا مرة » وجعله في خزانة الطب .
فلما قتله ابنه شيرويه وفتش خزانته مرّ به ، فقال لنفسه : بهذا الدواء كان
يقوى على شيرين . فأخذ منه فأكله فأصبح وهو ميت .

في مزيان السراى :

حُكِيَ أن عبد الملك بن مروان كان من رجال أهله . فورد عليه في يوم

(١) الحاجر : منزل للعجاج في البادية يستريحون فيه في طريقهم إلى الحج .

(٢) حصل في هذه الجملة بعض الاضطراب في النسخ فعُدناه بهذا الشكل .

وقد سقطت هذه القصة من نسخة ب .

واحد ثلاثة أخبار تسوءه : أحدها إن طائفة الروم جاش على الثغور مثل عدد النمل كثرة . ومنها إن عمرو بن سعيد المعروف بالأشدق^(١) خرج عليه في ناحية من الشام . ومنها إن مصعب بن الزبير ورد العراق وقتل المختار^(٢) . فقال الناس : اليوم تُعرف جودة رأى عبد الملك . فقال عبد الملك : أما الثغور فإن للإسلام رباً ينصره^(٣) ، وأما مصعب بن الزبير فهو بالعراق وهو بعيد ، وأما الأشدق فهو أقربهم منى داراً ورحماً ، فهو أولاهم أن أقصده .

(١) هو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية ، وأمه عمة عبد الملك بن مروان . عرف بالأشدق لأنه كان مائل الشدق . ولقب بلطيم الشيطان لدهائه وسعة حيلته . كان شجاعاً شهماً ذا كبرياء وخطيباً فصيحاً . وكانت له يد في مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة ، على أن يكون ولي عهده بعد خالد بن يزيد . إلا أن مروان ، بعد أن استتب له الأمر ، نقل ولاية العهد إلى ابنه عبد الملك أولاً ثم لخالد فعمرو . وعند ما آل الأمر إلى عبد الملك ، أراد أن يجعل الولاية لابنه الوليد ، فسهل عليه خلع خالد عنها . أما عمرو فلم يقدر على خلعها منها رغم المكاتبات الطويلة بينهما . ولذا فقد عمل على قتله للتخلص منه ، فدبر له هذه المكيدة فقتله .

راجع : مروج الذهب ٢ : ١١٦ — ١١٨ و ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(٢) هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي ، الذي أتمره عمر بن الخطاب على الجيش الذي وجهه إلى العراق لمحاربة الفرس ، فقتل في وقعة الجسر . والمختار من كبار الثوار ضد الحكم الأموي . كان من أتباع الإمام علي ، وبعد مقتل الحسين انضم إلى عبد الله بن الزبير ، فوثق به هذا وأرسله إلى العراق . وهناك أخذ يدعو إلى محمد بن الحنفية ، وتبع قتلة الحسين فقتل أكثرهم . وعندما خرج إليه عبيد الله بن زياد وإلى الأمويين انتصر عليه المختار وقتله . فجرّد عبد الله بن الزبير عليه حملة بقيادة أخيه مصعب بن الزبير استطاع أن يتغلب عليه ، فقتل المختار .

(٣) يذكرنا هذا القول بقول عبد المطلب بن هاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم لأبيه ، حينما هاجم الأحباش بقيادة أبرهة مكة واستولوا على إبل قريش . وكان لعبد المطلب في هذه الإبل مائتا ناقة ، فذهب إلى أبرهة يطلب إليه أن يرد إبله =

فركب فرسه ودخل على امرأته عاتكة بنت يزيد بن معاوية يودعها .
فقامت إليه فقالت له : يا أمير المؤمنين ، لو وجَّهت من يكفيك ؟ قال : لا بد
من مشاهدة الأمر بنفسى . فلما أبى بكت وبكى من حولها من جواريتها . فقال :
لله در كثير^(١) كأنه كان يرانا حيث يقول :

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه حصان عليها نظم در يزينا
نهته فلما لم تر النهى عاقه بكت وبكى مما شجاها قطينا
ثم خرج نحو الأشدق^(٢) ، فجرت بينهما مراسلة على أن الخليفة عبد الملك ،
وعمر بن الأشدق ولي عهده . فأخذ كل واحد منهما العهد المؤكدة بذلك ، ثم
التقيا على صلح . فأعدَّ عبد الملك غلاً وقيداً من ذهب في جوفه زرد درع وثيقة ،
وجعله خفيفاً يتثنى . ثم قال عبد الملك لعمر بن الأشدق : أنسه من نفسه كل أنس :
إني كنت حلفت أن أغلك وأقيدك ، وهذا غل من ذهب ضعيف يتثنى وقيد
مثله ، فضعهما في عنقك ورجليك لأخرج من يميني . وقال لمؤذنه : إذا شدَّهما
عمر بن الأشدق في عنقه ورجليه ، فأذِّن لي بالصلاة . فلما شدَّهما عمر بن الأشدق في عنقه ورجليه
وأقفلهما^(٣) آذنه المؤذن بالصلاة . فخرج عبد الملك مبادراً وقال لأخيه عبد العزيز

== فاستاء منه أبرهة ، وقال له : تسألني إيلك وتترك البيت الذي تقدسه «يعنى الكعبة» .
فقال له عبد المطلب : أنا رب هذه الإبل ، وللبيت رب يحميه إن شاء منعه .

(١) هو كثير بن عبد الرحمن الخزاعي ويلقب بكثير عزة : شاعر مدني وأحد
عشاق العرب المشهورين . وفد على عبد الملك بن مروان فاخص به . وأخبره مع
عزة بنت جميل الضمرية مشهورة ، وكان حبه لها عفيفاً وأكثر شعره فيها .

(٢) في وفيات الأعيان : أن عبد الملك بن مروان لما أراد الخروج إلى العراق
لمحاربة مصعب بن الزبير منعه زوجته عاتكة وبكت فتمثل بقول كثير عزة .

(الجزء الثالث ، ص : ٢٦٦) .

(٣) في ١ : وأقفلا .

ابن مروان : أدخل إليه فاقتله . ثم صلى عبد الملك ورجع فوجد أخاه لم يصنع شيئاً . فدخل على عمرو وهو على سريرته فحذبه فألقاه على وجهه ثم قتله ^(١) .

حكى الهيثم أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أراد قتل الهرمزان ^(٢) ، فاستسقى ، فأتى بماء في قدح خشب ، فأمسكه بيده واضطرب . فقال له عمر : لا بأس عليك ، إني غير قاتلك حتى تشربه . فألقى القدح من يده ، فأمر عمر بقتله . قال : أولم تؤمنني ؟ قال : كيف أمنتك ؟ قال : قلت لا بأس عليك حتى تشرب ، فقولك : لا بأس عليك ، أمان ، ولم أشربه . فقال الزبير ^(٣) وأنس ابن مالك ^(٤) وأبو سعيد الخدري ^(٥) رضوان الله عليهم : صدق . فقال عمر رضى الله عنه : قاتله الله أخذ أماناً ولم نشعر به .

(١) تتفق هذه الرواية مع رواية المسعودي في مروج الذهب ٢ : ١١٦ — ١١٧

(٢) هو القائد الذي وجهه يزدجرد ملك فارس إلى الأهواز لمقابلة الجيوش العربية التي كانت بقيادة أبي موسى الأشعري الذي استسلم إليه الهرمزان . فتوجه به أبو موسى أميراً إلى المدينة . وعندما قابلته الخليفة عمر بن الخطاب ، عرض عليه الإسلام فأبى وقال للخليفة : لا تقتلني حتى تسقيني الماء . وهذه هي التي يرويها المؤلف هنا . ومن المعروف أن الهرمزان تظاهر بالإسلام وعمل على اغتيال الخليفة . فلما قتل أبو لؤلؤة المجوسي الخليفة عمر ، اتهم الهرمزان بالاشتراك في ذلك فقتل .

(٣) هو الزبير بن العوام .

(٤) أنس بن مالك : صحابي من الأنصار صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم وخدمه حتى وفاته ، وكان الرسول عنه راضياً ، وقد دعا له بكثرة المال والولد . وعمّر أنس طويلاً إذ توفي على عهد الحجاج في سنة ٩١ هـ . وكان آخر من مات من الصحابة في البصرة . وقد روى أحاديث كثيرة عن الرسول .

(٥) هو سعيد بن مالك الأنصاري من الصحابة ومن ملازمي الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد صاحبه في أكثر حروبه وغزواته ، وروى عنه أحاديث كثيرة .

قيل تمارض الأحوص بن جعفر بن عمرو على أهله فجعل لا يتكلم ، والأطباء يختلفون إليه . فأتاه شراعة وكان نديماً له ، فكلمه فلم يجبه . فالتفت شراعة إلى جليس له فقال : كنا أمس بالحيرة فأخذنا الطلاء أربع قناني بدرهم . قال الأحوص : الكاذب ناك أمه ، إنما هو قنيتان بدرهم .

قيل أتى طفيلي دار قوم قد أعرسوا ، فدنا من الباب فدق في صدره ومنع من الدخول . فأخذ إحدى نعليه فجعلها في كُفِّه وعلق الأخرى في يده . وأخذ خلافاً يتخلل به ، ودنا من الباب ، فقال : يا عبد الله إني نسيت إحدى نعلي داخل الدار ، فقال له البواب : إنما كنا نمنعك من الدخول للغداء ، فأما إذا تغديت . فادخل ، فدخل وجلس مع القوم فأكل وخرج .

قال : كان نَعْمَان ^(١) من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ممن شهد بدرًا مع النبي صلى الله عليه وسلم . وقد ضرب في الخمر مرات ، وكان يعبت كثيراً . فمر يوماً بمخرمة بن نوفل الزهري ^(٢) بعدما أضرَّ ، وهو يقول : مَنْ يَقودني إلى موضع أبول فيه ؟ فأخذ بيده نَعْمَان حتى إذا كان في مؤخر المسجد (قال : إجلس . فجلس يبول . فصاح به الناس : يا أبا المسور إنك في المسجد) فقال مَنْ قَادني ؟ قالوا نَعْمَان . قال : لله على أن أضربه بعصاي إن وجدته . فبلغت نَعْمَان فجاء فقال : يا أبا المسور هل لك في نَعْمَان ؟ قال نعم . قال : هو هذا يصلي ، فأخذ بيده وجاء به إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو يصلي

(١) هو نَعْمَان بن عمرو ، صحابي من الأنصار . كان كثير الفسكاهة والمزاح . وله قصص فسكاهة ودعابة مع الرسول صلى الله عليه وسلم ومع بعض الصحابة . وقد شهد أكثر حروب الرسول وغزواته .

(٢) مخرمة بن نوفل الزهري القرشي ، صحابي عالم بالأنساب ، أسلم يوم فتح مكة ، وكان فصيحاً سليط اللسان ، عمر طويلاً وكف بصره في زمن عثمان . مات في المدينة سنة ٥٤ هـ .

فقال : هذا نُعَيْمان . فَعَلَّاهُ بِعَصَاهُ . فصاح الناس وقالوا : ضربت أمير المؤمنين .
قال : من قاذى . قيل : نُعَيْمان . قال : لا جرم ، لا عرضت له بشيء .

وقيل أراد يوسف بن عمر أن يستعمل عبد الملك بن إسحاق بن عبد الله بن
عمير الليثي ، فكره عبد الملك العمل ، فَأَتَى قُحْظُمًا ^(١) فقال : اعمل لي في أن
تكفه عني ، فلا حاجة لي في عمله مع قتله عماله . فقال له : إذا كان غداً وجلس
فأته والبس أطول ما تقدر عليه من الثياب وأجودها ، وأكثر من الغالية
والتعطر . ففعل (ذلك) ودخل على يوسف بن عمر وعليه ثياب يسحبها . فقال
يوسف اقْحُظْمُ : مَنْ هذا المقبل ؟ قال : هذا عبد الملك بن إسحاق ، رجل له
شرف وخطر ومؤونة عظيمة ورثته أبواه ^(٢) مالا كثيراً فأتلفه . قال : فيم ؟ قال :
فيما ترى من الهيثة وطلب المروءة . قال : لا يقوم هذا بأموالنا ، وليس هذا
من عمالنا . قل (له) لينصرف . فناداه الحاجب : انصرف يا عبد الملك . فرجع .
قيل لما خرج قطري أحب أن يعلم رأى الأحنف فيعمل به ، فدعا رجلاً من
بنى مازن فقال (له) : انطلق إلى البصرة ثم إيتِ الأحنف في ثياب سفرك ،
فإن سألك عني فقل خلفته بأصبهان . قال : إيهيأ يا أبا نعمة ، إن أشار على القوم
أن يركبوا البغال ويقودوا الخيول ويصبحوا ببلدة ويمسوا بأخرى بالحرى أن
تطول مدتهم . فلما سمع الرجل هذا الكلام من الأحنف انصرف إلى قطري
فحكى له ما قال له الأحنف ، فأخذ به .

وقيل أودع رجلٌ رجلاً كيساً فيه دنانير . وغاب الرجل فطالت غيبته .
فلما طال الأمر فتق المستودع الكيس من أسفله وأخذ الدنانير ، وصير في
الكيس دراهم وخاطه . فقدم صاحب الكيس بعد خمس عشر سنة فطلب

(١) هو قُحْظُمُ بن أبي سليم بن ذكوان ، كاتب يوسف بن عمر .

(٢) في ب : « أبوه » .

ما له . فرفع إليه الكيس بخاتمه ، فلم يقبله . ورافعه إلى عمر بن هبيرة ، فقال لإياس بن معاوية ^(١) : أنظر في أمر هذين . فقال إياس للمستودع عنده المال : ما تقول ؟ قال هذا كيسه بخاتمه . قال : منذ كم هو عندك ؟ قال : منذ خمس عشرة سنة . قال : فضُّوا الخاتم وانثروا الدراهم ، ففعلوا فوجدوا فيها ضرب عشر سنين وخمس سنين وأكثر وأقل . فقال له : أقررت أنه عندك منذ خمس عشرة سنة ، وفي الكيس ضرب عشر سنين وخمس سنين ؟ فأقر بالدنانير فالزمه إياها .

قيل كان في الزمن الأول ملك إنما يشرب (هو) وأهل ناحيته من ماء السماء . فقال له منجموه : إنا نجد في علمنا أنه من شرب من ماء هذه السنة المقبلة تغير عقله وخولط ، فإن رأى الملك أن يأمر بادخار الماء لنفسه وخاصته فليفعل ، ولا يشربوا من ماء هذه السنة المقبلة . فأمر بالمصانع فاتخذت وأدَّخر فيها من الماء ما يكفيه ويكفي خاصته . فلما جاء المطر وشرب الناس منه تغيرت عقولهم واختلطوا . وشرب الملك من الماء الأول هو وخاصته فلم يصبهم ما أصاب العوام .

فلما رأتهم العامة في خلاف حالهم ، قال بعضهم لبعض : إن ملكنا قد خواط ، وتغيرت عقله وعقول أصحابه . وما رأى إلا خلعه والاستبدال به ملكاً (منا) عاقلاً لم يتغير عقله . فبلغ ذلك الملك ، فقال لوزيره وكتابه ومنجميه : قد ترون ما أجمع هؤلاء عليه ، فما الرأي ؟ قالوا : الرأي أن نشرب

(١) إياس بن معاوية بن قرّة المزني ، اشتهر بالفطنة وحدة الذكاء . وضرب المثل بذكائه واستقرائه وصدق فراسته . ولذلك كان مقرباً من الخلفاء والولاة . ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء البصرة فكانت أحكامه مضرب الأمثال في دقتها وعدالتها توفي بواسط سنة ١٢٢ هـ .

من مائهم حتى نصير في مثل حالهم ، فلا ينكروا منك ولا منا ما أنكروه .
ففعل وخولط ، فصار مثلهم وأصحابه . فلما رأت ذلك العامة قالت : قد برأ
الملك وصلاح أمره .

وقيل خرج فيروز بن حصين مع ابن الأشعث ، وجعل في رأس الحجاج
مائة ألف درهم . فأسر فيروز فأتى به الحجاج . فلما رآه قال : أتجعل في رأسي
مائة ألف درهم وقد وليتك ما وليتك ؟ أكتب أموالك . قال : وتوئمتني ؟
قال : إذا رأيت صدقك . قال : إن لي عند الناس ودائع فأخرجني أتقاضاها .
فخرج فنأدى : من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا فيروز بن حصين كل
مملوك لي خرو وما في يده له . ومن كانت لي عنده وديعة (فهي له) وهو منها
وهو في حلٍّ ، ومن كان لي عليه مال فهو عليه صدقة . فتعلمها خالد بن عبد الله
القسري منه ، فضنعها بيوسف بن عمر . ثم دعا الحجاج بفيزوز فضرب عنقه .

حدث هشام بن الكلبي عن أبيه قال : سمع رجل من جرم يُقال له
مسامة بن عمرو أو عمرو بن مسامة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يذكر
فتح الحيرة وغيرها ، وقد كان رأى بنت بُقَيْلَة^(١) قبل ذلك وكانت من أجمل
الناس (وجهاً وأشب النساء) فقال : يا رسول الله ، إذا فتح الله عليك الحيرة
فهب لي بنت بُقَيْلَة . قال : هي لك . وكان مع خالد بن الوليد ، فلما صالح
أهل الحيرة قال له : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان وهب لي بنت بقيلة .

(١) وهي كرامة بنت عبد المسيح ، ولقبه بقيلة . وجاء في الطبري أنها
أعطيت إلى سُؤَيْل . والخبر هناك يختلف عما ورد هنا قليلا . الطبري — م ، ٣ :

قال : ومن يشهد لك (بذلك) ؟ فشهد له جرير بن عبد الله البجلي ومحمد ابن سلمة الأنصاري . فنادى خالد أن أخرجوا ابنة بقبيلة من صلحكم ، فإن نبينا عليه السلام كان وهبها لرجل من أصحابه . قال : فجزع^(١) أهل الحيرة من ذلك . وقالوا : من الرجل ؟ فدثلوا عليه . فقالوا : نحن نشترها منك بحكمك . قال : ولي منها نظرة ؟ قالوا ذلك لك .

فأنفذوا له عجوزاً كبيرة قد اختلفت ترقوتها ، في حجاب ، فكشف الحجاب فنظر إليها فقال : إنك لهى ؟ قالت : نعم . قال : بؤساً لك ، قد صيرك الدهر إلى ما أرى . قالوا : فاحتكم الآن إلى ما بدا لك . قال : أنا أحتكم عشر مائة . قالوا : فلك عشر مائة .

وبلغ المسلمين إنهم قد حكموه فرجع إليهم بعشر مائة ، قالوا : قد والله خدعت مرتين ، كيف صارت عجوزاً وأنت شاب ؟ قال : هذه واحدة . قالوا : وعشر مائة . قال : أو في الأرض عدد يجاوز عشر مائة ؟ قالوا : نعم عشرة آلاف . قال : خدعتُ مرتين .

قيل كان رجل يسخر بالناس ويدعى أنه يرقي^(٢) الضرس إذا حَزَبَ على صاحبه . فكان كلما أتاه من يشتكى من ضرسه قال له إذا رقاہ : إياك أن تذكر القرد إذا صرت إلى فراشك ، فإنك إذا ذكرته بطلت الرقية . وكان أحدهم إذا صار إلى فراشه أول ما يخطر على باله القرد ، فيبيت على حاله من وجعه ، فيغدو إلى من رقاہ ، فيقول له : كيف بت ؟ فيقول : بتٌ وجعاً . فيقول : لعلك ذكرت القرد ؟ فيقول : نعم . فيقول : من ثمَّ لم تبرأ .

(١) في ١ « فخرج أهل الحيرة » .

(٢) يرقي : يستعمل الرقية نقعاً أو إضراراً . والرقية هي أن يستعان للحصول على أمر بقوى تفوق قوى الطبيعة كما يقول الرقاة .

انتهى^(١) الكتاب والله الحمد والمِنَّة ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي
الأمي وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً . وحسبنا الله ونعم الوكيل ، على يد
فقير عفو ربه المجد عيسى بن علي بن محمد الشافعي . في مستهل شهر ربيع الأول
من شهور سنة تسع وثمانين وثمانمائة . والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا
محمد وآله وصحبه وسلم ، ورضى الله عن كل الصحابة أجمعين .

فيا قارئاً خطي سل الله توبةً أفوز بها يوم المعاد من الحشر

شكر واجب

أعانتني على تحقيق الكتاب وإخراجه عدد من الإخوان الأفاضل ، أرى من الواجب الاعتراف بما بذلوه من جهدٍ وما قدموه من عونٍ . أخص بالذكر منهم الأستاذ السيد مكي جاسم والأستاذ جاسم محمد الرجب ، اللذين أبديا مساعدة قيّمة في كشف كثير من الكلمات والتعابير المبهمة ، والأستاذ فؤاد السيد الذي أشرف على مراجعة الكتاب وطبعه ووضع فهرسه ، والأخ السيد قاسم محمد الرجب الذي قدم مخطوطة الكتاب وتولى طبعه ونشره . فإلى هؤلاء جميعاً أزجي أسمى التحيات وأتقدم بخالص الشكر والثناء .

أحمد عبد الباقي

المراجع

الأخبار الطوال : لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري .

تحقيق عبد المنعم عامر والدكتور جمال الدين الشيال

دار إحياء الكتب العربية - الطبعة الأولى - القاهرة - ١٩٦٠

أخبار النساء : لابن قيم الجوزية

إصدار دار الفكر - بيروت

أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام : لعمر رضا كحالة

الطبعة الثانية (٥) أجزاء

المطبعة الهاشمية - دمشق - ١٩٥٨

الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين) :

تأليف خير الدين الزركلي

الطبعة الثانية (١٠) أجزاء

مطبعة كوستا تسوماس وشركاه - مصر - ١٩٥٥

الأنساب : للإمام أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني -

(الجزء الأول)

الطبعة الأولى بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية

حيدر آباد الدكن - ١٩٦٢

أيام العرب في الجاهلية : محمد أحمد جاد المولى ، وعلى محمد البجاوي ،

ومحمد أبو الفضل إبراهيم

مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة - ١٩٤٢

- إيران في عهد الساسانيين : تأليف كريستنسن ، وترجمة : يحيى الخشّاب
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة — ١٩٥٧
- البدء والتاريخ : لمطهر بن طاهر المقدسي (٦) أجزاء
عنى بنشره كلمان هوار — طبعة باريس — ١٨٩٩
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : للحافظ جلال الدين السيوطي
الطبعة الأولى — مطبعة السعادة — مصر — ١٣٢٦ هـ
- بلاغات النساء : لأحمد بن أبي طاهر طيفور
مطبعة مدرسة والده عباس الأول — مصر — ١٩٠٨
- التاج في أخلاق الملوك : لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
حققه : أحمد زكي باشا
المطبعة الأميرية — القاهرة — ١٩١٤
- تاريخ الأمم والملوك : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري
الطبعة الأولى — المطبعة الحسينية المصرية (١٣) جزءاً
وطبعة دار المعارف بمصر (٤) أجزاء منه فقط — ١٩٦٢
- تاريخ الحكماء : لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطى
عنى بنشره يوليوس ليبرت
ليبرزك — ١٩٠٣
- التنبيه والإشراف : لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي
عنى بتصحيحه ومراجعته : عبد الله إسماعيل الصاوى
دار الصاوى للطبع والنشر والتأليف — القاهرة — ١٩٣٨

جمهرة رسائل العرب : لأحمد زكي صفوت (جزآن)

مطبعة مصطفى البابي الحلبي — مصر — ١٩٣٧

الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري : تأليف آدم متز . نقله إلى العربية :
محمد عبد الهادي أبو ريذة (جزآن)

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة — ١٩٤٠

ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي : تحقيق محمد عبده عزّام (المجلد الثاني)
دار المعارف — مصر ١٩٥٧

زبدة كشف المالك ، وبيان الطرق والمسالك : لغرس الدين خليل بن شاهين الظاهري
اعتنى بتصحيحه : پول راوس

المطبعة الجمهورية بباريس — ١٨٩٤

شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون : تأليف جمال الدين محمد بن محمد بن نباتة
مطبعة بولاق — ١٢٧٨ هـ

سلوك المالك في تدبير الممالك : لشهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع
مطبعة جمعية المعارف المصرية — ١٢٨٦ هـ

شرح ديوان لبید بن ربیعة العامري : حققه وقدم له الدكتور إحسان عباس
إصدار وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت
الكويت — ١٩٦٢

العقد الفريد : تأليف أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي
شرح وتصحيح وترتيب : أحمد أمين ، أحمد الزين ، إبراهيم
الأبياري (٧) أجزاء

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — مصر — ١٩٤٦

للعقد الفريد للملك السعيد : لأبي سالم محمد بن طلحة الوزير

المطبعة الوهبية — مصر — ١٢٨٣ هـ

عيون الأخبار : لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٤) مجلدات

مطبعة دار الكتب المصرية — القاهرة — ١٩٢٨

غرر السير المعروف بكتاب غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم :

لأبي منصور الثعالبي

طبعة طهران — ١٩٦٣

فتوح البلدان : لأبي الحسن البلاذري . غنى بمراجعته والتعليق عليه :

رضوان محمد رضوان

مطبعة السعادة — مصر — ١٩٥٩

الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية : لابن الطقطقي محمد بن علي بن طباطبا

المطبعة الرحمانية — القاهرة — ١٣٤٠ هـ

الكامل في التاريخ : لأبي الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير

(٩) أجزاء

المطبعة المنيرية — مصر — ١٣٠٣ هـ

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : لمصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي

خليفة أو كاتب جلبي

طبعة وكالة المعارف في مطبعتها باستانبول — ١٩٤٣

لطائف المعارف : لأبي منصور الثعالبي . تحقيق إبراهيم الأبياري وحسن كامل الصيرفي

دار إحياء الكتب العربية — مصر

مجمع الأمثال : لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني . حققه وعلق حواشيه :
محمد محيي الدين عبد الحميد

مطبعة السعادة — مصر — ١٩٥٩

محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية : محمد الخضري (٣) أجزاء

مطبعة دار إحياء الكتب العربية — مصر — ١٩٢١

مروج الذهب : لأبي الحسن المسعودي (جزآن)

المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦ هـ

المعارف : لابن قتيبة . حققه وقدم له : دكتور ثروت عكاشة

مطبعة دار الكتب — مصر — ١٩٦٠

معجم البلدان : لياقوت الحموي . الطبعة الأولى

مطبعة السعادة بمصر — ١٩٠٧ (١٠) أجزاء

معجم المطبوعات العربية والمعرّبة : جمعه ورتبه يوسف إيلان سر كيس

مطبعة سر كيس — مصر — ١٩٢٨

فوات الوفيات : تأليف محمد بن شاكر الكتبي — (جزآن)

حققه وضبطه وعلق حواشيه : محمد محيي الدين عبد الحميد

مطبعة السعادة — مصر — ١٩٥١

معجم المؤلفين (تراجم مصنفى الكتب العربية) : لعمر رضا كحاله

(١٥) جزءاً — مطبعة الترقى بدمشق — ١٩٦٠

معجم الأدباء : لياقوت الحموي . طبعة د . س . مرجليوث

مطبعة هندية بالموسكى بمصر — ١٩٢٥

الملل والنحل : لعبد الكريم بن أبي بكر الشهرستاني (جزآن)

مطبعة البابي الحلبي — مصر — ١٩٦١

نكت الهميان في نكت العميان : لصالح الدين الصفدي

وقف على طبعه أحمد زكي باشا

المطبعة الجمالية بمصر — ١٩١١

نوادير المخطوطات (المجموعة السادسة) : كتاب أسماء المغتالين من الأشراف

في الجاهلية والإسلام وأسماء من قتل من الشعراء : لأبي جعفر

ابن حبيب البغدادي . نشرت بتحقيق عبد السلام هارون

الطبعة الأولى — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر —

القاهرة — ١٩٥٤

نهج البلاغة : شرح عز الدين أبي حامد الشهيد بابن أبي الحديد (٢٠) جزءاً

مطبعة دار الكتب العربية الكبرى — مصر — ١٣٣٠ هـ

نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار لمحمد بن علي بن

محمد الشوكاني .

الطبعة الثانية . شركة مصطفى البابي الحلبي وشركاه بمصر ، ١٩٥٢ .

الوافي بالوفيات : لصالح الدين الصفدي . باغتناء س . ديدرينغ

المطبعة الهاشمية — دمشق — ١٩٥٣

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد

ابن أبي بكر بن خلصكان

حققه وعلق حواشيه : محمد محي الدين عبد الحميد (٦) أجزاء

مطبعة السعادة — مصر — ١٩٤٨

الوزراء والكتاب : لأبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهمشياري

حققه : مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي

الطبعة الأولى . مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده —

القاهرة — ١٩٣٨

هدية العارفين (أسماء المؤلفين وآثار المصنفين) تأليف إسماعيل باشا البغدادي

طبع وزارة المعارف في مطبعتها باستانبول — ١٩٥٥

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة المحقق	...
مقدمة المؤلف	١
الباب الأول : في أوائل ما تحتاج الملوك إلى معرفته	٢
الباب الثاني : في لطف التدبير في الحروب	١٦
الباب الثالث : في فتح القلاع	١٩
الباب الرابع : في لطف التدبير في فتح البلاد	٢٤
« الخامس : في لطف التدبير في عقد مُلك	٢٩
« السادس : في كسر العساكر بقوة الرأي لا بقوة المكاثرة	٣٨
« السابع : في كسر الجيوش بتفريق كلمتها	٤٨
« الثامن : في التدبير على مفسدٍ أو مستعصٍ	٥٥
« التاسع : في تسكين شغب وإصلاح نفار أو ذات بين	٦٥
« العاشر : في التضريب والإغراء	٧٩
« الحادي عشر : في تدبير المنهزم	٩٥
« الثاني عشر : في لطف التدبير	٩٨
« الثالث عشر : في المكائد على الأعداء	١٠٤
« الرابع عشر : في مكايده صغير لكبير	١٠٩
« الخامس عشر : في دفع مكروه بقول	١١٧
« السادس عشر : في دفع مكروه بمكروه	١٢٣

الصفحة	الموضوع
١٢٩	الباب السابع عشر : في دفع مكروه بلطف
١٣٨	» الثامن عشر : في لطف التدبير في دفع مكروه
١٤٣	» التاسع عشر : في مداراة السلطان
١٥٠	» العشرون : في الانتقام من سالي ملك
١٥٨	» الحادى والعشرون : في الخلاص من نقمة من يعين على قطيعة
	الرحم بالقتل
١٦٤	» الثانى والعشرون : في الفتك والأمر به أو الاحتراز منه
١٧٦	» الثالث والعشرون : في جزالة الرأى
١٨١	» الرابع والعشرون : في إظهار أمر وإخفاء غيره
١٨٤	» الخامس والعشرون : في اطلاع على مكتوم
١٩١	» السادس والعشرون : في درك ثار وطائلة
١٩٦	» السابع والعشرون : في فسخ العزائم
٢٠٠	» الثامن والعشرون : في إنهاء خبر بلا تصريح
٢٠٤	» التاسع والعشرون : في مخاطرة الملوك بأنفسهم
٢١٠	» الثلاثون : في اللطف في حط منزلة
٢١٢	» الحادى والثلاثون : في دفع الفسيلة
٢١٤	» الثانى والثلاثون : في دفع ظننة
٢١٧	» يختتم به الكتاب : يجمع ضروبا مختلفة في لطف التدبير

